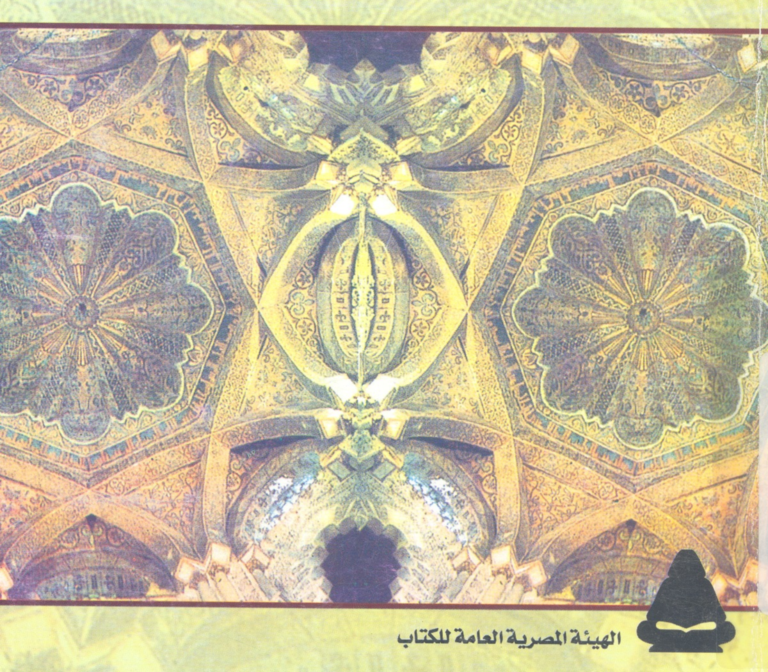
مكتبة
الأسرة
2000

مهرجان القراءة للجميع
الأعمال الفكرية

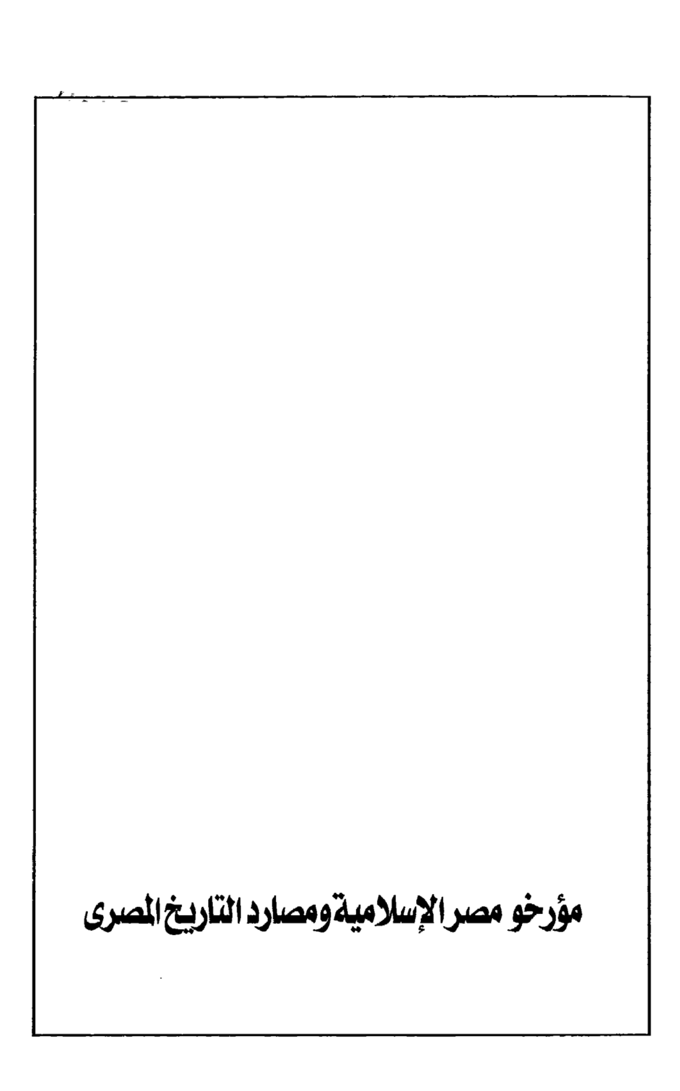
مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى

محمد عبد الله عنان

الطبعة الثاني



الهيئة المصرية العامة للكتاب



مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى

طبعة خاصة من مكتبة الخانجى
لمكتبة الأسرة
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع
٩٩/٩٦٦٩
I.S.B.N. 977 - 01 - 6250 - 7

مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى

الطبعة الثانية

محمد عبدالله عنان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

مـؤرخـو مـصـر الإسـلاميـة ومـصـادر التاريخ المصرى

محمد عبدالله عنان

الغلاف والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتبت معظم فصول هذا الكتاب فى الثلاثينات ، أيام الشباب ، وفى بداية حياتى القلمية . وكان يدفعنى فى هذه المرحلة المبكرة من حياة القلم ، شغف شديد بالتنقيب فى مصادر التاريخ المصرى . وقد بدأت بالتوفر على دراسة موضوع فى تاريخ مصر الإسلامية ، رأيته جديراً بالبحث ، وهو تاريخ الخطط المصرية ، وأنفقت فى سبيل إعداده جهوداً مضنية ، وأخرجته أخيراً ضمن كتابى مصر الإسلامية . وكان هذا المجهود الذى يمثل ناحية واحدة من مصادر التاريخ المصرى ، هو تاريخ مدينتى مصر والقاهرة ، مشجعاً لى على المزيد من البحث فى مصادر تاريخنا الإسلامى . فعولت على أن أتقصى هذه المصادر بدراسة أصحابها المؤرخين المصريين ، وبدأت بدراسة المؤرخين الثلاثة الذين تعتبر جهودهم أسس تاريخ مصر الإسلامية ، وهم ابن عبد الحكم ، والكندى ، وابن زولاق ، وكانت الدراسة شاقة مضنية لأنى حاولت أن أعرض مجهود كل مؤرخ عرضاً مفصلا شافيا ، وأن أتقصى تراثه ، المطبوع منه والمخطوط . وكان أشق ما فى البحث هو تتبع ما انتثر من هذا التراث فى رواية المؤرخين المتأخرين ، وكان هذا ما التزمته بالنسبة لتراث ابن زولاق بنوع خاص ، لأن مجهوده التاريخى لم يصلنا إلا على يد المؤرخين اللاحقين ، وبصورة جزئية مبعثرة .

ثم رأيت بعد ذلك أن استمر فى دراسة هؤلاء المؤرخين المصريين تباعاً . فكان من هذه الدراسات ، دراسات موجزة ، كما حدث بالنسبة للمسبحى والقضاعى ، لأن تراثهما التاريخى لم يصل إلينا كاملا ، ولم يصل إلينا منه سوى القليل ، فمثلا لم يصلنا من تاريخ المسبحى الكبير ، الذى قيل لنا إنه كان يشغل عدة مجلدات كبيرة ، سوى فصل واحد يحفظ بمجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال ،

وإن كان قد وصل إلينا منه كذلك شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين . ولم يصلنا من كتاب القضاعى فى الخطط والآثار كذلك ، سوى شذور نقل إلينا معظمها المقريزى فى خططه . وكان من هذه الدراسات ، دراسات مسهبة شاملة لمؤرخين مثل المقريزى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس ، لأننا قد تلقينا من كل منهم معظم تراثه ، وقد ظهر إلى الضياء الكثير من مؤلفاتهم ، وبين أيدينا معظم تراثهم المخطوط ، تحتفظ به مختلف المكتبات الشرقية والغربية .

وقد بدأت بنشر هذه الدراسات فى جريدة السياسة الأسبوعية ، ثم نشرت منها بعد ذلك فصولا فى مجلة الرسالة ، وفصولا أخرى فى مجلة الهلال . بيد أنى لم أقف حين إعدادها للطبع ، عند هذه الدراسات الأولى ، بل عكفت على مراجعتها وتنقيحها والزيادة فيها ، حتى تستكمل ثوبها العلمى المحقق ، وأعتقد أنى وفقت فى ذلك إلى المستوى المرغوب .

وقد كان لدى فى هذه الدراسة برنامج طموح ، هو أن أقوم بدراسة شاملة لسائر مؤرخى مصر الإسلامية ، من ابن عبد الحكم إلى الجبرتى . ولكن الظروف لم تسمح لى بتنفيذ هذا البرنامج على أكمله ، فقمت تباعاً بدراسة ستة عشر مؤرخاً ، هم الذين أقدمهم اليوم إلى القارئ فى هذا الكتاب المتواضع . وقد فاتنى أن أدرس عدة من المؤرخين المصريين ، الذين ساهموا بقسط كبير فى تكوين تراثنا التاريخى ، مثل ابن ميسر ، وابن الصيرفى ، وابن دقماق ، وابن وصيف شاه ، وجمال الدين القفطى ، وابن الفرات الحنفى ، وبدر الدين العينى . ذلك أنى شغلت خلال الخمسة وعشرين عاماً الأخيرة بدراسة التاريخ الأندلسى ، وغلب لدى هذا الاتجاه إلى دراسة تاريخ الغرب الإسلامى ، على كل اتجاه دراسى آخر ، وأحمد الله أجزل حمد على أن شملنى بعونه ورعايته ، حتى استطعت أن أخرج فى هذه الفترة الطويلة من الدراسات الأندلسية الشاقة ، تاريخ الأندلس كاملا ، منذ بدايته إلى نهايته ، فى سبعة مجلدات كبيرة .

وكان من الطبيعى أزاء تباعد هذين الميدانين للدراسة التاريخية ، أن أضع نشاطى خلال هذه الفترة الطويلة فى ميدان الدراسات المصرية جانباً . ومع ذلك ، وفى خلال هذه الفترة التى خصصت للدراسات الأندلسية والمغربية ،

استطعت لحسن الحظ ، أن أصدر الطبعة الثانية من كتابى « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » مزيدة زيادة كبيرة ، على ضوء مصادر جديدة مخطوطة (سنة ١٩٥٩) ، وأن أصدر كذلك طبعة جديدة من كتابى « تاريخ الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى » مزيدة ، متضمنة لتاريخ المعهد العظيم حتى العصر الحاضر (سنة ١٩٥٨) وكلاهما من أخص نواحى تاريخ مصر الإسلامية .

وأود أن أنوه بأنى جريت فى دراستى للمؤرخين المصريين ، على أسلوب الدراسة الشاملة ، وحاولت ما استطعت أن أتقصى سائر آثارهم وتراثهم التاريخى ، ولا سيما المخطوط منه . وهو تراث ضخم مبعثر فى مختلف المكتبات الجامعة ، ولا سيما مكاتب استانبول . ومع ذلك فإن دار الكتب المصرية تحتفظ منه بأعظم قسط . وأعتقد أن هذه الدراسة الشاملة ، سوف تذلل كثيراً من سبل البحث للباحثين فى هذا الميدان التاريخى الخصب ، بمصادره وموسوعاته التاريخية العديدة .

وإنى أشعر بالغبطة إذ أضع اليوم هذه الدراسات بين أيدى الباحثين ، بعد أن لبثت محتجبة طوال هذه الحقبة . ومن حسن الطالع أنها تظهر إلى الضياء فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الطبعة الثانية من كتابى « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » متضمناً عرضاً شاملا لسائر المصادر المتعلقة بتاريخ الخطط أو تاريخ مصر القاهرة ، ويعتبر كل من الكتابين بذلك مكمل للآخر من هذه الناحية التى تتعلق بالمصادر .

وإنى لأرجو فى الختام أن أكون قد وفقت بهذا المجهود المتواضع ، إلى تحقيق بعض ما نطمح إليه من استجلاء مصادر تاريخ مصر الإسلامية ، ولا سيما فى عصور الرياسة والسؤدد والمجد .

القاهرة فى شوال سنة ١٣٨٨
الموافق يناير سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

الكتاب الأول

المؤرخون المصريون
حتى العصر الفاطمي

الفصل الأول

عبد الرحمن بن عبـد الحكم

أول مؤرخ لمصر الإسلامية

١٨٧ — ٢٥٧ هـ : ٨٠٣ — ٨٧١ م

كانت مصر قبل الفتح الإسلامى ، مطمح دول عظيمة شامخة ، بلغت من القوة والحضارة أعظم شأو ، فلم يك غريباً أن تقع مصر القديمة ، بعد أن جاوزت ذروة العظمة إلى دور الانحلال ، صريعة الغزاة من الفرس واليونان والرومان . ولكن فتح العرب لمصر كان حادثاً خارقاً بين هذه الفتوحات . فقد كان الإسلام فى بداية أمره ، ودولة العرب فى مستهل حياتها ، ولم تكن فتوحات فارس والشام قد استقرت بعد على أسس ثابتة . ولكن فتح مصر ، كفتح فارس والشام ، كان أيضاً أمنية يضطرم بها الإسلام منذ نشأته ، وكان النبى العربى منذ العام السادس للهجرة ، قد ذكر مصر فيما ذكر من البلاد ، التى يتأهب الإسلام لفتحها ، فوجه إلى أميرها ، كما وجه إلى عاهل فارس وإلى قيصر الرومان ، دعوة إلى الإسلام ، كانت إنذاراً بالحرب والفتح . ولم يمض على وفاة النبي وفتح فارس والشام أعوام قلائل حتى جاء دور مصر ، فقدم إليها العرب يحفزهم ظمأ الغزو ، وتضطرم نفوسهم عزماً وثقة بما أحروا من الظفر ، ففتحوحا فى ظروف كالأساطير .

وقد مضى أكثر من قرن ، وسير هذه الفتوحات الباهرة ، قائمة على الرواية الشفوية ، ولم تظهر الرواية المكتوبة قبل أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث للهجرة ، فدون الواقدى[1] سير الفتوحات الإسلامية ومنها فتح مصر ، ودونها البلاذُرى من بعده فى كتابه الجامع[2] . وأخذت رواية التاريخ الإسلامى من ذلك الحين تنمو وتزدهر ، متقلبة بين التخصيص والتعميم . وكان لفتح مصر حظه

---

(١) توفى الواقدى سنة ٢٠٧ هجرية .

(٢) « فتوح البلدان » — وكانت وفاة البلاذرى فى سنة ٢٧٩ هجرية .

من هذه الرواية ، فدُون إلى جانب الفتوحات الإسلامية الأخرى ، ولكنه دون أيضاً بطريق التخصيص . وكان أول من دون هذه الرواية الخاصة ، ووضع أساسها ، مؤرخ مصرى غدت روايته على كر العصور ، مورداً لا ينضب لجميع مؤرخى مصر الإسلامية . هذا المؤرخ أو الراوية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى . ولد بفسطاط مصر فى نحو سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) ، وتوفى فى المحرم سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) . وكان بنو عبد الحكم من الأسر المصرية العريقة فى الجاه والعلم ؛ وكان أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم والد المؤرخ زعيم المالكية وأعظم فقهائهم ، صادق الإمام الشافعى حين مقدمه إلى مصر وساعده على البقاء والإقامة فيها . وكان أبناؤه محمد ، وعبد الحكم ، وسعد ، كلهم محدث وفقيه بارع ، وبالأخص محمد الذى خلفه فى زعامة المالكية . ولم يشذ المؤرخ عن تقاليد أسرته ، فدرس الحديث والفقه وبرع فى الرواية[1] . وهذه البراعة فى الرواية هى التى أوحت إليه أن يدون التاريخ ، وبالأخص تاريخ مصر . ذلك أن تاريخ مصر الإسلامية ، كغيره من تواريخ الأمم الإسلامية الأخرى ، لم يكن يومئذ سوى طائفة من الروايات والسير ، يتوارثها جيل بعد جيل . وأنفسها وأوثقها ما اتصلت روايته إلى عصر الفتح بأحد الصحابة أو الأنصار أو التابعين . وكان لآل عبد الحكم كما رأيت من هذا التراث قدر وافر . وكانت الرواية ما تزال حية فى صدور الرواة والمحدِّثين ، فكان تدوينها يومئذ أقرب إلى التحقيق والضبط . فى هذه البيئة المحدثة ، المحققة ، الغنية بتراث الأجيال القريبة ، الحريصة على تعاقب الرواية ، نشأ عبد الرحمن بن الحكم ، فقيهاً محدّثاً ، قبل أن يكون مؤرخاً[2] ، ورأى أن يستخرج من الرواية ما كان خاصاً بفتح مصر وأخبارها ، وأن يجمع ما استطاع مما قيل فى شأنها من الأحاديث النبوية ، ومختلف الأنباء والسير ، فى رواية واحدة متناسقة متعاقبة تكون تاريخاً مدوناً لمصر . وكان عبد الرحمن بظروفه وكفاياته رجل هذه المهمة ، فهو مصرى ولد وعاش بمصر ، ودرس مجتمعاتها وتقاليدها ورسومها الدارسة ، وهو سليل أسرة من الفقهاء

---

(١) الحافظ ابن حجر فى (تهذيب التهذيب) ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) **Wüstenfeld : Geschichteschreiber § 63**

Brockelmann : Gesch. der Arab. Litteratur (1-148)

والمحدِّثين : الذين عاصروا حملة الرواية من الصحابة والتابعين أو تلقوها عنهم ، واتصلوا بالولاة والزعماء ، ووقفوا على أسرار الدولة . وكانت أسرة المؤرخ أيام نشأته وفتوته كما قدمنا ، من أعرق الأسر المصرية جاها وعلماً ، ولكنه حينما بلغ الكهولة ، أصيبت الأسرة بمحنة أليمة ، ذهبت بمالها وجاهها ، وأسبغت على ذكرها مسحة من العار والإثم . وذلك أن الزعيم المصرى على بن عبد العزيز الجروى كان مثل أبيه ، قد رفع لواء الثورة واستطاع أن يسيطر على عدة نواح من مصر ، ولكنه هزم أخيراً واستسلم وحمل إلى بغداد ، ثم قتل فى النهاية[1] وأتهم بالخيانة وصودرت أمواله ، وعهد بالنظر فى أمرها إلى جماعة من رجالات مصر منهم بنو عبد الحكم . وفى سنة ٢٣٥ هـ أوفد الخليفة المتوكل ، يعقوب بن ابراهيم ، والياً على مصر ، وأمره بالنظر فى أموال الجروى وتحصيلها من المشرفين عليها ، فعجزوا عن الأداء ، فأحيلوا إلى القضاء وأودعوا السجن ومعهم قاضى القضاة ابن أبى الليث . ومضى أمير مصر الجديد ابن يحيى فى هذه الإجراءات ، فقضى على المشرفين بدفع مبالغ طائلة ، من ذلك مبلغ مليون وأربعمائة ألف وأربعة آلاف دينار على بنى عبد الحكم وحدهم ، وذلك فى منتصف سنة ٢٣٧ هـ ، واتبعت فى تحصيلها أشنع الوسائل . وتوفى عبد الحكم أخو المؤرخ فى السجن من أثر العذاب . وأخيراً ورد كتاب المتوكل باطلاق أخويه الآخرين ، ورد أموال الأسرة إليها ، لكن المحنة ذهبت من ذلك الحين بهيبتها وجاهها[2] .

ولسنا نعرف إن كان المؤرخ قد وضع تاريخه عن مصر قبل هذه المحنة التى نزلت بأسرته ، وذاق فيها عذاب السجن[3] والمطاردة حيناً ، أم بعدها ، ولكن المحقق على أى حال ، أنه كتب قسماً منه بعد المحنة ، إن كان قد بدأه قبل

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) الكندى — كتاب الولاة والقضاة (طبع رومة) ص ١٣٦ — ١٣٩ وأيضاً الكندى « الولاة » طبعة ذكرى جيب ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

(٣) لا يتضح من رواية الكندى إن كان المؤرخ قد سجن بالفعل مع أخويه ، ولكن المرجح أنه سجن بالفعل لأن الكندى يشير دائما إلى « بنى عبد الحكم » . أما المؤرخ نفسه فيمر على هذه السيرة بالصمت رغم إشارته فى باب « القضاة » إلى بعض من اشتركوا فى إجراءات القضية . كذلك يجب أن نذكر بهذه المناسبة أن بنى عبد الحكم عانوا قبل هذه المحنة ، عذاب المطاردة من جراء فتنة خلق القرآن أيام الخليفة الواثق (سنة ٢٢٧ هـ) وحمل أحدهم وهو محمد إلى العراق وعذب لأنه أبى أن يعترف بخلق القرآن (الكندى ص ١٢٧ وكذلك Wüstenfeld-ibid, § 63)

وقوعها ، لأنه يمضى فى أخبار القضاة الذين ولوا قضاء مصر حتى سنة ٢٤٦هـ[١] أعنى بعد المحنة بنحو ثمانية أعوام ، وإلى ما قبل وفاته هو بنحو عشرة أعوام . والظاهر أيضا أنه كتب قسماً منه قبل هذا العهد أو على الأقل قيد بعض رواياته ، لأنه يسند الرواية فى مواضع عدة إلى أبيه عبد الله بن الحكم المتوفى فى سنة ٢١٤هـ.[٢] وكانت هذه الرواية الشفوية عمدة ابن عبد الحكم فى معظم ما يدونه فى تاريخه ، فهو يروى عن أبيه ، وعن جماعة من معاصرى أبيه ، أو القريبين من عصره ، مثل الليث بن سعد ، وعبد الله بن صالح ، وابن لهيعة ، ويزيد بن حبيب ، وخالد بن حميد ، ويحيى بن أيوب ، وعبد الملك بن مسلمة ، وغيرهم من المحدثين الذين عاشوا فى القرن الثانى من الهجرة ، ثم يروى عن معاصريه هو مثل عثمان ابن صالح ، وعبد الله بن بكير . ومن هؤلاء وهؤلاء كثير من المحدثين المصريين الذين أتقنوا الرواية عن مصر ، وحرصوا على تسلسلها وتعاقبها منذ عصر الصحابة والتابعين ، الذين شهدوا الفتح وما تلاه من الحوادث. كذلك يعتمد ابن عبد الحكم على الرواية المدونة فى فرص قلائل ؛ من ذلك ما ذكره فى سياق المكاتبة بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فى شأن الخراج ، حيث أسند رسالة رواها لعمر إلى كتاب لابن بكير المتقدم ذكره قال إنه أعطاه إياه ، ومن ذلك استناده إلى « الواقدى وغيره » فى خاتمة كتابه عند ذكر الصحابة الذين دخلوا مصر[٣]. وكان الواقدى قد كتب يومئذ تاريخه عن فتح مصر والإسكندرية . وفيما عدا ذلك تستند مادة ابن عبد الحكم إلى الرواية ، وقد كانت يومئذ كما قدمنا عمدة النقل والسير . وكانت فيما يتعلق بفتح مصر وحوادثه وأساطيره ، لا تزال حتى أواخر القرن الثانى ، حية مكينة فى أذهان جمهرة من المحدثين المصريين ، وعلى رأسهم الليث بن سعد قاضى مصر ، وكاتبه عبد الله بن صالح ، وعثمان بن صالح ، ومن هؤلاء ومدرستهم يستقى ابن عبد الحكم معظم روايته عن حوادث الفتح . كذلك يستقى معظم روايته عن الأحاديث المتعلقة بمصر عن ابن لهيعة ، وهو محدث مصرى ولى قضاء مصر أيام المنصور ، وقد كان ضعيف الرواية فيما

---

(١) فتوح مصر — طبعة ليدن الكاملة ص ٢٤٧ .

(٢) فتوح مصر صفحات ٤٢ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٤ ، ٩٥ ، ١٤٤ ، ٢٥٠ وكثير غيرها .

(٣) فتوح مصر ص ١٦ و ٣١٩ .

يظهر[١] ، بيد أن أثر هذا الضعف لا يتعدى رواية الأحاديث ، ولا ينتقص من سياق الرواية التاريخية .

— ٢ —

وقد وصل إلينا مؤلف ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر بطريق الرواية التى استند إليها هو فى تدوينه . وتعاقب هذه الرواية واحدٌ ، فى ثلاثة من أربعة مخطوطات لهذا التاريخ ، هى كل ما ظفر به البحث الحديث إلى اليوم . ومن هذه الأربعة ، مخطوط فى لندن فى المتحف البريطانى يرجع إلى القرن السادس الهجرى كما يبدو من سياقه ، ومخطوطان فى المكتبة الوطنية بباريس ، أحدهما قديم مؤرخ فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٠ م) والثانى مؤرخ فى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م) ، والمخطوط الرابع فى مكتبة جامعة ليدن ، وهو مؤرخ فى سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٦ م) وهو أحدثها ، وقد لبث حيناً ينسب خطأً للسيوطى ، لأنه يحمل عنواناً آخر هو « بغية الطالب ، ومنهج المسالك فى أخبار مصر والقرى والممالك » ، ولكن عرف بعد من مطابقة نصه ، أنه هو كتاب ابن عبد الحكم عن تاريخ مصر[٢]. ويوجد فوق ذلك قسم من مخطوط آخر فى جتنجن . وفى الأول والثالث والرابع من هذه المخطوطات ، تساق نسبة الكتاب إلى ابن عبد الحكم على النحو الآتى مع اختلاف يسير فى الصيغ :

« أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام العالم الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن ابراهيم السلفى الأصفهانى قراءة عليه وأنا أسمع بثغر الإسكندرية حماه الله تعالى . قال : أخبرنا الشيخ أبو صادق مرشد بن يحيى بن القاسم بن على المدينى بقراءتى عليه ، قال أخبرنا الشيخ أبو الحسن على بن منير بن أحمد الخلال فى كتابه سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج القماح ، أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدى ،

---

(١) ابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) تراجع مقدمة المستشرق تشارلس تورى الإنجليزية لكتاب « فتوح مصر وأخبارها » (طبعة ليدن سنة ١٩٢٠) ففيها معلومات ومقارنات نفيسة عن المخطوطات الأربعة . وقد تولى هذا العلامه إصدار « فتوح مصر » كاملا ومطابقته على المخطوطات الأربعة ، وتصحيحه وتحقيقه .

تراجع أيضاً دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية كلمة ابن الحكم) .

حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا ... » .

وأول هؤلاء الرواة الخمسة ، وهو ابن قديد ، الذى تولى الرواية مباشرة عن ابن عبد الحكم توفى فى سنة ٣١٢ هـ أى بعد وفاة ابن عبد الحكم بخمسة وخمسين عاماً ، فمن الصعب أن نفرض أنه تلقى الكتاب سماعاً أو تدوينا عن مؤلفه ، لأنه ليس ثمة ما يثبت أنه كان تلميذاً لابن عبد الحكم أو أنه رآه واتصل به ، ولأنه من جهة أخرى كان فى أواخر أيام ابن عبد الحكم طفلا أو حدثاً . والظاهر أيضاً أن المحن التى توالت على بنى عبد الحكم ، والعار الذى لحقهم ، كانت لها أثر فى انفضاض الرواة والتلاميذ عنها[1] فلبث مؤلف ابن عبد الحكم فى زوايا النسيان حيناً ؛ ومضى أكثر من نصف قرن قبل أن يتناقله الرواة أو ينتفعوا به. وقد كان أبو عمر الكندى ، المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ ، على ما نعلم ، أول مؤرخ مصرى انتفع بمؤلف ابن عبد عبد الحكم ورواية أسرته انتفاعاً كبيراً[2] لأنه تناول نفس الموضوع الذى كان ابن عبد الحكم أول من تناوله فى فصل خاص وهو تاريخ القضاة الذين تولوا القضاء فى مصر منذ الفتح الإسلامى[3] ، وقد كان بنو عبد الحكم ، وهم أسرة من الفقهاء والمحدثين ، وقد ساهمت فى مزاولة القضاء ، مصدراً نفيساً للكندى . على أن الكندى يرجع كثيراً مما نقله عن ابن عبد الحكم إلى رواية أستاذه ابن قديد أولا[4] . وقد رأيت أن ابن قديد هو الذى نقل إلينا مؤلف ابن عبد الحكم كله ، ثم رأيت أنه لم يكن تلميذاً له ولم يتصل به ، فلم يبق إلا فرض ممكن واحد هو أن ابن قديد تلقى نسخة من « فتوح مصر » بعد وفاة مؤلفها بحين ، أعنى فى أواخر القرن الثالث للهجرة ، فنقلها إلى تلاميذه كما تلقاها ، دون أن يجرى فيها أى تصحيح أو تعديل[5] ،

---

(١) المستشرق تشارلس تورى فى مقدمته المذكورة .

(٢) يراجع كتاب « الولاة والقضاة » للكندى (طبع رومة) ص ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٧١ ، ١٠١ ، وفيها يروى الكندى عن عبد الرحمن بن عبد الحكم — وص ١١٥ وفيها يروى عن أخيه عبد الحكم ، وص ١٠٩ وفيها يروى عن أخيهما سعد بن عبد الحكم .

(٣) وهو الباب السادس من « فتوح مصر » ؛ وعنوانه « ذكر قضاة مصر » (ص ٢٢٦ — ٢٤٧) .

(٤) راجع الكندى « الولاة والقضاة » (ص ٣٧ ، ٤٨ ، ٧١) .

(٥) المستشرق تشارلس تورى فى المقدمة المشار إليها .

ونقلها عنه بنصها أبو بكر بن الفرج القماح ، فنقلها عنه أبو الحسن على بن منير ابن أحمد الخلال المتوفى سنة ٤٣٩ هـ ، فنقلها عنه أبو صادق مرشد بن يحيي المديني المتوفى سنة ٥١٧ هـ — نقلها كما دونها سلفه فى سنة ٤٣٥ ، وأثبت ذلك فى روايته حيث قال : « أخبرنا الشيخ أبو الحسن بن منير بن أحمد الخلال فى كتابه سنة خمس وثلاثين واربعمائة » ثم نقلها عن المديني ، الراوية الأخير أبو طاهر أحمد ابن محمد السلفى الأصفهاني المتوفى سنة ٥٧٦ هـ ، ومنه وصلت إلينا بنصها الحالى ، فهو آخر حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم ، مدون الرواية وصاحبها الأصيل .

فمن هو السلفى هذا الذى كان آخر من حمل إلينا تراث ابن عبد الحكم ؟ وما قيمة روايته من الإثبات ؟ كان السلفى فارسياً من أصبهان ، ولد بها نحو سنة ٤٧٢ هـ [١] ، ثم رحل فتى إلى بغداد ودمشق ، وأكثر من الدرس والحفظ على أكابر عصره ، ثم وفد إلى الإسكندرية فى سنة ٥١١ هـ ، واستقر بها زهاء ثلثى قرن حتى توفى . وأبدى السلفى براعة مدهشة فى الرواية والاستقصاء ، وطار صيته فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكرس مدى عمره المديد للحفظ والدرس والتحقيق ، وتلقى الرواية عن ثقات المحدثين المصريين ، ومنهم أبو صادق مرشد ابن يحيي المديني . قال الذهبي : « ما خرج من الإسكندرية سوى خرجته إلى إلى القاهرة للسماع من أبي الصادق مرشد بن يحيي المديني وطبقته » [٢] ؛ فقد كان المديني أيضاً من أعلام الرواة والثقات فى عصره . وعنه تلقى السلفى فيما تلقى تاريخ ابن عبد الحكم كما قدمنا . يقول ابن خلكان عن السلفى : « قصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » [٣] . ويقول الذهبي : « وسمع ما لا يوصف كثرة ، ونسخ بخطه الصحيح السريع ؛ وكان متفنناً متثبتاً ديناً خيراً حافظاً نافذاً ... وكان جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث ، وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث » . وقال الذهبي أيضاً عن عبد القادر الرهاوى : « كان له عند

---

(١) ابن خلكان — الوفيات ج ١ ص ٣٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ فى ترجمة السلفى (ج ٤ ص ٩٣ — ٩٩) .

(٣) الوفيات ج ١ ص ٣٧ .

ملوك مصر الجاه والقوة والكلمة النافذة » . وعن الحافظ عبد العظيم : « كان السلفى مغرى بجمع الكتب وما حصل له من المال يخرجه فى ثمنها ، كان عنده خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها » . وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ بعد أن عمر زهاء قرن(١) .

كان السلفى إذاً آية عصرة فى الحفظ والتحقيق والرواية . وفى عمره المديد ما يفسر كيف أنه استطاع أن يتلقى تاريخ ابن عبد الحكم عن المدينى الذى توفى قبله بستين عاماً . وفى براعته فى الحفظ والتحقيق والتدوين ما يرفع من قيمة روايته لتاريخ مصر ؛ ويطبعها بطابع عميق من الصحة والضبط ، وبذا نستطيع أن نطمئن إلى الاعتقاد أن رواية ابن عبد الحكم « لفتوح مصر وأخبارها » ، وصلتنا عن يد السلفى ، كما تلقاها ابن قديد مباشرة عن مدونها . وفى مخطوط ليدن ، أعنى المخطوط الرابع أن رواية السلفى وصلتنا على يد كاتب هذا المخطوط فى سنة ٥٧٠ هـ أعنى قبل وفاة السلفى بأعوام قلائل ، فقد ورد فى مستهله مايأتى :

« أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام الحافظ العالم شيخ الإسلام أبو طاهر أحمد بن محمد ابن أحمد بن إبراهيم السلفى الأصفهانى رضى الله عنه وأرضاه قراءة عليه وأنا أسمع فى منزله بالإسكندرية فى شهر رمضان المعظم سنة سبعين وخمسمائه ؛ قال أخبرنا مرشد بن يحيى بن القاسم المدينى بمصر أخبرنا ... إلخ » (٢).

ولا يختلف سياق النسبة التى شرحناها عن تلقى تاريخ ابن عبد الحكم إلا فى المخطوط الثانى ، وهو أقدم الإثنين المحفوظين فى باريس المؤرخ تدوينه فى سنة ٥٩٥ هـ ؛ ففيه تساق النسبة إلى ابن عبد الحكم عن يد ابن قد يد أولا ثم أبى عمر الكندى . والظاهر أن هذا المخطوط قد نقل عن النسخة الأصلية التى تلقاها الكندى عن ابن قديد ؛ وكان من تلاميذه كما قدمنا(٣) .

— ٣ —

والآن نستعرض عمل المؤرخ . كان ابن عبد الحكم ، كما قدمنا ؛ أول من دون سير الفتوحات الإسلامية لمصر والمغرب ، بطريق التحقيق والرواية

(١) تذكرة الحفاظ فى ترجمة السلفى .
(٢) مقدمة المستشرق تشارلس تورى .
(٣) مقدمة المستشرق تشارلس تورى .

المسندة . وقد خص مصر بأكبر قسط من جهده . ولم يكن تدوينه لفتح إفريقية والمغرب والأندلس ، إلا كذيل يقتضيه سياق الرواية ، لأن مصر كانت قاعدة لهذه الفتوحات ، ولأن حكام مصر الأوائل كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابن سعد ؛ هم الذين نظموا أول غزوات لإفريقية . وكان الواقدى قد دون فى الواقع روايته عن الفتوحات الإسلامية قبل ابن عبد الحكم بنحو ربع قرن ؛ وخص فتح مصر منها بقسط كبير لا يقل إفاضة عن رواية ابن عبد الحكم ، ولكن رواية الواقدى أقرب إلى القصة منها إلى التاريخ ، حشوها الأساطير والخوارق والمبالغات ثم الأخطاء التاريخية الجوهرية[١]. ولا غرو فقد دون الواقدى روايته عن مصر فى بغداد بعيداً عن مواطن التحقيق والتمحيص . ولهذا نرى ابن عبد الحكم يغفل رواية الواقدى ، رغم اطلاعه عليها ، ولا يشير إليها إلا فى موضعين لا أهمية لهما[٢] . فليس إذا ثمة من وجه للاتصال بين رواية الواقدى ورواية ابن عبد الحكم . غير أنا بالعكس نلمس هذا الاتصال بين ابن عبد الحكم والبلاذرى . فقد كان البلاذرى معاصراً لابن عبد الحكم[٣] وقد وضع روايته عن الفتوحات الإسلامية ، ومنها فتح مصر ، تقريباً فى نفس الوقت الذى دون فيه ابن عبد الحكم روايته أو بعده بقليل . والبلاذرى يصرح فى عدة مواطن باعتماده على الواقدى ، ولا يشير أقل إشارة إلى رواية ابن عبد الحكم . غير أنه من جهة أخرى يرجع فى فتح مصر إلى نفس المصادر التى رجع إليها ابن عبد الحكم ، ويروى عن نفس الرواة كابن لهيعة ، ويزيد بن حبيب ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن صالح[٤] . وقد يفسر هذا الاتصال بين الروايتين بأن ابن عبد الحكم سبق البلاذرى بروايته ، فاطلع البلاذرى عليها واستفاد منها دون التصريح بذلك . وسواء أصح هذا الفرض أم لم يصح ، فان ابن عبد الحكم يبقى دائماً أول من دون الرواية المحققة المسندة عن تاريخ الفتح الإسلامى لمصر ، وما ارتبط بهذا الفتح من الأخبار والسير .

---

(١) فتوح الشام للواقدى (طبع مصر) ص ٥٧ — ١٠٧ .

(٢) فتوح مصر ص ١١٣ و ٢١٩ .

(٣) توفى البلاذرى كما تقدم فى سنة ٢٧٩ هـ .

(٤) يراجع الفصل الخاص بفتوح مصر والمغرب فى فتوح البلدان (طبع ليدن) ص ٢١٢ وما بعدها .

ويعرف أثر « ابن عبد الحكم » بكتاب « فتوح مصر وأخبارها »[١] ، ويحتوى على سبعة أجزاء : الأول عن فضائل مصر ، وفيه رواية للأساطير التى قيلت فى تاريخ مصر قبل الفتح ، ودخول يوسف إليها ثم خروج بنى إسرائيل منها ، وغزو بختنصر لها ، وبناء الإسكندرية ؛ والثانى عن فتح مصر ؛ والثالث عن خطط مصر الأولى ؛ والرابع عن ولاية عمرو بن العاص . وفى هذه الأجزاء الثلاثة رواية مسهبة للفتح ، وما تعلق به من وثائق ، وسيرة عمرو بن العاص وأعماله وخططه ومكاتباته مع عمر بن الخطاب فى شئون مصر ، وتنظيمه لإدارة مصر ، وقواعد استعمار العرب لها . والخامس يتعلق بفتح إفريقية والمغرب والأندلس حتى سنة ١٢٧هـ ؛ والسادس عن قضاة مصر ، وفيه تاريخ موجز للقضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح حتى سنة ٢٤٦ هـ ؛ والسابع فى « الأحاديث ومن روى عنه أهل مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن دخلها فعُرف أهل مصر بالرواية عنهم ، ومن شركهم فى الرواية عنهم من أهل البلدان ، وما تفردوا به دون غيرهم ، ومن عرف دخوله منهم برواية غيرهم عنه » ، وفيه رواية مسهبة للأحاديث النبوية ، التى تلقاها رواة ممن اشتركوا فى الفتح ، أو حلوا بمصر ، ويعتمد ابن عبد الحكم على ابن لهيعة فى رواية معظمها ؛ وفيه أيضاً ذكر لنفر من الصحابة والتابعين الذين اشتركوا فى الفتح . ولهذا الفصل ، والفصل السادس المتعلق بذكر القضاة ، علاقة واضحة بالتقاليد التى نشأت فيها أسرة المؤرخ ، فقد امتازت كما رأينا بدراسة الفقه والحديث وتحقيق الرواية ، وكان ابن عبد الحكم فقيهاً ومحدثاً بارعاً .

وتبدو قيمة أثر ابن عبد الحكم بالأخص فى روايته لأخبار الفتح الإسلامى ، وما كانت عليه مصر يومئذ من الأحوال والظروف . ونستطيع أن نضرب صفحاً عما يورده المؤرخ قبل ذلك من أخبار مصر القبطية أو الوثنية قبل الفتح ، فما يورده من ذلك يحمل طابع الأساطير والقصص ، وكل قيمته أنه ينقل إلينا صورة من الرواية التى تلقاها العرب عند الفتح عن تاريخ مصر من رواة الشعب المغلوب . وهذه الرواية هى التى تناقلها المؤرخون المسلمون على كر العصور تاريخاً لمصر

---

(١) يحمل مخطوط باريس القديم هذا الاسم : « كتاب فتوح مصر وأخبارها وإقليمها من قديم الزمان » (مقدمة المستشرق تشارلس تورى) .

القبطية والوثنية ، وهى رواية يدحض البحث الحديث بلا ريب معظمها ، بيد أنها لا تخلو من لذة وطرافة . أما سيرة الفتح الإسلامى لمصر ، وما كانت عليه مصر وقت الفتح من أحوال العمران ، فهى أنفس ما دون ابن عبد الحكم . وتبدأ هذه السيرة بكتاب النبي العربى إلى « المقوقس »[١] ، ورد المقوقس على النبى ، ثم يتتبع المؤرخ زحف العرب تفصيلا ، حتى فتح مصر والإسكندرية ، وما تخلل ذلك كله من سفارات ومفاوضات بين العرب والقبط ، ومراسلات بين الفاتح والخليفة ، ومنها وثائق فى منتهى الأهمية ، تلقى الكثير من الضياء على سياسة العرب الدينية ، وطرقهم الأولى فى الاستعمار والإدارة ، وعلى مبلغ ما كانت مصر عليه يومئذ من وفرة السكان والعمران[٢] . ثم يناقش المؤرخ بعد ذلك نظرية فتح مصر من الوجهتين السياسية والشرعية ؛ وهل فُتحت مصر بالصلح غير الإسكندرية وبعض النواحى ؛ وهو ما يقول به بعض المحدّثين والرواة ، أم فتحت عنوة وبقوة السيف ، بلا عهد ولا عقد كما يقول بذلك البعض الآخر[٣]. ويشرح خطط مصر الأولى منذ إنشاء الفسطاط ، ونزول القبائل والبطون بها ، وقيام المساجد والمنازل الأولى ، ثم خطط الإسكندرية منذ احتلها العرب ، وما وزع من أحيائها ومنازلها وضياعها قطائع للزعماء والجند ، ويتتبع نموها وتقدمها فى عهد حكامها من العرب . ومع أن رواية ابن عبد الحكم فى هذا الشأن فقدت قبل بعيد أهميتها التاريخية ، لأن هذه الخطط الأولى لمصر والإسكندرية اختفت ؛ ونمت العاصمتان نمواً كبيراً فى عهد الدول الإسلامية الأولى ، وتغيرت معالمهما تغيراً كبيراً ، فإنها كانت مع ذلك قاعدة نفيسة لمحاولة طريفة فى التاريخ الإسلامى ، هى الإلمام بتخطيط الأمصار الإسلامية العظيمة ، وتتبعها والاحتفاظ بآثارها الأولى . وكانت رواية ابن عبد الحكم عن خطط مصر على ضآلتها ، مستقى نفيساً لجمهرة من أكابر المؤرخين المصريين المتأخرين ، الذين توسعوا فى هذا الدرس الطريف ، كابن زولاق ، والقضاعى ، ثم المقريزى أعظم كتاب

---

(١) المقوقس هو تحريف لإسم البطريق الرومانى « سيرومن » . ولم يكن أميراً للقبط ، بل كان هو الحاكم الرومانى لمصر وقت الفتح .

(٢) تراجع بعض هذه الوثائق والبيانات فى « فتوح مصر » ص ٤٦، ٤٧، ٦٥، ٧٠، ٨٢ .

(٣) فتوح مصر ص ٨٧ — ٨٩ .

الخطط . كذلك يقدم إلينا ابن عبد الحكم بحثاً هاماً عن الجزية وأحكامها ، وكيف طبقت على مصر ، وعن الخراج وجبايته ، وما تبادله الفاتح والخليفة بشأنه من الرسائل ، مما نستطيع معه أن نكون فكرة عن أحوال مصر المالية وميزانيتها فى هذا العصر .

وابن عبد الحكم فى ذلك كله راوية فقط ، فهو لا يناقش ولا ينتقد ، وإذا ناقش فإنما يناقش أصل الرواية وتحقيقها لا مادتها . ذلك لأنه لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيق ، ولأن الرواية كانت يومئذ كل ما فى التاريخ . ويجب ألا ننسى أن ابن عبد الحكم كان فقيهاً ومحدثاً قبل كل شىء ، وهو يدلل على براعته فى هذا الميدان فى مواطن كثيرة ، فينتقد مصادره فى السُّنة والرواية ويحققها ؛ على أن هذه المادة التى يقدمها إلينا عن فتوح مصر وأخبارها ، كانت وما تزال من أنفس المصادر لتاريخ مصر الإسلامية ، وقد لبثت مدى العصور مورداً لا ينضب لأكابر المؤرخين المصريين وغيرهم ، ممن كتب عن مصر وشئونها من أكابر مؤرخى الإسلام وكتابه . ويندر أن يخلو أثر لهؤلاء وهؤلاء من مجهود ابن عبد الحكم ، فابن عبد الحكم هو واضع الحجر الأول ، فى مصادر تاريخ مصر الإسلامية ، وهو صاحب الفضل الأول فى صياغة هذا الهيكل التاريخى الذى قدم إلينا فيما بعد ، على يد المتأخرين من كتاب التاريخ المصرى ، فى أثواب بديعة زاهرة . وقد بدأ الانتفاع برواية ابن عبد الحكم ، كما رأيت ، منذ أوائل القرن الرابع ، فاستفاد منها الكندى فى مجهوده ، ثم تداولها المؤرخون المصريون تباعاً بالنقل والاشتقاق منذ ابن زولاق ، والمسبحى والقضاعى[1] إلى ابن وصيف شاه وابن دقماق ؛ والمقريزى وابن حجر وابن تغرى بردى ، والسخاوى والسيوطى وابن إياس[2] وهم جميعاً من أقطاب هذه المدرسة التاريخية الزاهرة التى خلدت تاريخ مصر الإسلامية بآثارها الباهرة . ومن هؤلاء من ينقل عن ابن عبد الحكم فصولا برمتها . كذلك نقل عنه كثير من كتاب الإسلام ومؤرخيه الآخرين ؛

---

(١) توفى ابن زولاق فى سنة ٣٨٧ هـ — والمسبحى فى سنة ٤٢٠ — والقضاعى سنة ٤٥٤ هـ .

(٢) توفى ابن وصيف شاه فى أواخر القرن السابع ، وابن دقماق سنة ٨٠٩ هـ ، والمقريزى سنة ٨٤٥ ، وابن حجر سنة ٨٥٢ ؛ وابن تغرى بردى سنة ٨٧٤ ، والسخاوى سنة ٩٠٢ ، والسيوطى سنة ٩١١ ، وابن إياس سنة ٩٣٠ .

كياقوت الحموى ، فإنه ينقل عنه فى معجمه[١] كل ما تعلق بمصر ، ونيلها وأمصارها . وإذا كان مجهود ابن عبد الحكم قد لبث على كر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخى مصر الإسلامية ، فإنه سيبقى أيضاً مورداً لكل بحث حديث فى تاريخ الفتح الإسلامى لمصر وأيامها الأولى فى ظل الإسلام ؛ وستبقى رواية ابن عبد الحكم أبداً وثيقة خالدة ، تلقى الكثير من الضياء على وقائع هذه المرحلة الحاسمة ، التى أقامت بين تاريخ مصر الوثنية والنصرانية ، وبين تاريخ مصر الإسلامية ، سداً كثيفاً ما زال على البحث الحديث أن يجلو الكثير من ظلماته ، لنقرأ تاريخ مصر متصلا وضاءاً فى جميع مراحله وعصوره[٢] .

---

(١) معجم البلدان .

(٢) اتجهت أنظار البحث الحديث منذ بعيد إلى أثر ابن عبد الحكم فظهرت ترجمات لاتينية وانجليزية وفرنسية وألمانية لكثير من فصوله ، وتوج هذا الاهتمام بنشر « فتوح مصر » كاملا بعناية المستشرق تشارلس تورى الذى تولى تصحيحه ومطابقته على المخطوطات الأربعة المعروفة ؛ ومهد له بمقدمة نفيسة بالإنجليزية عن المؤرخ وأثره (طبعة ليدن سنة ١٩٢٠) وهى الطبعة الكاملة الوحيدة . هذا وقد نشرت منه طبعات أخرى غير كاملة من ذلك طبعة بعنوان « فتوح مصر والمغرب » بتحقيق المستشرق هنرى ماسيه ، وصدرت عن المعهد الفرنسى بالقاهرة (سنة ١٩١٤) . ومنها قطعة عن « فتوح مصر » نشرت فى جوتنجن سنة ١٨٥٦ . إلى قطع أخرى عن فتح مصر والأندلس .

الفصل الثاني

أبو عمر الكنـدى

(٢٨٣ – ٣٥٠ هـ) – (٨٩٧ – ٩٦١ م)

رأينا فيما تقدم أن رواية ابن عبد الحكم هي أقدم وثيقة ، وصلتنا عن الفتح الإسلامى لمصر[١] وقيام دولة الإسلام فيها ، وكيف لبثت هذه الرواية على كر العصور مستقى لجميع مؤرخي مصر الإسلامية . والآن نعرض إلى مجهود مؤرخ مصرى آخر ، فى طليعة المتقدمين أيضاً ، استأنف تدوين هذه الرواية فى نواح خاصة ، ووصل بمجهوده مجهود ابن عبد الحكم . هذا المؤرخ هو أبو عمر الكندى ؛ وهو أحد هؤلاء الرواة الذين ازدهروا فى القرن الرابع ، وسلكوا فى تدوين التاريخ طريق الرواية والإسناد . وهو محمد بن يوسف بن يعقوب ابن حفص بن يوسف بن نصير ، أبو عمر التجيبى الكندى ؛ نسبة إلى تجيب ؛ وهم من بطون قبيلة كندة الشهيرة[٢] الذين وفدوا إلى مصر وقت الفتح[٣]. ولد فى فسطاط مصر فى العاشر من ذى الحجة سنة ٢٨٣ هـ (١٧ ينايرسنة ٨٩٧ م) . وتوفى بها فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م)[٤] ولسنا نعرف تفاصيل نشأته وحياته ؛ بيد أنه كان من أقطاب العلماء والمحدثين

---

(١) هذا مع استثناء رواية الواقدى ، وهى أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ .

(٢) وهى نفس القبيلة التى ينتسب إليها يعقوب بن إسحق الكندى الفيلسوف الشهير ، وقد ذهب بعض المستشرقين (ده سلان وايستروب مثلا) إلى أنه هو جد المؤرخ ، ولكن الحقيقة أنه ينتسب إلى كندة من فرع آخر (راجع مقدمة المستشرق كينج للقسم الأول من تسمية ولاة مصر ص ٦) .

(٣) ابن عبد الحكم – فتوح مصر – ص ١٢٥ ، حيث يشير إلى خطة تجيب ونزولها فى الفسطاط .

(٤) تراجع ترجمة المقريزى فى « المقفى » وقد نقلها المستشرق « كينج » فى مقدمته المشار إليها (ص ١ و ٢) وفيها يذكر المقريزى أن الكندى « ولد يوم النحر سنة ثلاث وثمانين ومائتين » و « توفى يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمسين وثلاثمائة بمصر » – راجع أيضاً ترجمة أخرى للكندى وردت فى المقدمة – وكذلك دائرة المعارف الإسلامية (الكندى) .

فى عصره . وصفه المقريزى « بالمؤرخ الفقيه » وأنه « كان عارفاً بأحوال الناس وسير الملوك » . ونقل عن الفرغانى أنه أى الكندى «كان من أعلم الناس بالبلد (أى مصر) وأهله وأعماله وثغوره . وله مصنفات فيه وفى غيره من صنوف الأخبار والأنساب . وكان من جملة أهل العلم بالحديث والنسب ... عالماً بعلوم العرب »[١] . وكان قد درس الحديث والسنة ، وتتبع الرواية ، وإسنادها وتحقيقها ، عماداً لتدوين التاريخ يومئذ ، وبواسطتها دون ابن عبد الحكم ، كما بينا روايته عن « فتوح مصر وأخبارها » ، وكذلك اتبعها الكندى ، فى تدوين معظم روايته . وقد نشأ الكندى فى مثل هذه البيئة والتقاليد العلمية ، التى نشأ فيها سلفه ابن عبد الحكم ، فدرس الحديث والسنة على أكابر عصره ، ومنهم أبو عبد الرحمن النسائى[٢] المحدث الأشهر ، وابن قديد الأزدى[٣] ، وخص بدرسه وتحقيقه نواح من أحوال مصر وأخبارها ، فجاء مجهوده متمماً لمجهود ابن عبد الحكم ؛ يلقى مثله ضياء نفيساً على تاريخ العصور الأولى من حكم الإسلام لمصر ، وعلى كثير من نظم الحكومة الإسلامية ، وأحوال المجتمع المصرى .

والواقع أن التراث الذى خلفه لنا الكندى يصل فى تاريخ مصر حلقة منفردة ، لولاها لبقيت ثغرة فى تاريخ مصر يصعب سدها . ذلك أن ابن عبد الحكم يقف فى روايته كما رأينا عند سرد حوادث الفتح الإسلامى ، وماتعلق به من نظم الحكم الأولى ، وقيام الفسطاط وخططها الأولى ، وذكر من اشترك فى الفتح ودخل مصر من الصحابة والتابعين ؛ ولا يشذ فى الوقوف عند أخبار عصر الفتح والتنظيم ، إلا فى ذكر القضاة الذين ولوا قضاء مصر ، فإنه يمضى فى ذكرهم حتى

---

(١) راجع ترجمة المقريزى للكندى المشار إليها (مقدمة تسمية ولاة مصر ص ٢) .

(٢) هو الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب النسائى (٢١٥ — ٣٠٣ هـ) وكان من أئمة عصره فى الحديث . نشأ بخراسان ووفد على مصر وقضى بها معظم حياته ، وعنه أخذت جمهرة من الحفاظ المصريين ، وكان ثقة حجة فى الرواية والتحقيق (ابن خلكان ج ١ ص ٢٥) ويضع السيوطى مولده فى سنة ٢٢٥ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٣) .

(٣) هو أبو القاسم على بن الحسن بن قديد المصرى توفى سنة ٣١٢ هـ ، كان من أكابر المحدثين والرواة . والظاهر أنه ألف تاريخاً لمصر (راجع تسمية الولاة — هامش ص ٣ من المخطوط) ويضعه السيوطى فى مرتبة المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفاظ ، ويقول إنه توفى عن بضع وثمانين سنة ، وعلى هذا التقدير يكون مولده حوالى سنة ٢٣٠ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٣) .

سنة ٢٤٦ هـ أى إلى ما قبل وفاته بعشرة أعوام . ولكن الكندى يصل تاريخ مصر ؛ وأخبار الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح حتى عصره إلى سنة ٣٣٥ هـ وإن كان يقف فى أخبار القضاة حيثما وقف ابن عبد الحكم ، ويتناول أحوال مصر وما توالى على خططها وآثارها من التغيير حتى عصره أيضاً أعنى إلى نحو منتصف القرن الرابع ؛ وهو العصر الذى بُدئ يكتب فيه تاريخ مصر ، بنوع من التخصص والإفاضة ؛ وفيه ظهر ابن زولاق ثم المسبحى ؛ فكان مجهودهما التاريخى فاتحة هذا التراث الغنى الشاسع ، الذى انتهى إلينا عن تاريخ مصر الإسلامية .

وقد خلف الكندى آثاراً عدة ، ولكن لم يصل إلينا سوى بعضها كاملا ؛ ووصل إلينا من البعض الآخر نبذو شذور فقط ، على يد جماعة من الكتاب المتأخرين الذين اعتمدوا على الكندى فى النقل والرواية ؛ ولم تصل إلينا أصول كاملة لهذه الآثار التى لم نعرف عن بعضها سوى الاسم . على أننا قد ظفرنا فيما يظهر بأهم تراث الكندى ، وهو تاريخ ولاة مصر أو أمرائها منذ الفتح الإسلامى إلى عصره ؛ وتاريخ قضاة مصر منذ الفتح أيضاً إلى منتصف القرن الثالث . وقد وصل الاثنان إلينا فى مخطوط واحد حصل عليه المتحف البريطانى ، ولم يصلنا سواه كاملا من آثار الكندى . بيد أن كلا الموضوعين مستقل عن الآخر ، وكلاهما يكون بذاته كتاباً خاصاً .

— ١ —

أما الكتاب الأول فيعرف بكتاب « تسمية ولاة مصر » وهو العنوان الذى أثبته المخطوط الذى وصل إلينا[١] . ولكنه يعرف أحياناً بكتاب « أمراء مصر » أو كتاب الأمراء أو كتاب الولاة[٢] . وهو نوع من التاريخ الإدارى ، يتناول تاريخ مصر من ناحية معينة ، هى ذكر الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من قبل الخلافة ، منذ الفتح إلى عصر المؤلف ، وذكر طرف من أعمالهم وحروبهم . ويلخص الكندى نفسه موضوع كتابه فى تلك العبارة التى يستهله بها :

---

(١) تسمية ولاة مصر . طبعة لجنة ذكرى جب التى عنى بإصدارها المستشرق رفون جست — ص ٦ — وكذلك طبعة كينج ص ٢ .

(٢) راجع المقريزى مثلا ج ٣ ص ٢٢٣ و ج ٤ ص ٨ (المطبعة الأهلية) .

« قال أبو عمر ، هذا كتاب تسمية ولاة مصر ، ومن ولى الصلاة ومن ولى الحرب والشرطة منذ فتحت إلى زماننا هذا ؛ ومن جمع له الصلاة والخراج ، على اسم الله وعونه ، وصلى الله على محمد وآله » .

ويتناول الكندى تعداد الولاة دون تمهيد ولا مقدمة ، فيبدأ بولاية عمرو ابن العاص مقرونة بنبذة يسيرة عن فتح مصر ، ومن خلفه من ولاة مصر الأوائل ، مع تلخيص ما تم فى عهدهم من الفتوحات فى إفريقية ، ثم يمضى فى ذكر الولاة متعاقبين ، فيذكر تاريخ مقدمهم إلى مصر ، ومن ولى الشرطة فى عهد كل منهم ، وما وقع فى أيامهم من الحروب والقلاقل ، ويشير أحياناً إلى ما وقع فى معاهد الفسطاط وخططها ولا سيما مسجدها الجامع (جامع عمرو) من التغيير والتبديل . ويتبع الإيجاز فى إيراد هذه الحوادث حتى نهاية الدولة الأموية . فإذا كانت الدولة العباسية ، تبسط فى الكلام نوعاً ، وزاد شيئاً فى تفصيل الحوادث . ويبدو ميل الكندى إلى التفصيل واضحاً فى بعض المواقف ، فنراه مثلا فى أيام السَّرى بن الحكم وبنيه (٢٠٠ — ٢١١ هـ) يعنى بتفصيل ما وقع من حوادث وحروب ويورد خلالها قطعاً شعرية عديدة ، وكذلك فى عهد بنى طولون فإنه يسهب فى ذكر أيامهم وحوادثهم ، وما قيل فى تمجيدهم ورثائهم من مختار الشعر[1] . كذلك يبدأ الكندى أخبار الولاة بطريق الرواية والإسناد المحض ، فلا يكاد يورد نبذة إلا مسندة إلى عدة من المحدثين المتعاقبين ، ولكنه يتحرر من قيود هذه الطريقة شيئاً فشيئاً ، فإذا كان بدء القرن الثانى من الهجرة ، قل الإسناد ، وإذا كان بدء الدولة العباسية استرسل الكندى فى ذكر الحوادث على ترتيبها ، فى ثوب المؤرخ أو الراوية ، فلا يكاد يلجأ إلى الإسناد ، وإنما يروى الحوادث من عنده بطريق مباشر .

وتقف رواية الكندى فى تاريخ الولاة عند وفاة محمد بن طغج الإخشيدى (فى ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ) ، أى عند مفتتح الدولة الإخشيدية . ويختتم « تسمية ولاة مصر » بهذه العبارة التى أثبتت فى المخطوط الوحيد الذى وصل إلينا :

« إلى هنا انتهى ما كتبه أبو عمر . واخترمته المنية قبل إكماله . قال ذلك

---

(١) تسمية الولاة — ص ٢١٢ — ٢٥٨ .

ابن زولاق فى أول كتابه أخبار قضاة مصر . وما بعد ذلك ليس من كلام أبى عمر »[١] .

ويلى ذلك ذيل للكتاب لا يتجاوز أربع صفحات ؛ يصل أخبار الدولة الإخشيدية بإيجاز حتى فتح الفاطميين لمصر والدعوة بخلافة المعز لدين الله الفاطمى . فمن صاحب هذه الإضافة ؟ قد يكون هو ابن زولاق (٣٠٦ — ٣٨٧ هـ) ، وهو معاصر للكندى ، ولكنه عاش بعده جيلا وأدرك الدولة الفاطمية . وقد يؤيد ذلك ما هو ثابت من أن ابن زولاق ألف كتاباً فى تتمة « ولاة مصر » وصل به كتاب الكندى . ودليل ذلك ما يذكره ابن زولاق نفسه فى مقدمة كتابه « سيرة الإخشيد » الذى نقله إلينا ابن سعيد الأندلسى ، إذ يقول : « وقد كان أبو عمر محمد بن يوسف الكندى عمل أخبار أمراء مصر ، وختمه بوفاة الإخشيد ، وذكر له أخباراً يسيرة ، وقد أتممت أنا هذا الكتاب بسيرة أنوجور وأخيه على وكافور وأحمد بن على بن الإخشيد والقائد جوهر إلى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافته »[٢] ، ويشير المقريزى إلى هذا المؤلف ، ويقتبس منه فى أكثر من موضع ، ويسميه « تتمة أمراء مصر » أو « كتاب إتمام كتاب الكندى فى أخبار أمراء مصر »[٣] ؛ ولكن يبدو من مقارنة ما اقتبسه المقريزى بما ذيل به كتاب الولاة ، أن الذيل لا يحتوى نبذاً بنصها من كتاب ابن زولاق ، فإن صح أن ابن زولاق هو صاحب هذه الإضافة ، فلعلها خلاصة استخرجت من كتابه المذكور .

— ٢ —

وأما كتاب « تسمية قضاة مصر » أو « القضاة الذين ولوا مصر » أو « أخبار قضاة مصر »[٤] ؛ فيتناول تاريخ القضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح إلى منتصف القرن الثالث (سنة ٢٤٦ هـ) . وقد كان القاضى أحد ثلاثة أو أربعة

---

(١) تسمية الولاة ص ٢٩٣ — تقابل ١٣١ من المخطوط .

(٢) راجع كتاب المغرب فى حلى المغرب (ج ٤) طبع ليدن — ص ٥ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٢٣ (الطبعة الأهلية) .

(٤) وردت التسميتان الأولى والثانية فى مستهل الكتاب ص ٣٠٠ (المقابلة لصفحة ١٣٤ ب من المخطوط) . ووردت التسمية الثالثة فى صدر المخطوط ص ٢٩٩ (المقابلة ١٣٤ من الأصل) .

توكل الخلافة إليهم السلطات العامة فى الأقاليم المفتوحة : هم الأمير أو الوالى وهو الحاكم الإدارى والعسكرى ، ومتولى الخراج وهو متولى الشئون المالية ، وهى مهمة يتولاها الولاة أحياناً ، وصاحب الشرطة ، وهو المشرف على النظام والأمن ، والقاضى وهو المشرف على تنفيذ الشريعة والحكم بين الناس ، مقره فى عاصمة البلاد ، وله نواب فى النواحى . فتاريخ القضاة الذين تولوا القضاء بمصر ، هو ناحية طريفة فى تاريخ مصر الإسلامية ، له أهميته ونفاسته فى فهم نظم القضاء الإسلامى فى عصور الإسلام الأولى . ولكن الكندى ليس بصاحب الفضل الأول فى معالجة هذه الناحية من تاريخ مصر الإسلامية ، وإنما صاحب الفضل الأول فى تناول هذا الموضوع هو عبد الرحمن بن عبد الحكم ، تناوله كما قدمنا ، فى « فتوح مصر وأخبارها » فى فصل خاص[١] ، عنى فيه بذكر القضاة الذين تعاقبوا على قضاء مصر منذ الفتح ، حتى ولاية القاضى بكّار بن قتيبة سنة ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) ، واتبع فى ذكرهم الترتيب التاريخى ، ولكنه لم يذكر تواريخ التعيين إلا منذ القرن الثانى ، وبالأخص منذ العصر الذى أدركته أسرته ثم العصر الذى عاش فيه[٢] ، ويمهد لفصله بما ورد من أحاديث وأقوال مأثورة فى خطورة القضاء والفرار من تبعاته . وقد رأينا أن بنى عبد الحكم كانوا أسرة نابهة من الفقهاء والمحدثين وقد ساهموا فى مزاولة القضاء ، ومن ثم كان ابن عبد الحكم أستاذ موضوعه ، وهو موضوع يتصل أشد الاتصال بتقاليد أسرته وبالبيئة التى نشأ فيها ، ومن ثم كانت أهمية روايته على إيجازها .

ويحذو الكندى حذو ابن عبد الحكم ، فيبدأ فى ذكر القضاة حيث بدأ ابن عبد الحكم ، وينتهى حيث انتهى ، أعنى من ولاية قيس بن أبى العاص أول قاض للإسلام بمصر فى سنة ٢٣ هـ إلى ولاية القاضى بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦ هـ . ولا فرق بين الروايتين إلا أن رواية الكندى أوسع وأكثر تفصيلا ، فهى فى الحجم خمسة أضعاف رواية ابن عبد الحكم تقريباً . ويظهر جلياً بالمقارنة أن الكندى قد اتخذ رواية ابن عبد الحكم أساساً لكتابه ؛ وأضاف إليها ما استطاع أن يجمع من شوارد التفاصيل والأخبار . ومن السهل أن نعين حلقه الاتصال

---

(١) راجع هذا الفصل فى « فتوح مصر » ص ٢٢٦ — ٢٤٧ .

(٢) فتوح مصر — ص ٢٣٩ و ما بعدها .

بين المؤرخين . فقد رأينا أن الكندى تلميذ لابن قديد الأزدى ، تلقى عليه الحديث والرواية . وابن قديد هذا هو الذى نقل إلينا مؤلف ابن عبد الحكم مباشرة على نحو ما فصلنا فى الفصل السابق ، بل هنالك ما يدل على أن ابن قديد عنى عناية خاصة بدرس القسم المتعلق بالقضاة من « فتوح مصر »، وهو إضافة نسبت لابن قديد فى خاتمة هذا القسم ، يذكر فيها اسم القاضيين اللذين خلفا بكار بن قتيبة[١] . واذاً فقد تلقى الكندى تراث ابن عبد الحكم على يد أستاذه ابن قديد وانتفع به انتفاعاً كبيراً ، وإن كان يؤثر على ما يظهر أن يتجنب الإسناد ما استطاع إلى ابن عبد الحكم إلا ما كان من إسناد أستاذه ابن قديد إليه[٢] ، ولكنه يستند من طريق آخر إلى معظم الرواة والمحدثين ، الذين ينتهى إليهم ابن عبد الحكم ، كيزيد بن أبى حبيب ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد ، وعثمان بن صالح ، وسعد بن عفير ؛ ويحيى بن بكير[٣] . ولاريب أن هذه الرواية بحلقاتها المتعددة ، لم يكن يعتمد فى نقلها حتى عصر الكندى على السماع وحده ، ومن المحقق أنها كانت تدون قبل ذلك بمدة طويلة ، فقد رأينا أن ابن عبد الحكم ، وهو يسبق الكندى بنحو قرن ، يعتمد على الرواية المكتوبة فى بعض المواطن[٤]. وكذلك الكندى ، فقد اعتمد على مؤلف ابن عبد الحكم فى وضع تاريخ القضاة ، واعتمد على مصادر مكتوبة أخرى ، من ذلك قوله فى رواية تلقاها عن ابن قديد : « أخبرنى ابن قديد عن كتاب يحيى بن عثمان » (الكندى ص ٤٤٣) وكذلك اعتمد على وثائق ومحفوظات رسمية فيما يظهر ، مثال ذلك ما ذكره فى رواية تلقاها من ابن بكير ، وقال إن ابن بكير رآها فى سجل الديوان[٥] مما يدل على أنه كانت للديوان محفوظات يرجع إليها ؛ وأن الكندى استطاع أن ينتفع

---

(١) فتوح مصر ص ٢٤٧ : « قال أبو القاسم بن قديد ، وأقامت مصر بعد بكار بلا قاض ... الخ » .

(٢) راجع كتاب القضاة — طبعة لجنة ذكرى جب — ص ٣٤٣ و ٣٥٦ و ٣٨٤ (طبعة الأستاذ جوتهيل ص ٣٧ و ٤٨ و ٧١) — وكذلك مقدمة الأستاذ جست الإنجليزية ص ٣٤ .

(٣) توفى يزيد بن أبى حبيب سنة ١٢٨ هـ وابن لهيعة سنة ١٧٤ . والليث بن سعد سنة ١٧٥ وعثمان بن صالح سنة ٢١٩ ، وسعد بن عفير سنة ٢٢٦ ، ويحيى بن بكير سنة ٢٣١ .

(٤) فتوح مصر ص ١٦ و ٣١٩ .

(٥) الكندى ص ٣٥٤ (ص ٤٦ طبعة جوتهيل) .

بها سواء مباشرة أو عن طريق شيوخه ؛ ويؤيد ذلك أيضاً أن الكندى فى تاريخ الولاة يسوق الرواية منذ القرن الثانى مرسلة دون إسناد تقريباً ، مما يدل على أنه اعتمد على مصادر مكتوبة دونت قبل عصره .

ولمؤلف الكندى عن القضاة أهمية خاصة ، لا بما يورد من ذكر القضاة الذين تعاقبوا على قضاء مصر فى عصور الإسلام الأولى ، فقد سبق ابن عبد الحكم الكندى فى تدوين هذه الرواية ، ولكن بما يحتويه من تفاصيل وصور ووثائق غريبة ، سواء عن أحوال القضاة أوعن نظم القضاء ، وطريف القضايا والأحكام . مثال ذلك ما ذكر فى وصف الحارث بن مسكين الذى ولى قضاء مصر سنة ٢٣٧ هـ ، أورده الكندى عن ابن قديد « وكان الحارث هذا مقعداً من رجليه ، فكان يحمل فى محفة فى المسجد الجامع ، وكان يركب حماراً مبرقعاً ، وطُلب إليه فى لباس السواد ، فامتنع فخوفه أصحابه سطوة السلطان به وقالوا : يقال إنك من موالى بنى أمية ؛ فأجابهم إلى لباس كساء أسود من صوف ... » وما ذكره عن أحكامه : « ومنع النداء على الجنائز وضرب فيه ... ونفى » وضرب الحد فى سب عائشة رضى الله عنها ؛ وتهدد بالرجم ؛ وقتل نصرانيا سب النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن جلده الحد ؛ وأمر بضرب عنق رجلين نصرانيين بعد أن شهد عنده أنهما ساحران»[1] وما ذكره عن استقالة الحارث حينما بلغه أن القضاء الأعلى فى بغداد نقض حكماً أصدره ، ورد الخليفة على هذه الاستقالة[2] وما ذكره عن مرتب أحد القضاة مما يقدم لنا فكرة عن مرتبات كبار الموظفين فى هذا العصر[3] وغير ذلك من الحقائق والتفاصيل التى تلقى كبير ضياء على تاريخ القضاء ونظمه وإجراءاته فى عصور الإسلام الأولى .

وقد نقل إلينا مؤلف الكندى عن القضاة تلميذه ابن النحاس[4] وهو الذى

---

(١) كتاب القضاة ص ٤٦٩ و ٤٧٠ (١٤٢ و ١٤٣ طبعة جوتهيل) .

(٢) كتاب القضاة ص ٤٧٥ (١٤٧ طبعة جوتهيل) .

(٣) كتاب القضاة — ص ٣٦٥ (١٥ طبعة جوتهيل) —وقد أورد ابن عبد الحكم هذه الوثيقة المتعلقة بمرتبات القاضى ؛ ونقلها الكندى عنه (فتوح مصر ص ٢٣٥) .

(٤) هو أبو محمد عبد الرحمن بن عمر المعروف بابن النحاس من مشاهير محدثى مصر ورواتها فى القرن الرابع . ولد سنة ٣١٩ هـ وتوفى سنة ٤١٦ وقد أربى على التسعين . ويضعه السيوطى فى فريق المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفاظ (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٥) .

يروى عنه فى الكتب أو الأجزاء السبعة ، التى يتألف منها تاريخ القضاء على النحو الآتى فى فاتحة الكتاب :

« أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزار المعروف بابن النحاس قراءة عليه . قال : قال لنا أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى : هذا كتاب تسمية قضاة مصر على اسم الله وعونه ، وصلى الله على محمد النبى وآله وسلم » .

وفى الأجزاء المختلفة على النحو الآتى :

« أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن ، المعرف بابن النحاس قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو عمر ... الكندى ، قال ، ثم ولى القضاء ... إلخ » .

وتنتهى رواية الكندى التى نقلها إلينا ابن النحاس عند ولاية القاضى بكّار ابن قتيبة قضاء مصر فى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) ؛ وتختم بالعبارة الآتية : « آخر ما عمله أبو عمر من أخبار قضاة مصر »[١] وسواء أكانت هذه العبارة من صلب مؤلف الكندى ذاته ؛ أم كانت إضافة من الناسخ له ، فإن المحقق أن الكندى قد وقف فى روايته عند هذا التاريخ ، وهى حقيقة يؤيدها ابن خلكان صراحة إذ يقول فى ترجمة ابن زولاق ما نصه : « وله ... كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذيلا على كتاب أبى عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى الذى ألفه فى أخبار قضاة مصر وانتهى فيه إلى سنة ست وأربعين ومائتين ؛ فكمله ابن زولاق المذكور ؛ وابتدأ بذكر القاضى بكار بن قتيبة »[٢] ولكن المخطوط الذى انتهى إلينا عن كتاب الكندى يحمل لتاريخ القضاة ذيلين ، أولهما منسوب لأبى الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد[٣] ويصل تاريخ القضاة إلى ولاية أبى الحسن على بن النعمان فى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) والثانى لكاتب مجهول ، ويلخص ذكر القضاة من سنة ٣٤٧ إلى سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٣ م)[٤] ويلى ذلك عبارة

---

(١) الكندى ص ٤٧٦ (١٤٩ طبعة جوتهيل) .

(٢) الوفيات ج ١ ص ١٦٧ .

(٣) لم نعثر على ترجمة لابن برد هذا ، ولكن يستدل مما ورد فى صدر التكملة المنسوبة إليه أنه عاش فى أواسط القرن الرابع لأنه يروى عن محمد بن الربيع بن سليمان الجيزى ؛ وهذا توفى سنة ٣٢٤ ؛ ولأنه يصل تاريخ القضاة إلى سنة ٣٦٦ هـ .

(٤) يشغل الذيل الأول من المخطوط ثمانى صفحات (الكندى ٤٧٧ — ٤٩٤ و ١٤٩ — =

ختامية تفيد أن الكتاب بشطريه أى الولاة والقضاة ، قد نسخ بدمشق فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) .

— ٣ —

وتاريخ الولاة والقضاة هو كل ما وصلنا كاملا من آثار الكندى . ولكن الكندى خلف آثاراً أخرى ، منها ما أشار إليه بعض المتأخرين ولم يصلنا شيء من نصه ، ومنها ما تلقينا بعضه بطريق الاقتباس منه فى كتب المتأخرين .

فأما القسم الأول فيشمل كتاب « الخطط » وكتاب « أخبار السرى بن الحكم » ، وكتاب « مروان الجعدى » . وأهمها فيما يظهر كتاب الخطط أعنى خطط مصر الأولى ، من عهد إنشاء الفسطاط وأحيائها ومعاهدها وآثارها ، وهو مؤلف ينوه به المقريزى فى مقدمة خططه ، ويذكره ضمن مصادره فيقول : « أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه أبو عمر محمد بن يوسف الكندى »[1] ثم يعود فيذكره فى ترجمة الكندى فى « المقفى » . وكذلك تشير إليه ترجمة الكندى التى وردت فى كتاب الولاة والقضاة[2] ؛ ولكن السيوطى لا يذكره[3] . وهذا كل ما نعرف عن خطط الكندى . ولكن الظاهر أنه كان مصدراً لمؤرخى الخطط منذ القضاعى[4] ، ثم كان مصدراً بعد ذلك لابن دقماق[5] والمقريزى ، فيما كتباه عن خطط الفسطاط وأحوالها وأخبارها ، وإن لم يذكر أحدهما صراحة أنه نقل منه . وكذلك ينقل القلقشندى فقرات عن الخطط والآثار لم يذكر مصدرها[6] غير أنه يظهر من جهة أخرى أن خطط الكندى كانت كمعظم آثاره كتاباً متواضع الحجم ، ولعله لم يكن ، شأن

= ١٦٢ طبعة جوتهيل) ويشغل الذيل الثانى ثلاث صفحات من المخطوط (٤٩٤ — ٥٠٠ و ١٦٣ — ١٦٧ طبعة جوتهيل) .

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٦ .

(٢) الكندى — طبعة كينيج ص ١٩ وطبعة لجنة ذكرى جب ص ٤ .

(٣) حسن المحاضرة ص ٢٦٥ .

(٤) راجع خطط المقريزى ج ١ ص ٤٨ حيث ينسب الكلام إلى القضاعى عن الكندى من كتاب لم يذكر عنوانه — وقد توفى القضاعى سنة ٤٥٧ هـ أى بعد وفاة الكندى بأكثر من قرن .

(٥) فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

(٦) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ .

كتابه عن القضاة ، أكثر من بسط لما كتبه ابن عبد الحكم فى هذا الموضوع ؛ مع شىء من التفصيل والإضافة[١] .

أما كتاب « أخبار السّرى بن الحكم » ؛ وكتاب « مروان الجعدى » ، فلسنا نعرف منهما غير الاسم . وقد رأينا الكندى ، فى كتاب الولاة يفيض نوعاً فى أخبار السرى بن الحكم وحروبه[٢] فلعله رأى كذلك أن يفرد لها رسالة خاصة ، لأنها كانت فترة حوادث وقلاقل مدهشة . والظاهر أن المقريزى انتفع بهذه الرسالة فى الفصل الذى كتبه عن حوادث الإسكندرية[٣] . كذلك يظهر أن الكندى وضع رسالة فى أخبار مروان الجعدى آخر خلفاء بنى أمية لمناسبة فراره إلى مصر ومصرعه فيها ، ولم يرد ذكر هذه الرسالة فى ترجمة المقريزى للكندى ، ولكنه ورد فى ترجمته فى كتاب الولاة . بيد أن المستشرق جِست يرى أن الكندى لم يضع مثل هذه الرسالة ، لأنه لاعلاقة لمروان الجعدى بتاريخ مصر ، وأن ذكرها تكرار خاطئ لكتاب السرى بن الحكم[٤] .

ويشمل القسم الثانى الذى انتهى إلينا بعضه بالاقتباس أربعة كتب : كتاب الخندق والتّراويح ، كتاب الجند العربى ، كتاب مسجد أهل الراية ، كتاب الموالى . فأما الأول فموضوعه أخبار الحوادث التى وقعت فى مصر سنة ٦٤ هـ حين تغلب أشياع عبد الله بن الزبير على مصر ، والحرب التى قامت بين ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر ، وجيوش بنى أمية التى جاءت لاستردادها ، وسميت أيام الخندق والتّراويح لأن ابن جحدم حفر لحماية الفسطاط خندقاً عظيماً ، « وكان أهل مصر يقاتلون نوباً ؛ يخرج هؤلاء ثم يرجعون ، ثم يخرج غيرهم »[٥] . وأما الثانى فموضوعه غامض ، والظاهر أنه يتعلق بأخبار الجيوش والصفوف من مختلف القبائل . وموضوع الثالث هو أخبار جامع عمرو الذى سمى عند إنشائه مسجد أهل الراية ، لأنه أنشىء فى وسط خطط أهل الراية

---

(١) فتوح مصر صفحة ٩١ وما بعدها .

(٢) راجع الكندى « ولاة مصر » ص ١٦١ وما بعدها .

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٧٨ .

(٤) الكندى — مقدمة جست الإنكليزية ص ١٠ .

(٥) راجع الكندى حيث يفصل هذه الحوادث فى كتاب الولاة (ص ٤٣ وما بعدها) .

وهم بطون من القبائل التى اشتركت فى الفتح ، ولم يكف عدد جندها لتكوين فرقة خاصة منها ، فاجتمعت معاً وسميت أهل الراية ، واختطت حول المسجد الجامع[١]. والكتاب الرابع ، وهو كتاب الموالى ، يتعلق بأخبار القادة والزعماء البارزين من المسلمين غير العرب . وظاهر من موضوعات هذه الكتب أنها لم تكن واسعة المدى ، إذا استثنينا كتاب الموالى ؛ وأنها لم تكن تخرج عن الرسائل الموجزة . وقد كانت جميعاً مصدراً للنقل والاقتباس من جانب المؤرخين المتأخرين ، وبالأخص المقريزى ، فإنه يقتبس منها جميعاً فى خططه فى مواضع عديدة ، ويسميها بأسمائها[٢] .

بقى أن نشير إلى كتاب ينسب أحياناً إلى الكندى ، وهو كتاب فضائل مصر . ذكره السيوطى ونسبه إلى الكندى فى ترجمته[٣] وذكره المقريزى واقتبس منه ، ولكنه ينسبه إلى ولد الكندى عمر بن أبى عمر[٤] . وقد وصل إلينا كتاب « فضائل مصر » هذا ، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية[٥] . ويبدو من تلاوة مقدمتها لأول وهلة ، أن الكتاب هو لابن الكندى ، فقد استهلت بما يأتى : « أخبرنا عمر بن أحمد بن يوسف الكندى – قال هذا الكتاب أمر بجمعه وحض على تأليفه الأستاذ أبو المسك كافور أطال الله بقاه يذكر فيه أخبار مصر وما خصها الله تعالى من الفضل والبركات والخيرات على أكثر البلدان ... » . ثم يذكر المؤلف أنه استقاه عن شيوخ المصريين وغيرهم من أهل العلم والخبرة ، ويذكر ضمن هؤلاء على بن حسن بن خلف بن قديد ، وأبو عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب الكندى ، وأنه اختصر رواياتهم وأسقط منها الأسانيد لتسهل تلاوة

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) مثال ذلك ما نقله فى فتح الإسكندرية (ج ١ ص ٢٦٣) ، وما نقله من كتاب الموالى (ج ١ ص ٢٧٦ وج ٢ ص ٢٧٧) ومن الخندق والتراويح (ج ٣ ص ٢٣٣) ومن كتاب مسجد أهل الراية (ج ٤ ص ٤ ، ٥ ، ٧) وكثير غيرها .

(٣) حسن المحاضرة (ج ١ ص ٢٦٥) .

(٤) الخطط ج ١ ص ٢٥٥ .

(٥) محفوظة برقم ٤٢٢ و ٧٥٣ تاريخ وقد نسب الكتاب خطأً فى فهرس دار الكتب لأبى عمر الكندى ونشر المستشرق الدانماركى ايستروب هذا المخطوط وعلق عليه ، وصفحاته لا تتجاوز الثلاثين .

الكتاب. وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الكندى الكبير، ألف أيضاً كتاباً فى تاريخ مصر، وأن ابنه عمر اختصر منه. وهو رأى يقول به المستشرق ايستروب[١] ولكنه ليس بقاطع فى الموضوع[٢]. والمحقق فقط هو أن كتاب «فضائل مصر» الذى انتهى إلينا هو من وضع الابن لا الأب.

* * *

هذا هو مجهود الكندى التاريخى، وهو مجهود له قيمته وأهميته فى مصادر تاريخ مصر الإسلامية. ونستطيع أن نقدر تراث الكندى متى ذكرنا أنه يصل مجهود ابن عبد الحكم ويتمه، ويعنى بنواح هامة من تاريخ الحكم الإسلامى لمصر، ونظمه ووسائله، فى عصور تعز مصادرها ووثائقها. وقد بينا كيف يمضى «كتاب الولاة» بتاريخ مصر الإدارى إلى أوائل القرن الرابع الهجرى، وكيف يقدم «كتاب القضاة»، عن نظم القضاء الإسلامى وسيره، إلى منتصف القرن الثالث، صوراً وتفاصيل هامة لم تلم بها رواية ابن عبد الحكم، وكيف أن تراث الكندى، يكون فى مجموعه حلقة فريدة فى تاريخ مصر الإسلامية، تكاد تنفرد بإلقاء الضياء على تاريخ مصر خلال القرن الثالث، ولاسيما فى العصر الذى أدركه الكندى حتى قيام الدولة الإخشيدية. ومع أن الكندى يلتزم حد الرواية المجردة، فإن هذه الرواية تحتوى كثيراً من التفاصيل التى تمثل روح العصور التى أرختها، وخواص المجتمع الذى تناولته، وكثيراً من الوثائق التاريخية الهامة، ولا سيما عن نظم القضاء وأحواله وأحكامه. وقد كانت السُّنة التاريخية التى اعتمد عليها ابن عبد الحكم، هى أيضاً أهم مصادر الكندى؛ ولكن الكندى انتفع أيضاً بالمصادر المكتوبة والتواريخ المدونة وربما الوثائق الرسمية. وقد لبث تراثه إلى جانب تراث ابن عبد الحكم على كر العصور، مستقى خصباً لمؤرخى مصر الإسلامية، وكان مؤلفه عن القضاء بالأخص نواة لمجهود خاص فى هذا الميدان، اضطلع به جماعة من أعلام المؤرخين المصريين مثل ابن زولاق، وابن حجر، والسخاوى، وهو مجهود يلقى إلى جانب مجهود الكندى، كثيراً من الضياء على تاريخ القضاء الإسلامى فى العصور الوسطى.

---

(١) راجع مقدمة إيستروب فى الطبعة التى أصدرها للكتاب.

(٢) لا يرى المستشرق جست الأخذ بهذا الرأى، لعدم كفاية الدليل عليه (الكندى — فى المقدمة الانكليزية — ص ١٤).

الفصل الثالث

الحسن بن زولاق

(٣٠٦–٣٨٧ هـ) – (٩١٩–٩٩٧ م)

فى أوائل القرن الرابع الهجرى شهدت مصر فترات متعاقبة من الاضطراب وتحول السلطان ، فغلب عليها بنو الإخشيد حيناً بعد ذهاب الدولة الطولونية ؛ ثم افتتحها الفاطميون بعدئذ بقليل ،واتخذواها مركزاً لملكهم وخلافتهم ودعوتهم . وكان عصر هذا الانقلاب موضعاً لمباحث جماعة من أعلام الرواة والمؤرخين المصريين الذين شهدوه أو عاشوا قريباً منه ، وانتهت إلينا بعض آثارهم . وكان فى طليعة أولئك المؤرخين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن ابن زولاق الليثى المصرى . ولد بفسطاط مصر فى شعبان سنة ٣٠٦ (٩١٩ م) وتوفى فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م)[١] . ونشأ فى مهد العلم والدرس ؛ فكان جده الحسن بن على من مشاهير العلماء . وكان من أسرته أيضاً محمد بن زولاق أحد أقطاب العربية فى عصره[٢] . ودرس الفقه على أبى بكر بن الحداد ، وهو من أعظم أئمة عصره[٣] . وتخصص فيه حتى نعت « بالفقيه » ، ودرس الرواية التاريخية على أبى عمر الكندى[٤] . ثم

---

(١) ابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) السيوطى – حسن المحاضرة (ج ١ ص ١٤١) ، ولا يذكر السيوطى أن مدا بن زولاق هذا ينتمى إلى أسرة المؤرخ ، ولكن يغلب على الظن من ظروف الزمان والمكان واتفاق اللقب أنه م المؤرخ .

(٣) توفى ابن الحداد سنة ٣٤٥ هـ . وينعته ابن زولاق فى كتابه أخبار سيبويه الذى تتحدث عنه بعد « بشيخنا فقيه مصر ، وفصيحها ، وعابدها » (وهو مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٤ تاريخ) .

(٤) يستفاد ذلك من ديباجة ابن حجر فى كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر حيث يقول : « اعتمدت فى الأول على أخبار لقضاة لأبى عمر الكندى ثم على ذيله لصاحبه أبى محمد بن زولاق » (رفع الإصر) المنشور بعناية وزارة بتربية (١٩ ٧) ص ٢ . يؤيد ذلك أيضا ما ورد فى كتاب مختصر فضائل مصر المنسوب لابن زولاق ؛ وهو مخطوط بباريس ورد فيه عن لسان ابن زولاق « فروى شيخنا أبو عمر محمد بن يوسف الكندى » راجع مقال المستشرق جوتهيل عن ابن زولاق فى مجلة جمعية المستشرقين الأمريكية (سنة ٢٨ ص ٢٦٣) J.A O.S XXVIII.263 .

خص كأستاذه تاريخ مصر بدرسه وبحثه . وقد نشأ ابن زولاق فى عهد الدولة الإخشيدية ؛ وشهد فى فتوته ما تعاقب يومئذ على مصر وعلى حكومتها من حوادث وقلاقل ، ثم شهد من بعد ذلك فى كهولته ذهاب ملك بنى الإخشيد ؛ وافتتاح الفاطميين لمصر ، وقيام الدولة الفاطمية ، ونشأة القاهرة ، عاصمة الإسلام الجديدة فى مصر . فاختار أن يكون مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الإسلامية ، ومع أننا لم نتلق سوى القليل من تراث ابن زولاق فإن ما انتهى إلينا من آثاره يدل على أن مجهوده التاريخى يمتاز عن مجهود أسلافه بكثير من البراعة والدقة ، واستكمال الرواية ، وحسن التنسيق ؛ وقد يرجع ذلك إلى أن ابن زولاق وقف معظم درسه وبحثه على حوادث عصره ؛ وأن الانقلاب العظيم الذى شهده فى مصاير مصر ، كان له أثر فى إذكاء خياله وخصوبة بيانه ، وقد يرجع أيضاً إلى أنه شهد الحوادث عن قرب ، واتصل بممثليها صلة متينة ، واستطاع بما أتيح له من حسن المشاهدة والاطلاع ، أن يقدم لنا عنها صوراً قوية دقيقة . فقد اتصل ابن زولاق مثلا ببلاط بنى الإخشيد ، وكتب تاريخ الإخشيد بطلب من ابنه أبى الحسن على بن الإخشيد[1] ، ثم اتصل من بعد ذلك بالقائد جوهر الصقلى فاتح مصر ، وبالخليفة المعز لدين الله ؛ وانتفع بهذه الصلة فى وضع كتابه عن سيرة المعز ، على نحو ما نفصل بعد[2] . فكان هذا الظرف أعنى اتصال ابن زولاق برجال الدولة ، ومشاهدته لأعمالهم وتصرفاتهم عن كثب ، وما اجتمع إليه من متانة فى البيان وبراعة فى العرض ؛ أساس هذه الدقة التى تطبع مجهوده التاريخى .

ومن الأسف أننا لم نتلق من تراث ابن زولاق التاريخى قطعة كاملة ، ولم يصلنا كاملا من آثاره غير رسالة أدبية فى أخبار سيبويه المصرى لا علاقة لها بمجهوده التاريخى . على أننا تلقينا مع ذلك من آثاره التاريخية ، على يد بعض المؤرخين المتأخرين قطعاً وشذوراً كثيرة ، منها ما لا يقل كثيراً عن الأصل ، وفيها ما يكفى للإحاطة بمجهود ابن زولاق التاريخى وتقديره ، والحكم عليه ، كما أنها من أهم مصادر التاريخ المصرى فى عصر بنى الإخشيد ، ومستهل الدولة الفاطمية .

---

(١) راجع الجزء الرابع من كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (ليدن سنة ١٨٩٨) فى الديباجة التى نقلها ابن سعيد عن ابن زولاق (ص د) .

(٢) أخبار سيبويه المصرى لابن زولاق (المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٣٣) فى ديباجته يشير ابن زولاق إلى صلته بالقائد جوهر . وقد كان جوهر أعظم أصحاب المعز نفوذاً لديه .

وينقسم مجهود ابن زولاق التاريخى إلى قسمين ، أحدهما عام والآخر خاص ، وكلاهما يتعلق بتاريخ مصر .

— ١ —

أما القسم العام فمن الصعب تحقيقه وضبط مداه ، إذ لم تصلنا عنه سوى إشارات غامضة متناقضة ، ولم ينته إلينا بالنقل شيء منه يكفى للدلالة عليه . ويشمل كتباً ثلاثة تنسب إلى ابن زولاق ، وهى كتاب خطط مصر ، وكتاب تاريخ مصر ، وكتاب فضائل مصر ؛ فتتردد هذه الأسماء الثلاثة فى كتب المؤرخين منسوبة إلى ابن زولاق .

فمثلا يذكر ابن خلكان فى ترجمة ابن زولاق ما يأتى : « كان فاضلا فى التاريخ وله فيه مصنف جيد ، وله كتاب فى خطط مصر استقصى فيه ... »[1] ، ويذكر السيوطى فى ديباجة كتابه « حسن المحاضرة » ضمن مصادره « تاريخ مصر لابن زولاق »[2] ، ثم يعود فى ترجمته فيقول إنه « صنف كتاباً فى فضائل مصر ... »[3] ، ويقول ابن حجر العسقلانى فى كتاب رفع الإصر ما يأتى : « وذكر ابن زولاق فى تاريخه الذى على السنين فى حوادث سنة عشرين... إلخ »[4] ، ويستفاد من ذلك أن ابن زولاق كتب تاريخاً لمصر ، هو الذى يذكره كل من السيوطى وابن حجر بصراحة ، ولعله المقصود أيضاً فى قول ابن خلكان « بالمصنف الجيد » . وينقل السيوطى فى سياق كتابه عدة نبذ عن ابن زولاق[5] دون أن يعين اسم الكتاب الذى ينقل منه ، مع أنه يعين أسماء مصادره عادة ؛ فهل نفهم من ذلك أن « تاريخ مصر » الذى ذكره ضمن مصادره و « فضائل مصر » الذى ذكره فى ترجمة ابن زولاق ؛ هما اسمان لكتاب واحد ؟ هذا ما نميل إلى الأخذ به ؛ لأن السيوطى ، يقتبس من ابن زولاق فيما كتبه فقط عن فضائل مصر . أعنى فيما حباها الله به من الهبات والبركات ، سواء بما جعلها مهبطاً لبعض

---

(١) الوفيات ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر مخطوط دار الكتب المشار إليه .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ ، ٤ ، ٩ ، ١٣ ، ٢٩ ، — وج ٢ ص ١٩٦ .

الأنبياء ، أو بما أسبغه عليها من الخصب والنعم ، وفى هذا يقتبس منه أيضاً ابن تغرى بردى مكتفياً بالإسناد إلى ابن زولاق دون تعيين كتابه[١] ،وكذا يعقد المقريزى فى « خططه » فصلا عن فضائل مصر لم يشر فيه إلى ابن زولاق ، ولكنه يورد فيه بعض ما ينسبه إليه السيوطى وابن تغرى بردى .

وهذا موضوع اعتاد المتقدمون من مؤرخى مصر أن يجعلوه قطعة من تواريخهم . وقد رأيت أن عبد الحكم يفرد لهذا الموضوع فصلا خاصاً فى فتوح مصر ، وأنه يظن أن الكندى ألف أيضاً كتاباً فيه .

ولم يصلنا أثر ابن زولاق هذا ؛ ولكن توجد ثلاث رسائل مخطوطة فى مكتبة باريس تنسب إلى ابن زولاق ؛ وتتعلق بهذا الموضوع أعنى فضائل مصر . وتوجد رسالة مخطوطة رابعة فى جوتا تنسب إلى ابن زولاق أيضاً تتعلق بتاريخ مصر حتى سنة ٤٩ هـ . وقد عنى المستشرق جوتهيل ببحث هذه الرسالة وتحليلها ، فانتهى إلى أن إحدى رسائل باريس الثلاث ، لايمكن أن تنسب إلى ابن زولاق بأى حال ؛ إذ ورد فى سياقها اسم ابن أبى الصلت أمية الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، ثم اسم المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . أما الرسالتان الأخريان ، فبينهما شبه فى المحتويات ، وعنونت إحداهما ، وصفحاتها ثلاث وأربعون : « كتاب مختصر فضائل مصر تصنيف الشيخ الأجل الإمام الحسن بن إبراهيم ابن زولاق » وخلاصة محتوياتها : ما ورد فى القرآن الكريم خاصاً بمصر ، ومن ولد بها من الأنبياء ، وعجائبها ، ونيلها ، ومحاصيلها ، ونبذة فى تاريخها قبل الإسلام ، وذكر مدنها ومساجدها . والرسالة الثانية نحو نصف الأولى فى الحجم ، وتحتوى على مثل هذه الموضوعات مع نبذ أخرى عن خراج مصر ، والموازنة بينها وبين بغداد ، ورخاء العيش فيها ، وقد ذيلت هذه الرسالة بقصيدة لجمال الدين المصرى المعروف بالجزار المتوفى سنة ٦٧٦ هـ فى أمراء مصر[٢] . مما يقطع بأنها ليست بخط ابن زولاق ويرى الأستاذ جوتهيل بمقارنة الرسالتين أن الثانية

---

(١) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ١ ص ٤٥ و ٤٧ .

(٢) أورد السيوطى هذه القصيدة برمتها وهى أرجوزة ذكر فيها ولاة مصر وملوكها من عمرو ابن العاص إلى الملك الظاهر بيبرس (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤١ وما بعدها) .

قد اقتضبت من الأولى على يد كاتب مجهول ، وأن الأولى هى من تأليف ابن زولاق ، كما يرجح أن مخطوط جوتا هو أيضاً نسخة من هذه الرسالة[١] .

ويلحق بهذا القسم من مجهود ابن زولاق التاريخى كتاب خطط مصر الذى يذكره ابن خلكان دون لبس ، ثم يقول إن ابن زولاق « استقصى فيه » أى أطال البحث وأسهب فيه . وقد رأينا أن ذكر الخطط منذ قيام الفسطاط وتوزيع مناطقها بين القبائل ، وإنشاء معاهدها الأولى ، وذكر باقى المدن المصرية ، موضوع تناوله المؤرخون المتقدمون أيضاً كابن عبد الحكم والكندى ، ولكن الظاهر أن ابن زولاق قد تناوله بنوع من الإفاضة والتوسع ، ولعله استقصى فيه إلى جانب خطط الفسطاط ، خطط العسكر[٢] ، ثم خطط القطائع ، وهى مدينة بنى طولون الذين عاش ابن زولاق قريباً من عصرهم ، وأدرك آثار قصورهم ومعاهدهم الزاهرة ، بل ليس بعيداً أن يكون ابن زولاق قد تناول فى « خططه » إنشاء القاهرة التى شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين عام . ولم تتلق عن أثر ابن زولاق فى الخطط أى شرح أو اقتباس شاف ، بل إن المقريزى الذى عنى فى مقدمة كتابه[٣] بتعداد كتاب الخطط ، لم يذكر ابن زولاق فيمن ذكر ، مع أنه ذكر الكندى ، وليس فى سياق مؤلفه ما يشير صراحة إلى أن ابن زولاق قد وضع كتاباً فى الخطط ؛ مما يدل على أن المقريزى لم يدرك مثل هذا الأثر ولم يعلم به . بيد أن ياقوت الحموى الذى توفى فى سنة ٦٢٦ هـ يقتبس فى معجمه الجغرافى عن ابن زولاق فى كلامه عن بعض المدن المصرية ؛ ولكن دون الإشارة إلى اسم الكتاب الذى نقل عنه[٤] .

— ٢ —

أما القسم الخاص من تراث ابن زولاق فقد انتهت إلينا منه عن يد المتأخرين بقية شافية ؛ وقد اختص ابن زولاق تاريخ عصره بهذا القسم من مجهوده .

---

(١) راجع مقال الأستاذ جوتهيل عن ابن زولاق فى مجلة جمعية المستشرقين الأمريكية XXVIII p. 259—67 ففيه استعراض تفصيلى للمخطوطات المذكورة .

(٢) هى محلة أو مدينة صغيرة ، أنشأها الجند العباسيون إلى جانب الفسطاط سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) حين قدومهم إلى مصر لمطاردة بنى أمية .

(٣) الخطط ج ١ ص ٦ .

(٤) راجع معجم البلدان (طبعة مصر) ج ١ ص ١٥٦ ، ٢٤٣ ؛ ٢٤٨ ، ٢٥١ .

فكتب « سيرة الإخشيذ » ، و « سيرة المعز لدين الله » ، وكتب ذيلا أو تتمة لكتاب الكندى عن أمراء مصر ، وذيلا آخر لكتاب الكندى عن القضاة ، ورسالة فى أخبار الماردانيين وزراء مصر .

وهذه الكتب كلها حلقات متصلة فى أخبار العصر الذى عاش فيه المؤرخ . وأولها من حيث التاريخ « سيرة الإخشيد » التى وصلتنا برمتها تقريباً بطريق النقل عن يد مؤرخ آخر هو ابن سعيد الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب »[١] الذى تعاقب فى وضعه عدة من أجداد هذا المؤرخ ، وخصت مصر فيه بقسم فى منتهى الأهمية ، يقوم معظمه على النقل من المؤرخين المصريين أنفسهم ، وقد تناول الجزء الرابع منه تاريخ دولة بنى الإخشيد وسمى كتاب « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » واعتمد فيه على كتاب ابن زولاق ، ونوه المؤلف بذلك فى الديباجة حيث قال : « والنقل فى ذلك من كتاب الحسن بن زولاق فى سيرة محمد بن طغج وغيره من الكتب التى تلى أسماؤها مذكورة فى أماكن الإحالة عليها »[٢]. ويبدأ النقل من كتاب ابن زولاق منذ الديباجة وفيها يذكر ابن زولاق ظروف تأليفه لهذا الكتاب ثم يقول :

« وكنت قد سئلت فى سنة خمسين وثلاثمائة من أبى الحسن على بن الإخشيد أن أعمل سيرة أبيه فعملت هذه السيرة ووصلت إليه وحسن موقعها منه ، وأحسن عليها المكافأة ؛ وجعل ذلك جارياً فى كل سنة هو ووالدته ، ولم أضمن هذه السيرة إلا ما شاهدته وأخبرنى به من أثق به حسبما أمكننى »[٣] .

وظاهر من سياق الرواية فى كتاب « المغرب » ومن تناسقها ، وإسهابها ، أننا أمام حالة نقل كامل ، أو بعبارة أخرى أننا ظفرنا بكتاب ابن زولاق كله تقريباً ، متقولا فى كتاب « المغرب » فالنقل يبدأ بالديباجة ؛ والرواية تبدأ بنشأة الإخشيد (محمد بن طغج) وتتبع حياته مرحلة فرحلة ، وظروف تغلبه على

---

(١) نشر بعض المستشرقين قطعاً من هذا الكتاب أكبرها الجزء الرابع الذى تولى نشره المستشرق الدانماركى تالكفست سنة ١٨٩٨ وهو المشار إليه فيما يلى ، ولا يزال معظم الكتاب مخطوطاً فى دار الكتب . وقد نشر منه الجزء الخاص بالأندلس بعناية الدكتور شوقى ضيف فى مجلدين (القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥) .

(٢) كتاب المغرب ص ٤ .

(٣) كتاب المغرب ص ٥ .

مصر ، وأعماله وحروبه مفصلة ، حتى وفاته ، ووصف خلاله وأحوال بلاطه ، كل ذلك فى رواية متناسقة ضافية تقع فى أكثر من أربعين صفحة كبيرة[١] فاذا أضفنا ذلك إلى ما يذكره ابن زولاق فى المقدمة عن ظروف تأليفه لهذه السيرة ، استطعنا أن نقطع بأن « سيرة الإخشيد » تكون مؤلفاً لابن زولاق مستقلا بذاته ؛ وليس ذيلا لكتاب آخر ، كما توهم الأستاذ جوتهيل ، حيث اعتقد من فهم خاطئ لعبارة وردت فى خاتمة ديباجة ابن زولاق عن تتمته لكتاب أمراء مصر ، أن سيرة الإخشيد هى قسم من هذا الذيل ، أو ذيل لكتاب سابق[٢] .

وقد رأينا أن ابن زولاق كان متصلا برجال الدولة منذ بنى الإخشيد ، فإذا كان قد وضع سيرة للإخشيد ؛ فقد نكون أمام تاريخ رسمى ؛ أثبتت فيه المحاسن ، وأريد أن تخدم به دعوة معينة . وقد يؤيد ذلك ما خص به الإخشيد من المديح فى عدة مواطن[٣] ، ولكن تفاصيل الرواية فيما عدا هذه المواطن القليلة تعرض مجردة ، ولمنطق الحوادث أهميته ، ومنها كثير يشهد على الإخشيد لا له ، هذا إلى أن ابن زولاق قد نقح كتابه فيما بعد كما يتضح ذلك من قوله فى ختام مقدمته « وقد زدت فى هذه السيرة أشياء بعد على بن الإخشيد[٤] » ؛ مما يدل على أننا أمام نسخة معدلة من سيرة الإخشيد ، غير النسخة التى كتبها المؤرخ بإشارة على بن الإخشيد ، وأنه بعد ذهاب دولة بنى الإخشيد ، قد تناول ما كتبه أولا بشىء من التغيير والتعديل فى جو أكثر حرية ونزاهة .

ويلحق بسيرة الإخشيد ، رسالة كتبها ابن زولاق عن أخبار الماردانيين ؛ وهم أسرة قوية تولت الوزارة أيام بنى الإخشيد ، وناوأتهم ونافستهم حيناً ، ولم تصلنا هذه الرسالة ، غير أن المقريزى يلخص منها فصلا فى أخبار أبى بكر

---

(١) هذه الصفحات قطعها ضعف الصفحات العادية ، فالصفحة منها مثلا تحتوى على ثمانية وعشرين سطراً والسطر يحتوى على نحو ستة عشر كلمة فهى بذلك تبلغ مائة صفحة من القطع العادى .

(٢) راجع مجلة جمعية المستشرقين الأمريكية .J.A.O.S سنة ٢٨ ص ٢٥٧ . والظاهر أن الأستاذ جوتهيل ، قد فهم من إشارة ابن زولاق إلى أنه كتب ذيلا لأمراء مصر منذ ولاية الإخشيد إلى دخول المعز ، أن سيرة الإخشيد ، هى قطعة من هذا الذيل ، ولكن العبارة الختامية فى الديباجة وهى قوله : « وقد زدت فى هذه السيرة أشياء بعد على بن الإخشيد » تزيل هذا الوهم .

(٣) راجع كتاب المغرب ص ١٥ و ٣٢ و ٣٧ .

(٤) كتاب المغرب ص ٥ .

الماردانى عميد هذه الأسرة وأخبار ولده[1] ، ويذكر فى نهايته أن ابن زولاق قد أفرد لتاريخ الماردانى « سيرة كبيرة » ، مما يدل على أن ابن زولاق تناول هذه السيرة بشىء من التوسع ، هذا فضلا عما يقتبسه المقريزى منها فى مواضع أخرى.

على أن أهم آثار ابن زولاق ؛ فيما يظهر ، هو كتابه « سيرة المعز لدين الله ». وقد شهد المؤرخ فتح الفاطميين لمصر ؛ وانتقال مصر بذلك من الخلافة العباسية إلى خلافة الشيعة ، وشهد عهد المعز لدين الله ، ثم عهد ولده العزيز بالله ، واتصل بالبلاط الفاطمى ؛ وبجوهر فاتح مصر[2] ، فكان طبيعياً أن يكتب تاريخ هذا العهد الفياض بغريب الحوادث ، وأن يكتب بالأخص سيرة المعز لدين الله محور هذا الانقلاب العظيم فى مصير مصر . وإذا لم يكن قد وصلنا أثر ابن زولاق هذا ، فقد وصلتنا منه على يد المقريزى شذور عديدة نستطيع منها أن نقول رأياً فى قيمته ومداه .

وهذه الشذور اقتبسها المقريزى بالأخص فى كتابين من كتبه : الأول فى كتاب « اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » ، وهو تاريخ للخلفاء الفاطميين . وقد وصلنا قسم كبير منه فى مخطوط محفوظ بمكتبة جوتا ، ونشره المستشرق بونز . وفيه يقتبس المقريزى فيما كتبه عن المعز لدين الله منذ دخوله مصر ، فصلا برمته عن ابن زولاق[3] ؛ ثم ينقل فى موضع آخر ، صورة كتاب المعز لدين الله لزعيم القرامطة الحسن الأعصم ، وهو وثيقة فقهية تاريخية هامة يرجح أنه نقلها أيضاً عن ابن زولاق . ثم يقتبس المقريزى فى كتاب الخطط أيضاً ،

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٥٤ . وكذلك ج ١ ص ١٣٢ – راجع أيضاً ج ٣ ص ٩ و ٢٩٤ حيث يقتبس من سيرة الإخشيد .

(٢) راجع كتاب أخبار سيبويه المصرى الذى سبقت الإشارة إليه ففيه ما يفيد صلة ابن زولاق بالقائد جوهر (ص ١٧) .

(٣) راجع هذا الفصل فى اتعاظ الحنفاء طبعة بونز ص ٨٩ إلى ١٠٠ ، والطبعة التى نشرت بعناية المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال (ص ١٤٦ – ١٦١) ؛ وفى فاتحته يقول المقريزى أنه نقل « عن خط ابن زولاق » مما يدل على أن مؤلف ابن زولاق كان موجوداً متداولا حتى القرن التاسع الهجرى . هذا وقد عثر البحث أخيراً بنسخة كاملة من « اتعاظ الحنفاء » بإحدى مكتبات استانبول .

كثيراً من « سيرة المعز » متفرقة فى كلامه عن أحوال الدولة الفاطمية وتاريخ المعز لدين الله .

والظاهر من هذه الشذور[1] أن سيرة المعز كانت مؤلفاً كبيراً ضافياً ، يلم بكل ما فى سيرة المعز الحافلة من الحوادث والتفاصيل ؛ وبكل ما استحدثه البلاط الفاطمى فى مصر من النظم والرسوم والتقاليد . وقد ذهب الأستاذ جوتهيل فى بحثه إلى أن سيرة المعز قد تكون أيضاً إلى جانب سيرة الإخشيد جزءاً من ذيل لمؤلف سابق ، وليست كتاباً مستقلا[2] وهذا خطأ فى نظرنا . ويكفى أن نستعرض خلاصة ما اقتبسه المقريزى ، لنرى أن سيرة المعز تكون مؤلفاً مستقلا بذاته ، تحول سعته وإفاضته ، دون أن يكون ذيلا أو جزءاً من ذيل .

ففى هذه الشذور تفصيل لبعض الحوادث التى وقعت منذ دخول المعز قصره الجديد فى القاهرة لأول مرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ؛ وقد رتبت على الأيام والشهور متقاربة متناسقة على النحو الآتى :

فى يوم ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ؛ دخول المعز قصره فى القاهرة ، ويلى ذلك وصف ما فى القصر من بذخ وتحف وذخائر .

فى ١٥ رمضان سنة ٣٦٢ جلوس المعز على عرشه ، ومثول الكبراء للسلام عليه ، وتقديم القائد جوهر هديته إليه ، مع وصف مفصل لهذه الهدية .

فى شوال سنة ٣٦٢ ، منع المعز النداء بزيادة النيل .

فى يوم عرفة سنة ٣٦٢ ؛ عرض المعز للمظلة التى صنعت للكعبة فى قصره ، ووصف هذه التحفة .

وصف ما استعمل من الذهب فى صنع العرش .

فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢ ، وصف اجتماع أهل القاهرة للدعاء .

فى ١٦ المحرم سنة ٣٦٣ ، قلد المعز ولاية الخراج للوزير يعقوب بن كلّس .

---

(١) راجع هذه الشذور أيضاً فى الخطط ج ١ ص ٩٧ و ص ١٣٢ و ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢ ، ٣٥٣ : ٣٨٩ ، وج ٣ ص ٢٢٤ . وهى نفس ما نقله المقريزى فى « اتعاظ الحنفاء » فى تاريخ المعز لدين الله مجتمعا ، غير أنه يوردها فى الخطط متفرقة فى مناسبات مختلفة .

(٢) J.A.O.S XXVIII p. 266

فى يوم عاشوراء سنة ٣٦٣ ، سير موكب الشيعة للنواح على الحسين .

فى يوم الفطر سنة ٣٦٣ ، ركوب المعز للصلاة فى القاهرة ، ووصف مشهد الصلاة ، والخطبة التى ألقيت .

فى ذى القعدة سنة ٣٦٣ ؛ ركوب المعز لفتح الخليج ، وتجواله فى القاهرة .

سنة ٣٦٣ أيضاً ؛ منع الوقود فى عيد النيروز .

سنة ٣٦٤ ؛ وصف مواكب النيروز .

هذا ملخص ما اقتبسه المقريزى من سيرة المعز ، يدل دلالة واضحة على أن ابن زولاق ، كان يتتبع فى هذه السيرة حوادث هذا العصر مرتبة حسب تاريخها ، وعلى أنه كان يستقصى كل الحوادث الشعبية والملوكية سواء ، كما أن تقارب هذه الحوادث ، وما يتخللها من الوصف والإسهاب يدل على أننا أمام مؤلف ضخم شاسع لا أمام ترجمة موجزة ؛ وإذا كان ابن زولاق ، قد أحصى فى عامين أو ثلاثة ، كل هذه الحوادث واهتم أن يتتبع الخليفة خلالها فى غدواته وروحاته وحفلاته وصلواته ؛ فمن الواضح أنه قد سار فى مؤلفه على هذا الأسلوب ، منذ نشأة المعز فى بلاد المغرب وتاريخه قبل مقدمه إلى مصر ؛ ثم فتح مصر وما تخلله من الحوادث حتى وفاته (٣١٧ — ٣٦٥ هـ) وذلك على نحو ما فعل فى سيرة الإخشيد حيث تتبع أدوار حياته منذ بدايتها إلى وفاته ؛ أضف إلى ذلك أن صلة ابن زولاق بالقائد جوهر وبالبلاط الفاطمى ، تحمل على الاعتقاد بأنه كتب سيرة المعز ، بناء على طلب رسمى ، كما حدث بالنسبة لسيرة الإخشيد ، وفى ذلك كله ما ينفى القول بأن مؤلفه عن المعز قد يكون ذيلا أو شبه ذيل لمؤلف سابق ؛ وما يؤيد أنه مجهود مستقل بذاته ؛ ولعله أكبر آثاره كلها ؛ فضلا عن كونه أهمها ، لأنه يتعلق بفترة من الحوادث كان لها أكبر أثر فى تطور مصاير مصر الإسلامية .

— ٣ —

ولابن زولاق إلى جانب سيرة الإخشيد ، وسيرة المعز لدين الله ، أثران آخران يتمان مجهود الكندى ، أولها ذيل لكتابه عن القضاة ، والثانى ذيل لكتابه عن الولاة ؛ ويبدأ ابن زولاق فى كتابه عن قضاة مصر حيث وقف الكندى أعنى بولاية القاضى بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) وينتهى

بذكر ولاية محمد بن النعمان سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) فى أيام العزيز بالله ، ويمضى ابن زولاق فى ذكر أخباره إلى رجب سنة ٣٨٦ هـ[١] (٩٩٦ م) أعنى إلى ما قبل وفاته بنحو عام ونصف ، ويسمى ابن خلكان هذا الكتاب « أخبار قضاة مصر »[١] ويسميه ابن حجر «بالذيل» أعنى ذيل كتاب الكندى[٢] ولم تصلنا منه نسخة كاملة ؛ ولكن وصلنا معظمه على ما يظهر ، عن طريق ابن حجر ؛ فى كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر[٣] ، حيث يعتمد على ابن زولاق وحده تقريباً فى ذكر قضاة الفترة التى تناولها ، وينوه بذلك فى مقدمة كتابه[٤] .

كذلك وضع ابن زولاق ذيلا لكتاب الولاة ، فبدأ حيث انتهى الكندى أعنى منذ وفاة الإخشيد إلى دخول المعز لدين الله مصر (٣٣٥ — ٣٦٢ هـ) ؛ وقد أشار ابن زولاق نفسه إلى محتويات هذا الذيل فى مقدمة سيرة الإخشيد فقال :

« وقد كان أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، عمل أخبار أمراء مصر وختمه بوفاة الإخشيد وذكر له أخباراً يسيرة ، وقد أتممت أنا هذا الكتاب بسيرة أنوجور وأخيه على وكافور ، وأحمد بن على بن الإخشيد ، والقائد جوهر إلى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافته »[٥] .

وهذه الإشارة صريحة فى أن ابن زولاق لم يتناول فى هذا الذيل تاريخ الإخشيد بل بدأه بتاريخ أنوجور بن الإخشيد ، لأنه تناول تاريخ الإخشيد فى مؤلف خاص ، وهو سيرة الإخشيد كما قدمنا . ولم يصلنا من هذا الذيل لكتاب الكندى غير شذور قليلة ، أورد بعضها المقريزى فى « الخطط » ، ولكنها تدل على أن ابن زولاق اتبع فيه شيئاً من التوسع ، ويسميه المقريزى

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر الطبعة المشار إليها ص ٢ .

(٣) لا يزال معظم رفع الإصر مخطوطا ولم يطبع كاملا (دار الكتب رقم ١٠٥ تاريخ) وقد صدر منه جزءان فقط . ونشر المستشرق رفون جست منه قسما كبيراً مع كتاب الكندى ، تكملة لتاريخ القضاة .

(٤) رفع الأصر ص ٢ .

(٥) كتاب المغرب ص ٥ .

فيما اقتبسه منه بكتاب « تتمة كتاب أمراء مصر » أو « إتمام كتاب الكندى فى أخبار أمراء مصر »[١] .

وهنالك أيضاً ذيل أو تتمة أخرى لابن زولاق فى أخبار الدولة الطولونية ، أشار إليها فى ديباجة سيرة الإخشيد ، ولكن لم يصلنا منها شيء [٢] .

— ٤ —

بقى أن نتكلم عن أثر لابن زولاق ، هو الوحيد الذى تلقيناه كاملا . ذلك هو «كتاب أخبار سيبويه المصرى » . وهو أثر أدبى يحتوى أخبار أحد أعلام الأدب فى عصر ابن زولاق ، ويلقى شيئاً من الضياء على بعض نواحى الحياة الأدبية فى هذا العصر . وسيبويه المصرى ، هو أبو بكر محمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندى المصرى ، ولد بالفسطاط سنة ٢٨٤ هـ وتوفى سنة ٣٥٨ ؛ ولقب بسيبويه لبراعته فى النحو وخواص اللغة ، وقد ذكره السيوطى بين فقهاء الشافعية وبين أئمة اللغة[٣] ، كان صديقاً لابن زولاق ، وزميلا له فى الدرس على ابن الحداد[٤] ، وكانت له أخبار وملح ونوادر كثيرة عنى ابن زولاق بجمعها فى كتاب خاص . وفى دار الكتب المصرية نسخة خطية وحيدة من هذا الأثر ، لا ريب أنها من أقدم المخطوطات العربية التى وصلت إلينا[٥] وهى كتيب فى نحو أربعين صفحة صغيرة ، وفى مقدمته يقول ابن زولاق ما يأتى : —

---

(١) راجع الخطط ج ٢ ص ٣٩ و ٢٢٣ .

(٢) كتاب المغرب ص ٤ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٧ و ٢٥٤ .

(٤) كان ابن زولاق تليمذا لابن الحداد كما قدمنا ، وقد ذكر السيوطى أن سيبويه المصرى درس على ابن الحداد أيضا (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٤) .

(٥) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٤ تاريخ ، وهى مخطوط قديم جدا ، أكثر صحفه مخرمة بهتت كتابتها من تقادم العهد . وقد كتب على صفحة عنوانه ما يأتى : « كتاب أخبار سيبويه المصرى تأليف أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين ابن . . . » وأكلت نسبة المؤلف وترجمته بخط آخر على النحو الآتى : « الحسن بن خلف بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق الليثى المصرى الفقيه التاريخى مصنف أخبار مصر وغيرها ، توفى فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ست وثمانين وثلثمائة » ووقعت هذه الترجمة بما يأتى « كتبه يوسف بن أحمد بن مود بن أحمد (الأسدى) الدمشقى لطف الله تعالى به » . =

« قال الحسن بن إبراهيم : وكان عندنا بمصر رجل يعرف بسيبويه ... لو كان بالعراق لجمع كلامه ونقلت ألفاظه ، ولو عرف المصريون قدره ، جمعوا عنه أكثر مما حفظوه ، وسئلت أن أجمع (من) كلامه ما أقدر عليه مما حفظته عنه ، وما بلغني عنه ، فعملت كتابي هذا بصفته وما كان يحسنه حسب ما قدرت عليه ، وبالله التوفيق » .

ثم يترجم ابن زولاق صديقه ، ويقول إنه توفى فى صفر سنة ٣٥٨ هـ « قبل دخول القائد جوهر إلى مصر بستة أشهر ، وتأسف عليه لما ذكرت له أخباره ، وقال لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز صلوات الله عليه » ثم يقول : « وكان أبوه ... يكنى أبا عمران ، أعرفه وأعرف لابنه سيبويه معه قصصاً أذكرها فى كتابى » ويصف صاحب الترجمة بأنه « كان عالماً حافظاً ، يعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيبويه ... اجتمعت فيه ألفاظ الورعين والمتزهدين والواعظين ، وأخبار الصالحين ، وأدوات المتأدبين ، وفكاهة المتادمين ... وبلغ ذلك حتى جالس أنوجور الإخشيد أمير مصر ، وجالس الحسين بن محمد الماردانى وزير مصر أيضاً وواكلهما ونادمهما ... » .

وكتاب أخبار سيبويه يلقى كما قدمنا شيئاً من الضياء على بعض نواحى الحياة الأدبية المصرية فى النصف الأول من القرن الرابع ، وعلى أحوال الأدباء ومكانتهم من المجتمع ، وعلائقهم برجال الدولة ، وعلى حلقات

= وقد كتب نفس الكاتب بخطه تحت عنوان الكتاب هذه العبارة « بخط ابن زولاق وجمعه » . وتحمل صفحة العنوان فوق ذلك فى الزاوية اليسرى ما يأتى : « لأحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم ابن أحمد بن محمد بن سليم أبو محمد القيسى » . وقد لفتت نظرنا أهمية هذا المخطوط وقدمه ، وما أورده الكاتب المجهول من أنه بخط ابن زولاق . فلبثنا حيناً ننقب عن شخصية صاحب هذه العبارة وهو أيضاً كاتب ترجمة الغلاف ، أعنى يوسف بن أحمد الأسدى الدمشقى . حتى اهتدينا إليه ؛ وحققنا أيضاً شخصية صاحب الاسم الثانى الذى فى زاوية الغلاف اليسرى ، بأنه هو ابن مكتوم الفقيه واللغوى المصرى ، وانتهينا من تحقيقات ومقارنات خطية عديدة أيدناها بالوثائق والأدلة القوية ، على أن هذا المخطوط يرجع تحقيقاً إلى عصر الفسطاط ، وأنه كتب نحو سنة ٣٧٠ هـ إلى سنة ٣٨٠ هـ وأنه فوق ذلك يرجح ترجيحاً كبيراً أنه بخط مؤلفه الحسن بن زولاق ، (راجع هذا البحث مع وثائقه فى ملحق جريدة السياسة لعدد ٢٧٨٥ الصادر فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٣٢) هذا وقد قام بتحقيق هذا المخطوط ونشره الأديبان محمد إبراهيم سعد وحسين الديب (القاهرة سنة ١٩٣٣) .

الأدب فى مصر الفسطاط ، وعلائق الأدباء بعضهم ببعض ، وكذلك على بعض نواح من الحياة الاجتماعية المصرية فى هذا العصر .

* * *

وهكذا يجتمع تراث ابن زولاق بين التاريخ وشيء من الأدب . وقد رأينا فيما استعرضناه من آثار هذا التراث ، أن ابن زولاق يتجه بمجهوده إلى إلى نوع من التخصص ، وأنه يتناول من تاريخ مصر ، دول العصر الذى عاش فيه فى توسع وإفاضة . فهو بذلك أول مؤرخ مصرى آثر التخصيص على التعميم ، وآثر حوادث عصره ورجال عصره بأكبر قسط من مجهوده ، لأن مجهود ابن عبد الحكم والكندى ، يتجه كلاهما إلى التعميم ، وإن لم يخل من بعض نواح خاصة . بيد أن مجهود ابن زولاق يصل مع ذلك مجهود سلفيه ويتمه ، بحيث نجد فى مجهود المؤرخين الثلاثة سلسلة متصلة فى تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية وعصر المعز لدين الله . ولكن مجهود ابن زولاق يمتاز أولا بالتحرر من كثير من قيود الرواية والإسناد التى تطبع مجهود ابن عبد الحكم والكندى ، وإذا كان يلجأ إليها فى كثير من المواطن ، فأكثر ما يكون ذلك للنقل عن أساتذته وبعض معاصريه ، ممن شهدوا حوادث أو تفاصيل تتعلق بموضوعه . والمشاهدة والتحقيقات الخاصة هى أعظم مصادر ابن زولاق . وقد رأيت أنه كان ذا صلة وعلائق ، بالدول والأشخاص الذين كتب تاريخهم ، وأنه كان مؤرخ دولة أو مؤرخاً رسمياً فى معنى من المعانى . ولكن هذه الصفة لم تجن على مجهوده فيما نعتقد ، لأنه لم يبد فيه شيئاً من عوامل التشيع أو التحامل الواضحة ، ولأنه فوق ذلك يعرض الحوادث والتفاصيل مجردة ، ومعظمها من حروب وثورات وضروب بطش ونقمة ، لم تكن تناقض روح عصره أو مبادئه . ولم تكن مما يتأذى منه المتغلب أو الفاتح الذى تسبغ القوة على تصرفاته لوناً من الحق والشرعية . فابن زولاق راوية ينقل ما سمع وشاهد وحقق ، من طريق صلاته وعلائقه بأكابر عصره ، وروايته لذلك جديرة بالاعتماد والثقة ، بل هى أنفس

ما انتهى إلينا من تواريخ هذا العصر ووثائقه ، وفى وسع البحث الحديث أن يتخذ منها مادة غزيرة للتحليل والنقد . هذا كله إلى أن ابن زولاق يقدم إلينا مجهوده ، فى عرض ممتع ؛ يشهد بقوة بيانه ، ويدلل بوضوح على أن الرواية التاريخية قد بدأت فى عصره تنزع عنها كثيراً من عوامل الجفاء والملل التى تطبعها فى القرنين الثانى والثالث ، وتدخل فى مرحلة جديدة من البسط والدقة ، وحسن العرض[١] .

---

(١) لفتت نظرنا إشارة وردت فى كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى هذا نصها : « وقال ابن زولاق فى سيرة جوهر » (القسم الأول من رفع الإصر ص ٧٤) مما يدل على أنه كان ضمن آثار ابن زولاق كتاب فى سيرة جوهر الصقلى ولم نعثر فى أى مصدر آخر على أى إشارة مماثلة أو على أية تفاصيل أخرى . ومن المعقول أن يضع ابن زولاق مثل هذا الكتاب ، إذ كانت تربطه بجوهر الصقلى صلة وثيقة .

الفصل الرابع

عز الملك المسبّحى

جندى ومؤرخ وسياسى

(٣٦٦ — ٤٢٠ هـ) : (٩٧٧ — ١٠٢٩ م)

كان المسبحى رجل حرب ورجل قلم ؛ وكان سليل أسرة حرّانية [١] نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية ، واستوطنت مصر وسطعت فيها ؛ وكان إحدى هاته الشخصيات القوية البارزة ، التى كانت الدولة الفاطمية إبان قوتها وفتوتها تحشدها من حولها ، وتوليها ثقتها وعطفها ، وتؤثر أن تختارها من غير المصريين البلديين . بيد أن المسبحى كان مصرياً بمولده ، مصرياً بتربيته وبيئته ، وقد خصص حياته ومواهبه الممتازة لدراسة مصر وأحوالها وتاريخها ؛ ولو لم يذهب الزمن بآثاره ، ولاسيما بموسوعته الضخمة عن تاريخ مصر ، لكان بين أيدينا الآن أعظم أثر عن مصر وتاريخها فى المرحلة الأولى من الحكم الفاطمى ، أعنى مرحلة العظمة والبهاء .

وولد المسبّحى بمصر — حسبما ذكر فى تاريخه ، ونقل إلينا الرواة المتأخرون — فى العاشر من رجب سنة ست وستين وثلثمائة (٩٧٧ م) [٢] . وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل المعروف بالمسبّحى ؛ ولم نعثر على تفاصيل عن حياته الأولى ولا عن تربيته وتكوينه ، ولكن يبدو لنا من آثاره التى نسبت إليه ، والتى انتهت إلينا شذور منها ، أنه تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحى ، كذلك يظهر أن المسبحى بدأ حياته العامة جندياً ورجل إدارة ، لأنه كان يرتدى زى الجند ، ولأنه تقلد بعض المناصب الإدارية الهامة ؛ وقد ذكر لنا المسبحى فى تاريخه أيضاً ، أن اتصاله بخدمة الحاكم بأمر الله يرجع إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ بيد أنه تقلب قبل ذلك فى بعض الوظائف

---

(١) نسبة إلى حران ، وهى مدينة قديمة كانت تقع بين الموصل والشام على مقربة من الرها .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٤ .

الهامة ، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب[١] وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله ، وعينه فى بطانته الشخصية فى سنة ٣٩٨ هـ . وكان الحاكم يومئذ فتى فى نحو الثالثة والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان فى ذروة القوة والسلطان والبطش ، وكانت هذه الفترة بالذات من أروع فترات حكمه ، وفيها فتك بكثير من الوزراء ورجال الدولة (سنة ٣٩٥ — ٤٠٠ هـ). ويروى لنا المسبحى نفسه فى تاريخه طائفة من الحوادث الدموية التى شهدها فى هذا العهد[٢] ؛ وكان الحاكم دائم الفتك بالزعماء والكبراء ، لأسباب تتصل بسياسته العامة أو لريب ومخاوف تساوره ، ولكن المسبحى تبوأ لدى الحاكم مركزاً من النفوذ والثقة ، لا تتطاول إليه الشكوك والريب ، ولا تتجه إليه النقمة الغادرة ، بل يظهر أن المسبحى كان من أخص خواص الحاكم ، حسبما تدل به الواقعة الآتية التى يرويها لنا فى تاريخه ، قال :

« قال لى الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعانى والدى قبل موته ، وهو عارى الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، قال فاستدعانى وقبلنى وضمنى إليه وقال : واغمّى عليك يا حبيب قلبى ! ودمعت عيناه ، ثم قال : امض يا سيدى فالعب فأنا فى عافية . قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل الله تعالى العزيز إليه »[٣] .

ويقول لنا ابن خلكان إن المسبحى نال لدى الحاكم حظوة وسعادة ، وإنه كانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات ، حسبما يشهد بها تاريخه الكبير[٤] ، وتبدو دلائل هذه الصداقة التى توثقت عراها بين الحاكم والمسبحى ، فى كثير مما يرويه المؤرخ فى تاريخه ، وينقله عنه الكتاب المتأخرون مثل المقريزى وابن تغرى بردى عن عصر الحاكم بأمر الله ، وعن أحواله وتصرفاته الشخصية ، ففى كثير من هذه المواطن يبدو المسبحى الصديق المخلص والمستشار الأمين . وهذه حقيقة تلفت النظر ، فإن الحاكم كان أميراً خطر النزعات ، عنيف

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٢) نقله المقريزى عن المسبحى فى الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ٣٢ و ٣٣ .

(٣) نقله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ .

الأهواء ، وقلما نجا من نقمته أحد من رجال الدولة الذين خدموه . بيد أن الذهبي يقدم إلينا فى تاريخه تعليلا لهذه الظاهرة، هو أن المسبحي كان رافضياً[1] . والروافض فرقة من غلاة الشيعة ، تغلو فى حب على بن أبى طالب ، وفى بغض أبى بكر وعثمان ومعاوية ومن إليهم ، وقد اختلف فى سبب تسميتهم بالروافض . وهنا نلمس سر هذه الصداقة التى توثقت بين المؤرخ وأميره ، فقد كان الحاكم ، جرياً على سنة آبائه ، يصطفى غلاة الشيعة أبناء مذهبه ، ويوليهم مناصب النفوذ والثقة ، وكان المسبحى يتمتع فوق صفته المذهبية بخلال باهرة تضاعف مكانته ، فقد كان عارفاً بعلوم عصره ، وكان راوية ومحدثاً ساحراً ، وكان أيضاً شغوفاً بعلم النجوم الذى يشغف به الحاكم بأمر الله ، وقد وضع فيه أكثر من مؤلف[2] ؛ وهذه كلها عوامل وظروف تلقى أكبر الضياء على طبيعة هذه الحظوة التى نالها المؤرخ فى بلاط الحاكم بأمر الله .

وقد استطالت هذه الحظوة حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ ﻫ ؛ ولا نعرف ماذا كانت صلة المسبحى بالبلاط الفاطمى فى الأعوام التالية ، والظاهر أنه اعتزل الحياة العامة ، وانقطع للبحث والكتابة ، ووضع كثيراً من مؤلفاته فى هذه الفترة ، التى استطالت تسعة أعوام أخرى حتى وفاته فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٢٠ ﻫ (١٠٢٩ م) .

— ٢ —

يقدم إلينا ابن خلكان ثبتاً حافلا من مصنفات المسبحى ، وفى هذا الثبت القوى المتباين معاً ، ما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحى التفكير والثقافة المتعددة ، فقد ألف المسبحى فى التاريخ والجغرافية والأدب والاجتماع والفلك ، كتباً بل موسوعات ضخمة . وإليك مفردات هذا الثبت الذى يقدمه إلينا ابن خلكان : كتاب التاريخ الكبير فى ثلاث عشرة ألف ورقة ، كتاب التلويح والتصريح فى معانى الشعر وغيره فى ألف ورقة ، كتاب الراح والارتياح فى ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الغرق والشرق فى ذكر من مات غرقاً وشرقاً فى مائتى ورقة ، كتاب الطعام والإدام فى ألف ورقة ؛

(١) راجع السيوطى — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٦٥٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

كتاب درك البغية فى وصف الأديار والعبادات ثلاث آلاف وخمسمائة ورقة ، قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب المفاتحة والمناكحة فى أصناف الجماع ألف ومئتا ورقة ، كتاب الأمثلة للدول المقبلة ، وهو فى النجوم والحساب خمسمائة ورقة ، كتاب القضايا الصائبــة فى معانى أحكام النجوم ثلاث آلاف ورقة ، كتاب جونة الماشطة فى غرائب الأخبار والأشعار والنوادر ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الشجن فى أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة ؛ كتاب السؤال والجواب ثلثمائة ورقة ؛ وكتاب مختار الأغانى ومعانيها ؛ وغير ذلك من الكتب ؛ ويقول لنا ابن خلكان أيضاً إن مصنفات المسبحى بلغت نحو الثلاثين[1] .

وهو تراث حافل ضخم ينم عن غزارة مدهشة ، ويشهد من حيث تنوعه لصاحبه بطرافة يندر توفرها فى آداب هذا العصر ؛ بيد أننا لم نتلق من هذا التراث شيئاً يذكر ، ولا نكاد نظفر فى عصرنا للمسبحى بأثر تام أو فصل تام . وقد اشتهر المسبحى بالأخص بتاريخه الكبير ، الذى يصف لنا محتوياته فى مقدمته فيما يلى : « هو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتب فيه ، وأشعار الشعراء - وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم »[2] ، وإذن فقد كان تاريخ المسبحى ، سواء من حيث حجمه أو موضوعاته ، موسوعة قوية شاسعة ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولا سيما عصر الحاكم بأمر الله ، وشخصيته الغريبة الفذة ، التى درسها المسبحى عن كثب ؛ ولكن الشذور القوية الممتعة التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين ، عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها وبذخها وبهائها ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته وطرافته ، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومعاهدها فى كثير من الإفاضة .

وقد لبث تاريخ المسبحى مستقى خصباً لمؤرخى مصر الإسلامية حتى عصر

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ .

متأخر جداً ؛ فالمقريزى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، والسيوطى ، وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده ؛ وكذلك يذكره حاجى خليفة فى « كشف الظنون » بما يأتى : « ومنها تاريخ مصر لعز الملك محمد بن عبد الله المسبحى الحرانى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو كبير فى اثنى عشر مجلداً ؛ واختصره تقى الدين الفاسى والذيل عليه لابن ميسر »[1] ؛ وفى ذلك ما يدل بأن تاريخ المسبحى كان موجوداً حتى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى). بل هنالك ما يدل على أنه كان موجوداً كله أو بعضه حتى القرن الثانى عشر (الثامن عشر) ؛ فقد ورد فى معجم مخطوطات الإسكوريال الذى وضعه الغزيرى اللبنانى (Casiri) فى سنة ١٧٧٠ بأنه يوجد فى مكتبة الإسكوريال (أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ ، تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسيحى (كذا)(Almisibi) (معجم الإسكوريال رقم ٥٣١ فقرة ٢)[2] ، وليس من شك فى أن المقصود هو تاريخ مصر للمسبحى ، وذلك رغم تحريف الاسم . على أننا عند مراجعة فهرس الإسكوريال الحديث الذى وضعه ديرنبورج ، ثم ليڤى بروڤنسال (سنة ١٩٢٨) لم نجد فى كتب التاريخ ذكراً لكتاب المسبحى ، مما يدل على أن ما كان موجوداً منه بقصر الإسكوريال فى القرن الثامن عشر ، قد ضاع شأن كثير من الآثار التى أثبت الغزيرى وجودها فى معجمه .

ولكنا وجدنا ضمن المخطوط رقم ٥٣٤ الغزيرى فصلا من تاريخ المسبحى عنوانه « الجزء الأربعون من أخبار مصر وفضائلها وطرايفها وغرايبها وما بها من البقاع والآثار ، وسير من حل بها وحل غيرها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين » ويلى ذلك ، تصنيف الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المسبحى وأوله : بقية سنة أربع عشر وأربعمائة » . ويشمل هذا الفصل فى المجموعة المخطوطة المشار إليها من لوحة ١٣٢ إلى ٢٨٩ ، وذلك من قطع متوسط ، وفى اللوحة ١٣ سطراً . وقد ذيلت اللوحة الختامية منه بما يأتى : تم الجزء

---

(١) راجع كشف الظنون (طبعة فليجل) ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis

الأربعون من أخبار مصر وفضائلها ... إلخ ، يتلوه إنشاء الله الجزء الحادى والأربعون سنة ستة عشر وأربعمائة . ويحتوى هذا الفصل فضلا عن الحوادث التاريخية ، على ذكر كثير من الشعراء المعاصرين وكثير من قصائدهم . وليس هناك ما يدل على تاريخ كتابة هذا الفصل ، ولكن الفصل السابق له من نفس المجموعة وعنوانه : « كتاب التعازى » يحمل فى نهايته تاريخ الفراغ من كتابته وهو جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة .

ويبدو من هذا الوصف المتقدم للمخطوطة المتقدمة ، أن المسبحى استمر فى تتبع حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة ٤١٦ هـ ، وربما استمر إلى ما قبيل وفاته فى سنة ٤٢٠ هـ . هذا وقد كتب ابن ميسر المصرى المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ذيلا لتاريخ المسبحى ، يبدأ فيه من حيث انتهى المسبحى ، وسماه « أخبار مصر » ؛ وانتهى إلينا منه قسم يبدأ فى سنة ٤٣٩ هـ وينتهى سنة ٥٥٣ هـ ، وهذا الذيل هو الذى أشار إليه صاحب كشف الظنون فيما تقدم[1].

هذا وقد كان المسبحى شاعراً رقيقاً . وله شعر جيد نقل إلينا ابن خلكان شيئاً منه ، ومن قوله يرثى أم ولده :

ألا فى سبيـــل الله قلب تقطعا ... وفادحة لم تبق للعـــين مدمعا

أصبراً وقد حل الثرى من أوده ... فـــلله هم ما أشـــد وأوجعا

فيا ليتنى للموت قد مت قبلها ... وإلا فليت الموت أذهبنـــا معا

وقوله من قصيدة يرثى بها والده :

بأبى فجعت فأى ثكل مثـــله ... ثكل الأبوة فى الشـــباب أليم

قد كنت أجزع أن يلم به الردى ... أو يعـــتريه من الزمان هموم

وقد رأينا أن المسبحى كتب فيما كتب كتاب « التلويح والتصريح فى معانى الشعر وغيره » مما يدل على أنه كان راسخ القدم فى فنون الشعر رسوخه فى النثر .

---

(١) وقد نشر هذا القسم المستشرق الفرنسى هنرى ماسيه (راجع مقدمته الفرنسية فى شرح الصلة بين الكتابين) .

الفصل الخامس

أبو عبد الله القضاعى

فقيه ومؤرخ وسياسى

توفى سنة ٤٥٤ هـ : ١٠٦٣ م

رأينا فيما تقدم أن واضعى الأسس الأولى للرواية المصرية ، هم ابن عبدالحكم المصرى ، وأبو عمر الكندى ، والحسن ابن زولاق . وقد أخذت هذه المدرسة ، التى اعتمدت فى معظم تراثها على الرواية المسندة ، تتحول منذ القرن الرابع الهجرى شيئاً فشيئاً إلى نوع من المنهج التاريخى ، الذى يتميز بخصائص الاستعياب والحوليات ، وكان الأمير عز الملك المسبحى فى مقدمة أساتذة هذه المدرسة التاريخية الجديدة .

والآن نستأنف الحديث على ضوء هذا التحول ، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية المتطورة ، هو أبو عبد الله القضاعى ، وهو مؤرخ وفقيه وسياسى معاً ، عاش فى فترة من أدق الفترات التى جازتها مصر الإسلامية ، وشهد الدولة الفاطمية فى ذروة القوة والعظمة ، ثم شهدها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها ، وشهد محنة من أشنع المحن التى عانتها مصر الإسلامية ، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته فى طلب العون والغوث ؛ وكتب عن مصر الإسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة ، لم تصل للأسف إلينا ، ولكن ما انتهى إلينا منها عن يد المؤرخين اللاحقين يدل على أهميتها وقيمتها .

وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى ؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فى عصر الحاكم بأمر الله ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الشافعى ، وبرع فيه ، وبرز فى التاريخ والأدب ؛ وبدأ حياته العامة بتولى القضاء ، ولبث يليــه حيناً بالنيابة كلما خلا منصب قاضى القضاة بالوفاة أو العزل ، ثم تولى التوقيع (أو العلامة)

لأبى القاسم الجرجرائى المعروف بالأقطع[1] وزير الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده . ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاعى فى عدة وظائف ومهام رسمية ؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للأمور . وتجول القضاعى ودرس فى بغداد ومكة والشام ، ووقف على أحوال الدول الإسلامية يومئذ ، ومجرى السياسة فى القصور المختلفة ، وتبوأ فى البلاط المصرى ذروة الثقة والنفوذ . ثم جاء ظرف عُهد فيه إلى القضاعى بمهمة سياسية دقيقة . ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التى توالت على مصر فى عهد المستنصر بالله ، لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط ؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر الإسلامية « بالشدة العظمى » . وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات ، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة ، فأرسل المستنصر بالله فى سنة ٤٤٦ هـ إلى إمبراطور قسطنطينية ، وهو يومئذ قسطنطين السابع ، أن يمده بالغلال والمؤن ؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا فى آسيا الصغرى ؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر ، التى كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر ؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر ، وتم الاتفاق على أن تُرسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر ، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال ، تقدرها الرواية الإسلامية بأربعمائة ألف أردب[2]. ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، وخلفته على عرش قسطنطينية الإمبراطورة تيودورا ، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر ، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة ؛ فانقطعت المفاوضات بن الفريقين ، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية ، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذى بدء . ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام ، وهزم المصريين فى عدة مواقع ؛ فكف المستنصر من متابعة الحرب ، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة ،

(١) سمى كذلك لأنه كان أقطع اليدين ، قطعاً بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ .

(٢) خطط المقريزى . بولاق . ج ١ ص ٣٣٥ .

وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح ،وتنظيم العلائق بين الفريقين .

وكان ذلك السفير المصرى إلى بلاط القياصرة ، هو أبو عبد الله القضاعى الذى يحبوه المستنصر بثقته وتقديره . فقصد القضاعى إلى بيزنطية عن طريق الشام ؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ فى عصر الإمبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الإمبراطورة تيودورا . وهذا مايذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول : « وفيها سير المستنصر ، فقبض على جميع ما فى كنيسة القمامة[1] ؛ وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية ، فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك ؛ فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم ؛ فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة ؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم »[2]. بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعى إليها لم يكن الإمبراطورة تيودورا ، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا الإمبراطور ميخائيل السادس (ستراتيوتيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ فقد نقل المقريزى فى كتابه « المقفى » فى ترجمة القضاعى ما يأتى : « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى ، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى يقول : لما دخلت على ملك الروم إليون ، رسولا من قبل المستنصر بالله ، وأحضرت المائدة ، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات ؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى ، ففعل ؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع ؛ فقلت أنا والله مستكف ؛ فقال لى لم أكلت الفتات ؟ فقلت : بلغنى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التقط ما سقط من المائدة برئ من الحمق والفقر ؛

(١) هى كنيسة بيت المقدس العظمى التى تعرف عند النصارى « بالقبر المقدس » أو قبر المسيح .

(٢) ابن ميسر فى « أخبار مصر » فى حوادث سنة ٤٧٧ هـ – وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٥.

فأمر الخازن فى الحال بإحضار ألف دينار وإعطائها ؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغنيت وبريت من الحمق »[1] ؛ وذكر المقريزى فى الخطط أيضاً ما يؤيد هذه الرواية[2] . على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعى وصل إلى قسطنطينية فى أواخر عهد الإمبراطورة تيودورا ؛ واستمر فى أداء مهمته بعد وفاتها لدى الإمبراطور ميخائيل السادس ؛ ومكث حيناً بقسطنطينية ؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعى بعاصمة القياصرة أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها[3] . أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الإسلامية تحديداً واضحاً ، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث ، أنها كانت تقوم على السعى فى إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر ضد السلاچقة ، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن ، تنفيذاً للعهود التى قطعها قسطنطين السابع للمستنصر ، وتوفى قبل الوفاء بها .

ولكن القضاعى أخفق فى مهمته . ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاچقة ، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر ، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك ؛ وبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر. فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية كرة أخرى ؛ وعاد القضاعى إلى مصر على أثر هذا الفشل . ونستطيع أن نضع تاريخ عودته فى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعنى بعد أن أنفق أكثر من عامين فى رحلته . ثم توفى القضاعى بعد ذلك ببضعة أعوام ، فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤ (١٠٦٣ م) .

— ٢ —

كتب القضاعى عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ ، منها كتاب « الشهاب » وكتاب « مناقب الإمام الشافعى وأخباره » وكتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ؛

---

(١) نقل ترجمة القضاعى هذه من القطعة المحفوظة بمكتبة ليدن من كتاب « المقفى » المستشرق كينج فى مقدمته للجزء الذى نشره من كتاب « تسمية أمراء مصر » للكندى (ص ٢٢ و ٢٣) .

(٢) راجع الخطط ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة القضاعى — ج ٣ ص ٦٣ .

وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو « مسند الصحاب » وهما فى الحديث ، وكلاهما بمكتبة الإسكوريال[١] ؛ وانتهى إلينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه فى مقدمته « موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء ، وولايات الملوك والخلفاء ، إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية[٢] ، ولكنا نرتاب فى أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاعى » وهو الذى يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما إسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار إليها .

بيد أن أهم آثار القضاعى هو بلا ريب كتابه الشهير فى الخطط ، وهو المسمى « المختار فى ذكر الخطط والآثار » . ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت إلينا منه ، على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندى ، والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، والسيوطى ، شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاعى فى الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التى نزلت بمصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً فى معظم معالمها وصروحها ، وهى حقيقة ينوه بها المقريزى فى مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاعى « المختار » ضمن مصادره ثم يقول : « ومات (أى القضاعى) فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة[٣] قبل سنى الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع »[٤] والظاهر مما نُقل إلينا من كتاب القضاعى أنه أثر ضخم ، تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الإسلامى بإفاضة ، وأضاف إليه ما انتهت إليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس . والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار »

---

(١) راجع فهرس مخطوطات الإسكوريال للأستاذ ليفى بروفنسال (ج ٢ رقم ٧٣٦ و ٧٦٧ (كتاب الشهاب) ورقم ٧٥٢ (مسند الشهاب) .

(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقم (١٧٧٩ تاريخ) .

(٣) وهى رواية خاطئة ، لأن القضاعى توفى سنة ٤٥٤ هكما قدمنا

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥ .

إنما هو المنعوت « بتاريخ القضاعى » لأن ما نقل إلينا منه من الشذور يمتاز بإفاضة واضحة ، ولا وجود له فى الموجز المسمى « عيون المعارف » .

وقد كان القضاعى ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويمحصها ، وكانت روايته عن مصر الإسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ؛ وما زالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصرى حتى أواخر القرن التاسع ، حيث نرى السيوطى ينقل فى حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاعى مكتوباً بخطه[1] ، وفى ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب المنعوت « بتاريخ القضاعى » إنما هو كتاب « المختار فى الخطط والآثار » ؛ ومن بواعث الأسف أن يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصرى ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمى الأول ، الذى احتجت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتى غدت كالحلقة المفقودة فى مصادر تاريخ مصر الإسلامية[2] .

(١) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠ .

(٢) راجع فى ترجمة القضاعى : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ — والسبكى (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ — والمقريزى فى المقفى (مقدمة كتاب الولاة طبعة كينج ص ٢٢ و٢٣) وفى الخطط ج ١ ص ٥ و ٣٥٥ — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ — وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنتى ٤٤٧ و ٤٥٤ .

الكتاب الثاني

المؤرخون المصريون

في العصر المملوكي حتى العصر الحديث

الفصل الأول

شهاب الدين النُّويرى

وموسوعته نهاية الأرب

حوالى (٦٦٠ — ٧٣٢ هـ) : (١٢٦٢ — ١٣٣٢ م)

كان النويرى الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل رأس هذه المدرسة ، وأول هذا الثبت من كتاب الموسوعات المصرية . وهو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد المعروف بالنُّويرى ، ولم نعثر على تاريخ مولده . ولكن الظاهر أنه ولد حوالى سنة ٦٦٠ هـ وتوفى سنة ٧٣٢هـ أو ٧٣٣ هـ[١] (١٣٣٣م) . ودرس النويرى بالقاهرة وأزهرها ، والظاهر أنه تخصص نوعاً فى دراسة الحديث والتاريخ والأدب ، واشتغل فى شبابه مدى حين بنسخ الكتب الجليلة ، وكان أنيق الخط ، يكتب النسخة من صحيح البخارى ويبيعها بألف دينار[٢] . وظهر النويرى بكفاياته الأدبية واتصل ببلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية (٦٩٣ — ٧٠٨ هـ) ثم الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ) ونال عطفه وحظوته ، وتقلب فى عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعاً كفايته وتفوقه . ويعدد النويرى لنا بعض هذه الوظائف فى مقدمته . فيقول إنه مارس الكتابة وبسط الخرائد ، وتولى أعمال الحسبة ، والمقايسات ، والمحاسبة والتحصيلات ، والنظر على الغلات والاعتصار ، والعلوفات والمبيعات وغيرها[٣] . ويقول لنا ابن حجر فى « الدرر الكامنة » إن الملك الناصر وكل النويرى فى بعض أموره ، وإنه باشر نظر الجيش

---

(١) يقول بالرواية الأولى ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى (مخطوط) . ويقول بالثانية ابن حجر فى « الدرر الكامنة » (طبعة حيدر أباد ١٣٢٦ هـ) (ج ١ ص ١٩٧) ؛ ويقول السيوطى إنه توفى سنة ٧٣٠ ، وهو خطأ ظاهر لأن النويرى يصل فى تاريخه إلى سنة ٧٣١ حسبما تبين بعد .

(٢) ابن حجر فى الدرر الكامنة .

(٣) نهاية الأرب (طبع دار الكتب) ج ١ ص ٣ .

بطرابلس وهى وظيفة عسكرية هامة . ولا ريب أن هذا المزج والتباين فى نواحى الحياة الأدبية والعملية معاً كان له أثر كبير فى تكوين النويرى وتوسيع معارفه العامة وثقافته النظامية والإدارية والمالية ، التى يبرهن على متانتها فى مواضع كثيرة من موسوعته .

ثم عاف النويرى هذه الحياة الإدارية الجافة ، فنبذها وتطلع إلى الأدب والانقطاع له . وعكف على الدرس والمطالعة الواسعة حتى ارتوى من مناهلها . وخطرت له عندئذ فكرة إخراج موسوعته الضخمة . ويحدثنا النويرى فى مقدمته عن نشأة مشروعه فيقول : « فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث ذل لى مركبها وصفا لى مشربها ، آثرت أن أجرد منها كتاباً أستأنس به وأرجع إليه ، وأعول فيما يعرض لى من المهمات عليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب بينة التقسيم والتبويب » .

ونستطيع أن نضع الفترة التى شغلها النويرى بالدرس والتنقيب ما بين سنة ٧١٠ و ٧٢٠ هـ . والظاهر أنه قطع حياته فى الوظائف العامة فى الأعوام العشرة التى سبقت هذه الفترة ، أعنى فى عهد سلطنة الملك الناصر الثانية ، ثم انقطع إلى البحث والدرس بعد ذلك . وعلى أى حال فقد أخرج لنا النويرى أول جزء من موسوعته الكبرى فى ذى القعدة سنة ٧٢١ هـ حسبما يقرر ذلك فى خاتمة هذا الجزء[١] . ولكن يبدو أيضاً من نظام هذا المؤلف الضخم وتبويبه ، أن النويرى قد وضع تصميمه وهيكله جميعاً قبل أن يبدأ فى كتابته ، وأنه استوعب من قبل جميع مواده ومراجعه . ومن المحقق أن النويرى اعتمد فى مجهوده على مادة غزيرة من المراجع فى جميع فنون الأدب العربى . ذلك أن ما يقدمه إلينا النويرى فى ثوب « كتاب يستأنس به ويرجع إليه » إنما هو موسوعة ضخمة جمعت طائفة عظيمة من المواد والمعارف الأدبية والتاريخية الحافلة ، التى لم يجمعها من قبل ولا من بعد كتاب فى الأدب العربى .

والآن لنر ماذا تحتويه تلك الموسوعة المدهشة ، التى شغلت حياة أدبية حافلة بأسرها . ويسمى النويرى موسوعته : « نهاية الأرب فى فنون الأدب » وهو

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٤٠٠ المنقولة عن إحدى نسخ استانبول .

بذلك يعطيها طابعها الأدبى . فالنويرى لم يعالج فى موسوعته إلا ما كان « الأدب » يسيغه ، ولكن بأوسع المعانى . فالأدب المحض ، والتاريخ والجغرافية ، والسياسة الملكية ، والبيان والبديع ، والأمثال والأوصاف ، مما يفيض فيه النويرى ، ولكنه لا يتناول الكلام على المواد العلمية المحضة مثل الطب والرياضة والكيمياء وغيرها ، وإذا كان يفيض فى الكلام على فروع يطبعها الطابع العلمى مثل أنواع الحيوان والنبات ، فإنه يعالجها من الناحية الوصفية والأدبية أيضاً . وتشغل موسوعة « نهاية الأرب » واحداً وثلاثين مجلداً ضخماً كل مجلد يشغل جزئين . ونستطيع أن نتصور من تأمل هذا القدر ، أى مجهود شاق اضطلع به النويرى واستطاع أن يخرجه بمفرده .

وقد وضع النويرى لموسوعته تصميماً روائياً مدهشاً يقوم على خمسة « فنون »، وكل فن ينقسم إلى خمسة أقسام ، وكل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب . وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين : الأولى تشمل من الفن الأول إلى الفن الرابع ، وتشغل عشرة مجلدات من الطبعة التى أصدرتها دار الكتب ، وتشتمل المجموعة الثانية على الفن الخامس فقط ، وتشغل واحداً وعشرين مجلداً . وهذا بيان الفنون الأربعة الأولى :

الأول — فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والعوالم السفلية . وهذا القسم جغرافى ويتناول الكلام على خلق السماء والملائكة والكواكب ، والظواهر الطبيعية ، من سحاب ومطر ورعد وبرق وغيرها ، ثم الليالى والأيام والشهور والأعياد والمواسم ، ثم الكلام عن الأرض والجبال والبحار والأنهر ، وطبائع البلاد والسكان والمبانى والآثار وغيرها .

الثانى — وعنوانه الإنسان وما يتعلق به — يتناول الكلام على الإنسان وخلقته وأعضائه ، وعن النساء وخلالهن وما ورد فيهن من المديح والغزل ، ثم الكلام على الصور الوصفية من مدح وهجاء ومجون ، ومن النوادر والملح ، والكلام عن القيان والندماء والسقاة ، وعن الغناء وأخبار المغنيين . ويتبع هذا الفن أيضاً الكلام على الملك والسياسة الملكية ، وشروط الإمامة . والخلال التى يجب أن

---

(١) مرجعنا فى هذا الوصف نسخة دار الكتب الفتوغرافية المنقولة عن إحدى نسخ استانبول .

يتحلى بها الملوك والوزراء والقادة وغيرهم ، ثم القضاء والحسبة وغيرهما ، من الوظائف العامة ، وعن الكتابة وشروطها وما يتعلق بها من علم المعانى ، والبيان والبديع .

الثالث — وعنوانه الحيوان الصامت — يتناول الكلام على الحيوانات الضارية والأنيسة ، وأوصافها وعاداتها ، ثم على الهوام ، ثم الطيور وأنواعها من برية وداجنة ، ثم الأسماك والحشرات بأنواعها .

الرابع — النبات ، وفيه يتحدث المؤلف عن الشجر والنبات وأنواعها وثمارها ، وعن الفواكه والأزهار ، ثم أنواع الطيب والعطور وكل ما يتعلق بها .

وفى الفن الخامس وهو التاريخ ينقلب النويرى مؤرخاً عظيماً . والواقع أن هذا الفن الذى يشمل واحداً وعشرين مجلداً بأكملها ، هو قوام هذه الموسوعة العظيمة ، وقد وصف المعاصرون بحق « نهاية الأرب » بأنه « تاريخ »، ووُضع النويرى دائماً بين المؤرخين . ولم يسبق النويرى من المؤرخين المسلمين إلى وضع موسوعة تاريخية بهذه الضخامة سوى قلائل جداً ، مثل ابن عساكر والذهبى وابن الأثير . ويرجع النويرى فى كتابة التاريخ إلى أصل الخليقة ، ويخصص له ولأخبار الأنبياء نحو مجلدين ، ثم يبدأ بالكلام على تاريخ اليهود وأنبياء اليهودية ، ويخص تاريخ سليمان وقصصه بإفاضة ممتعة ، ثم يتناول تاريخ المسيح ونشأة النصرانية . وبعدئذ يبدأ حديثه عن التاريخ القديم بالإسكندر المقدونى وتاريخ مصر الغابرة ، ثم تاريخ الفرس القديم ، ومن المحقق أن النويرى لم يخرج فى ذلك عما كتبه الأوائل من الأساطير والقصص المتداولة ، ولكنه يبدى فى استيعابها جلداً مدهشاً . ومنذ أواخر المجلد الثالث عشر يبدأ النويرى تاريخ العرب قبل الإسلام وأيام العرب ووقائعها ، ثم تاريخ الإسلام والنبى العربى ، أو تاريخ الملة الإسلامية كما يسميه ، منذ الرسالة النبوية ، وأخبار النبى ، وخصومة قريش ثم الغزوات النبوية وأخبار الوفود ، وأخبار الصحابة والموالى ، ومآثر النبى وآثاره . ويشغل هذا القسم وحده ثلاثة مجلدات كبيرة . ويلى ذلك تاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ على وخصومته مع معاوية بإسهاب . ثم أخبار الدول الإسلامية مبتدئاً بالدولة الأموية منذ المجلد الثامن عشر ، وتشغل أخبار الدولة

الأموية مجلدين كبيرين ، ثم تليها الدولة العباسية منذ قيامها إلى خلافة المستظهر وتشغل أيضاً نحو مجلدين . ويخصص النويرى لتاريخ الدولة الأموية بالأندلس قسماً كبيراً (هو الجزء الثانى من المجلد الحادى والعشرين) . وبعدئذ يأتى تاريخ إفريقية منذ فتحها حتى نهاية الأغالبة ، والدول البربرية المختلفة حتى المرابطين والموحدين . ويبدى النويرى اهتماماً خاصاً بتاريخ الشيعة منذ أيام على وبنيه ، ويتحدث عن مختلف الدعوات الشيعية فى فارس وخراسان ، وعن فورة القرامطة وتاريخهم بإسهاب (المجلد الثالث والعشرون) ثم تاريخ الأمم الإسلامية فيما وراء النهرين وتاريخ السلاجقة ، وما تفرع من دويلاتهم فى الجزيرة وآسيا الصغرى والشام (المجلدان ٢٤ و ٢٥) ثم تاريخ الدولة الفاطمية (مجلد ٢٦) والدولة الأيوبية (مجلد ٢٧) وتاريخ الشام والصليبيين (مجلد ٢٩) ثم تاريخ مصر منذ دول المماليك مرتباً بالسنين حتى سنة ٧٣١هـ . وهذا هوختام الموسوعة حسبما انتهت إلينا . والظاهر أن النويرى كان يقيد حوادث عصره تباعاً ، وأنه كان ينوى متابعة الكتابة ، لولا أن عاجله الموت ، بدليل ما ورد فى ختام المجلد الحادى والثلاثين من الإشارة إلى المجلد القادم وأوله حوادث ٧٣٢ ، وقد توفى النويرى فى رمضان من هذا العام أو رمضان من العام التالى أى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) .

هذه هى محتويات نهاية الأرب ، وفى جمعها فى صعيد واحد ، وفى تنظيمها على هذا النحو ، ما يشهد بكثير من البراعة والجلد . ومن المحقق أن مجهود النويرى يقوم بالأخص على النقل من المراجع والأسفار المتقدمة . ولكن هذا المجهود يطبعه فن خاص لا شك فى قيمته ونفاسته . ومن المحقق أيضاً أن موسوعة النويرى التاريخية تتبوأ بين المراجع التاريخية الكبرى مقاماً رفيعاً ، وإن لم يظهر منها حتى اليوم سوى القليل . وقد اهتم البحث الأوربى منذ بعيد بمجهود النويرى التاريخى ونشرت بعض أبوابه ، وترجمت إلى اللاتينية والفرنسية ، وبالأخص تاريخ صقلية وإفريقية .

ومن الواضح أن التاريخ يشغل فى موسوعة النويرى ، أكبر أقسامها ، فإن الفنون الأربعة الأولى منها لا تشغل فيها سوى ثلاثة عشر مجلداً من واحد وثلاثين مجلداً من المخطوط (وهى تقابل فى المطبوع اثنى عشر مجلداً) . فإذا راعينا هذه الحقيقة المادية ، وراعينا فى نفس الوقت ، ما يبدو فى تقاسيم النويرى للقسم

التاريخى فى موسوعته ، من براعته فى التنظيم والتبويب ، ثم من سلاسته فى العرض التاريخى ، فإنه يحق لنا أن نعتبر النويرى مؤرخاً قبل كل شىء . وإذا كان النويرى لم يخص مصر بمجهوده التاريخى ، على نحو ما فعل المقريزى وابن تغرى بردى ، فإنه يفرد لتاريخها حيزاً كبيراً يشغل أربعة مجلدات ، أولها يشمل تاريخ الدولة الفاطمية ، والثانى يشمل تاريخ الدولة الأيوبية ، والثالث يشمل تاريخ الشام والصليبيين ، والرابع يشمل تاريخ الدول المملوكية حتى عصره ، مرتباً بحسب السنين . وهو يورد لنا خلال سرده ، كثيراً من الروايات التى لم ترد فى مصادر أخرى .

وقد انتفع البحث الحديث بمجهود النويرى التاريخى ، منذ عصر مبكر ، فترجمت منه منذ القرن الثامن عشر ، فصول إلى اللاتينية والفرنسية حسبما قدمنا ، واستقى من روايته مؤرخون عظام مثل جيبون . ونشر القسم المتعلق بتاريخ المرابطين والموحدين فى نهاية الأرب ، المستشرق الإسبانى جسبار ريميرو منذ سنة ١٩١٩ .(١) وبدأت دار الكتب المصرية بنشر نهاية الأرب كاملا منذ سنة ١٩٢٩ ، وصدر منه إلى اليوم ، أعنى خلال أربعين عاماً ثمانية عشر مجلداً ، صدر آخرها فى سنة ١٩٥٥ . وقد بدئ بقسم التاريخ ، أو الفن الخامس فى هذه الطبعة منذ المجلد الثالث عشر ، واستغرق تاريخ أصل الخليقة ، وأخبار الأنبياء الأقدمين ، وتاريخ النصرانية ، والتاريخ القديم ، ثم تاريخ العرب قبل الإسلام وأيام العرب ووقائعها ، وتاريخ الملة الإسلامية حتى أخبار الوفود على الرسول . استغرق ذلك حتى اليوم خمسة مجلدات حتى المجلد الثامن عشر ، ومازال على دار الكتب أن تخرج لنا بقية هذه الموسوعة العظيمة ، وهى قد تستغرق خمسة عشر مجلداً أخرى . ورجاؤنا أن يتم ذلك بأسرع ما يستطاع ، لكى تأخذ هذه الموسوعة المصرية العظيمة مكانتها الحقة ، بين المراجع الجليلة المتداولة فى ميدان الأدب العربى والتاريخ الإسلامى .

---

(١) نشر هذا القسم ضمن اعداد مجلة **Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino (Tomo VIII—ano 1919)**

الفصل الثانى

ابن فضل الله العمرى
وموسوعته مسالك الأبصار
(٧٠٠ – ٧٤٩ هـ) : (١٣٠٠ – ١٣٤٨ م)

فى سنة ١٩٢٤ أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم ، هو كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، وذلك بإشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكى باشا وبتحقيقه . ثم وقف مشروع إخراج الكتاب فى مستهله لأسباب نجهلها ، وقد وعدت دار الكتب غير مرة بأنها سوف تعمل على استئناف العمل فى إخراج « مسالك الأبصار » ولكنها لم تفعل حتى اليوم شيئاً فى ذلك السبيل .

وهو أمر يدعو إلى أشد الأسف . ذلك أن « مسالك الأبصار » من الآثار الإسلامية الضخمة ، التى تمتاز بغزارة مادتها ، وتنوع موضوعاتها ونفاسة معلوماتها ؛ وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة ، التى كتبت فى عصور متقاربة ، وامتازت على جميع الآثار الإسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها ؛ وهى : نهاية الأرب للنويرى ، ومسالك الأبصار ، وصبح الأعشى للقلقشندى . وقد أخرجت لنا دار الكتب « صبح الأعشى » كاملا فى أربعة عشر مجلداً ، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو نصفه فى ثمانية عشر مجلداً ، وما زالت ماضية فى إخراجه ، وبقى عليها أن تستأنف العمل فى ثالثة هذه الموسوعات الكبرى ، ونعنى « مسالك الأبصار » .

كان القرن الثامن الهجرى فى مصر ، عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة ؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة فى الأدب العربى مصرية محضة ، فقد بلغت ذروتها على الأقل فى مصر ، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها ، وكان شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى حسبما قدمنا هو أول كتاب الموسوعات ، ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (٦٦٠ – ٧٣٢ هـ) ، وقد

وضع لنا موسوعته الفريدة « نهاية الأرب فى فنون الأدب » فى أوائل القرن الثامن الهجرى فى أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً ، فجاءت أثراً ضخماً ، لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل ، فى غزارة المادة وتنوع الموضوعات ، وطرافة الأوضاع ؛ ثم تلاه العمرى فوضع موسوعة « مسالك الأبصار » ؛ وجاء القلقشندى ليختتم هذا الثبت فى أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته « صبح الأعشى » .

كان العمرى دمشقى المولد ، ولكن مصرى التربية والموطن والتكوين ؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى ، وينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ومن ثم كان تلقيبه بالعمرى . ولد فى ثالث شوال سنة سبعمائة (١٣٠٠ م) ، وتلقى تربيته الأولى فى دمشق ؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها ، واتخذها وطناً وموئلا ، ومال إلى التخصص فى علوم الفقه واللغة ، وبرع بالأخص فى الكتابة والإنشاء ، وتقلد فى البلاط القاهرى عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى ولايته الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الإنشاء والرسائل ، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوضاع البديعة ، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور .

وقد كان ديوان الإنشاء من أهم الدواوين فى الدول الإسلامية ، ولاسيما فى الدول المصرية . ويمكننا أن نقارنه فى أعماله واختصاصاته بوزارة الخارجية الحديثة . ذلك أنه كان إلى جانب عنايته بأمر المراسيم السلطانية ، مجمع العلائق والمخاطبات السلطانية ، ومرجع العلائق والمكاتبات الدبلوماسية . وفى هذا الديوان نشأت نظم « البروتوكول » وتقاليده فى الدول الإسلامية ، وزادت أهميته ، واتسعت اختصاصاته ، منذ الحروب الصليبية ، وبلغت هذه النظم والتقاليد فى دول السلاطين المصرية أوج الدقة والفخامة ، وقد كان للعمرى فى تجديدها وصقلها دور هام سوف نتحدث عنه فيما بعد .

ولبث العمرى إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة ، رجل البحث والدرس ؛ وعنى عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك وطبائعها وخواصها ؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها ، ولا سيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين . ودرس الفلك أيضاً ، ولم يكتف

فى درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة ، ولكنه قرن الدرس النظرى بنوع من الدراسة العملية ، فتجول فى أنحاء الشأم والأناضول والحجاز ، وبعض الممالك الإسلامية الأخرى ، حسبما يبدو ذلك فى أكثر من موضع من سياق موسوعته ، وحسبما يشير إجمالا فى مقدمته[١] . واستعان فى تعرف أحوال الأمم والممالك التى لم تتح له زيارتها ، بأقوال العارفين والثقاة ، ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة ، حتى اجتمعت له من ذلك مادة غزيرة تمتاز فى كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها .

وقد تبوأ العمرى إمامة البلاغة والبيان والترسل فى عصره ، حتى أن الصفدى معاصره وصديقه يفضله فى هذا الفن على القاضى الفاضل ، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية فى تلك العبارات : « يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً يخجل الروض الذى باكره الحيا مزهراً ، صرف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهى سجلات لحكمه وحكمه ، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه » . ثم يصفه الصفدى بعد ذلك بالأديب « الكامل » وينوه بقوة ذاكرته ، وحسن ذوقه ، ويقول لنا إنه ، أى العمرى ، كان آية فى النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك ، وأنه « لم ير من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيزخان معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفته الممالك والمسالك ، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فإنه فيها أمام وقته »[٢] .

ولأقوال الصفدى ، وهو إمام النقد فى عصره ، قيمتها فى التنويه بخلال

---

(١) راجع الجزء الأول من « مسالك الأبصار » (طبع دار الكتب) ص ٢ .

(٢) راجع ترجمة العمرى فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (ج ١ ص ٧ و ٨ و ٩) وقد نقلها جميعا من معجم الصفدى « أعيان النصر وأعوان العصر » وهو ما يزال مخطوطا .

العمرى الأدبية ، والعلمية الفائقة . بيد أن تراث العمرى نفسه ما زال خير شاهد بعبقريته ، ولا سيما فى فن الإنشاء والترسل ، وقد كان العمرى فوق ذلك شاعراً مجيداً ؛ ومن رقيق شعره قوله :

أأحبابنا والعـذر منا إليـكمو	إذا ما شـغلنا بالنوى أن نودعا
ابشـكموا شوقاً أبارى ببعضـه	حمـام العشايا رنـة وتوجعـا
أبيت سمـير البرق قلبى مثـله	أقضى به الليـل التمـام مروعا
وما هو شوق مدة ثم ينقـضى	ولا أنه يلقى محبـاً مفجعـا
ولكنه شوق على القرب والنوى	أغص الأماقى مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب فى العمر ساعة	كمن فارق الأحباب فى العمر أجمعا

وقطع العمرى حياة قصيرة ولكن باهرة ؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة ، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب ، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده ؛ ثم توفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) دون أن يبلغ الخمسين .

— ٢ —

ترك لنا العمرى تراثاً حافلا ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه ، منه موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » و « الدعوة المستجابة » و « صبابة المشتاق » وهو فى المدائح النبوية و « سفرة السفرة » و « دمعة الباكى » و« يقظة الساهر » و « نفحة الروض » وكلها من كتب الأدب والبيان ، وكتاب « فواضل السمر فى فضائل آل عمر » وكتاب « الشتويات » وهو رسائل فى الشتاء و « النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية ، وسنعود إليه ؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير[1].

وقد انتهى إلينا من هذا التراث أهمه وأنفسه ؛ فلدينا أولا كتاب « مسالك الأبصار » وهو أهم آثار العمرى وأضخمها ؛ وهو فى الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً[2]. ويقول لنا العمرى إنه أثر الحياة وإنه « قطع فيه عمر

---

(١) فوات الوفيات — ج ١ ص ٨ .

(٢) فى دار الكتب نسخة فتوغرافية كاملة لمسالك الأبصار (رقم ٥٦٨ تاريخ) وتقع فى ٤٣ مجلداً أو قسما ، والفضل يرجع فى استنساخها لدار الكتب إلى المرحوم العلامة أحمد زكى باشا .

الأيام والليالى » وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر ، وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠ هـ ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه ، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١ هـ أعنى قبل وفاة الناصر [١]، بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣ هـ .

ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه العظيم النويرى صاحب موسوعة « نهاية الأرب » وهى أول موسوعة من نوعها . غير أنه ينحو فى تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر ؛ وبينما يسبغ النويرى على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية ، إذا بالعمرى يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية ، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين : الأول : « فى الأرض » والثانى فى « سكان الأرض » . ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً ، وهو نوعان كبيران : المسالك والممالك ، ويدخل فى النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها ، وما تحتويه من أنهار وجبال ، ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهى أساس الجغرافية القديمة ، وما فيها من المدن والجزائر ، وما يؤثر عنها من العجائب ، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والأعراض الطبيعية ؛ ويدخل فى القسم الثانى الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ ، مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ، ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن ، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس ، وفيه بيانات إضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها ؛ ويبدى العمرى هنا دقة فى البحث والتحرى ، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره ، كلما شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروى. ويختم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين فى عصره ، وأماكن وجودهم ولا سيما فى مصر ، وهو فصل له قيمته فى تعرف الأصول والأنساب . ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات .

ويتناول القسم الثانى الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم ، وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء فى الشرق والغرب ، ثم الكلام على الأديان

---

(١) راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٦ .

والنحل المختلفة ؛ وبعدئذ يجئ الكلام على التاريخ ، وهو قسمان ، تاريخ الدول التى كانت قبل الإسلام ، ثم تاريخ الدول التى قامت بعد الإسلام حتى عصر المؤلف ، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣ هـ أعنى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام .

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب « مسالك الأبصار » سوى الجزء الأول كما قدمنا ؛ غير أنه قد نشرت منه بعض فصول ونبذ متفرقة ، منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه « كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر » نشره المستشرق أمارى (سنة ١٨٨٣) مقروناً بترجمة إيطالية ، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ، ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الإيطالية ، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وينسب العمرى ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالى يدعى « بلبان الجنوى » عرفه فى بعض رحلاته واستقى منه معلوماته ، وهى معلومات فى منتهى الدقة ، ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الإيطالية فى ذلك العصر[1]. وعنى العلامة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف إفريقية والأندلس ، ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول .

— ٣ —

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمرى أثر ذو أهمية خاصة ، هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » . وقد كان العمرى كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الإنشاء والرسائل ، وقد استحدث فى هذا الديوان كثيراً من الأساليب والأوضاع الجديدة ، سواء فى توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغتها ؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الإنشاء كان فى تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية ، فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الموظفين ؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التى ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية ، وإذاً فقد كان اختصاصه يتناول

(١) وقد نشرنا هذا الفصل فى كتابنا « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » (الطبعة الثانية) ص ١٥٨ — ١٦٣ .

ما يسمى اليوم فى لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » ، وهى عبارة عن الرسوم والإجراءات التى تجرى عليها الدولة فى تنظيم علائقها الخارجية ، سواء فى إجراء المفاوضات السياسية ، أو فى عقد المعاهدات ، أو مخاطبة الدول الأخرى ، أو استقبال ممثليها ومعاملتهم ، أو فى تحرير المكاتبات الدبلوماسية ، وكانت مجموعة الرسوم والإجراءات التى تجرى عليها دول السلاطين المصرية فى هذا الميدان تعرف « بالمصطلح الشريف » أو هى تكون جزءاً منه لأن « المصطلح الشريف » ، كان يشتمل أيضاً ، فضلا عن رسوم العهود والمفاوضات ورتب المكاتبات السلطانية الداخلية والخارجية ، على إجراءات إصدار المناشير والتوقيعات . وإذاً فالمصطلح الشريف فى الدول الإسلامية ، يقابل فى عصرنا نظم البروتوكول تقريباً ، ولو أنه أوسع مدى . وكان لهذه النظم فى البلاط المصرى فى العصور الوسطى ، أصول وتقاليد راسخة ، تثير الدهشة ، والإعجاب معاً ، بدقتها وروعة تنسيقها . ويكفى أن نستعرض طرفاً من الحادثات والمراسلات الدبلوماسية التى كانت تجرى بين البلاط المصرى ، وبين مختلف الدول النصرانية[1] ، لنرى إلى أى حد كان البلاط المصرى عليما بنظم هذه الدول ، وتقلباتها السياسية ، وسير علائقها الدبلوماسية . وكانت هذه الدول عديدة ، منذ الدولة البيزنطية إلى الدول والإمارات الإيطالية ، ثم الدول الغربية الأخرى التى ازدادت مصر بها معرفة واتصالا منذ الحروب الصليبية ، مثل فرنسا وألمانيا وانجلترا وأراجون . وكان البلاط المصرى يتتبع شئون هذه الدول وأحوالها بمنتهى العناية ، ولها فى قلم «المصطلح الشريف » بديوان الإنشاء ، ملفات ووثائق خاصة . وقد كان للعمرى أكبر الفضل فى تجديد هذه النظم أيام توليه ديوان الإنشاء ، وعلى يده بلغت ذروتها من الافتنان والتناسق والدقة ، وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمرى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف »[2] وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير ، وكذلك نماذج عديدة من الوثائق

---

(١) أورد لنا القلقشندى فى موسوعته « صبح الأعشى » عشرات من هذه الرسائل التى تلقتها مصر من رؤساء الدول النصرانية ، والتى بعثت بها إليهم ، ويراجع فى ذلك بالأخص الجزء الثامن من صبح الأعشى .

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال تحفظ برقم ١٦٣٩ الغزيرى ، وهى مكتوبة =

والمكاتبات الرسمية والدبلوماسية ؛ ثم يتحدث عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الإدارية ، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلة البحرية . ويعتبر كتاب العمرى دستور المصطلح الشريف فى مصر الإسلامية ؛ ويعتبره القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب[1] . وقد انتفع به القلقشندى فى موسوعته أعظم انتفاع ، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل ، والمكاتبات السلطانية التى دبجت بقلم العمرى ، فى ظروف ومناسبات مختلفة ، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمرى من المواهب الإنشائية السامية .

وللعمرى آثار ورسائل أخرى كما قدمنا ، ولكن معظمها لم يصل إلينا ، وما يزال بعضها بعيداً عن التداول فى بعض المكتبات الأوربية . على أن « مسالك الأبصار » يبقى دائماً أعظم آثاره ؛ ورجاؤنا أن تعمل دار الكتب المصرية لإخراجه بهمة مضاعفة فلا تمضى أعوام قلائل حتى تضعه كاملا بين أيدى الباحثين[2] .

= بخط نسخ جميل يميل إلى الفارسى ، ومذهبة الحواشى وتقع فى ٢٤١ لوحة مزدوجة من القطع الصغير . وقد طبع « التعريف » مرارا بمدينة القاهرة .

(١) راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٧ .

(٢) نشرت من مسالك الأبصار – غير الجزء الأول – بعض أجزاء صغيرة ، من ذلك القسم الخاص بوصف إفريقية والأندلس نشر بعناية العلامة التونسى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بعنوان « وصف إفريقية والأندلس فى أواسط القرن الثامن للهجرة ، ونشر أحد المستشرقين الألمان ما ورد فيه خاصا « بوصف الأناضول » .

الفصل الثالث

أبو العباس القلقشـــندى

وموسوعته صبح الأعشى

(٧٥٦ – ٨٢١ هـ) : (١٣٥٥ – ١٤١٨ م)

بلغت الحياة الفكرية والأدبية فى مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين . فنى هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب ، وفيهما تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير ، حامى الآداب والعلوم . ويمتاز القرن الثامن فى مصر ، بظاهرة فكرية خاصة ، هى أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى . فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء الذين توفروا على جمع أشتات العلوم والفنون المعروفة يومئذ ، فى مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل ، وكتبت فيه عدة موسوعات جليلة ، ما زالت تتبوأ مقامها الفذ فى تراث الأدب العربى ، وأقطاب هذه الحركة ، ثلاثة من أكابر العلماء والكتاب المصريين ، هم أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) صاحب كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وأحمد بن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، صاحب كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، وأبو العباس القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) صاحب كتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشاء »[١] .

وإنه لمن التجاوز والمتواضع أن نسمى هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهى فى الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها ، ومن الصعب أن نصف مؤلفيها بأنهم كتاب أو أدباء من نوع معين ، فهم فى الواقع علماء موسوعات (إنسيكلوبيديون) ، امتازوا بالتمكن والتوسع فى كثير من علوم عصرهم ، واستطاعوا بكثير من الجهد والجلد ، أن يجمعوا أشتاتها فى

(١) تكررت هذه النبذة فى هذا الفصل والفصلين السابقين لأنها كتبت مستقلة وفى أوقات متباعدة .

أسفار منظمة متصلة ، وأن يجعلوا من هذا النوع من الكتابة ، فناً خاصاً لا يستطيع أن يضطلع به سوى القليل من العلماء أو الكتاب الذين يتمتعون بمواهب خاصة . وقد وجدت فكرة الموسوعات العامة فى الأدب العربى قبل القرن الثامن ، ولكنها لم تصل من قبل إلى مثل هذا التوسع فى النوع ، وهذا التبسط فى المادة . ويكفى أن نتصفح أثراً من هذه الآثار الجامعة لندرك أى جهود مدهشة ، وأى مواهب وكفايات ممتازة ، اتحدت فى شخص بمفرده لتخرج هذا الأثر الضخم ، الذى تشعبت مناحيه وموضوعاته بصورة مدهشة ، وبلغت مع ذلك حداً بعيداً من الاتصال والتنسيق ، يجعل منها وحدة متماسكة وثيقة العرى .

* * *

وسنخص بالحديث فى هذا البحث كتاب « صبح الأعشى » أحد هذه الآثار الجامعة . ويحسن بنا أن نبدأ بالتعريف بصاحب هذه الموسوعة ، ففى التعريف به ما يفسر توافره على هذا النوع من التأليف الجامع ، ومن الأسف أن كتب التراجم لم تقدم لنا الكثير عن القلقشندى ، وقد تحدث عنه بمنتهى الإيجاز صاحب النجوم الزاهرة ، وكذلك العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ، كل منهما فى وفيات سنة ٨٢١ هـ ، ولم يذكرا لنا تاريخ مولده ، غير أنهما يقولان إنه توفى عن خمسة وستين عاما ، أعنى أنه قد ولد وفقاً لذلك فى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) . وهذا ما يذكره السخاوى صراحة فى الضوء اللامع ، ويزيد عليه بعض تفاصيل يسيرة .

وهو القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ، ولد بقلقشندة إحدى قرى قليوب فى العام السالف الذكر ، ودرس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر ، وتخصص فى الأدب والفقه الشافعى ، وبرع بالأخص فى علوم اللغة والبلاغة والإنشاء ، وتولى بعض الوظائف الإدارية مدى حين . بيد أن براعته فى الكتابة والإنشاء لفتت إليه أنظار رجال البلاط ، ومهدت إليه سبل الاضطلاع بالمنصب الذى تؤهله له مواهبه الأدبية والفنية ، وهو العمل فى ديوان الإنشاء ، فالتحق بخدمة هذا الديوان حسبما يقول لنا فى مقدمته فى سنة ٧٩١ هـ ، فى عهد السلطان الظاهر برقوق . وقد كانت لديوان الإنشاء فى هذا العصر أهمية خاصة ، وكان لا يعمل فيه سوى أقطاب النثر والبلاغة

الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شئون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية ، وسير العلائق الدبلوماسية بين مصر وباقى الأمم . ولديوان الإنشاء المصرى ، منذ أيام الدولة الفاطمية تاريخ حافل ، وقد لبث عصوراً مدرسة أدبية زاهرة ، يجتمع فيها أقطاب الكتابة ، وأئمة النثر والبلاغة ـ وكان قد تولى رياسته قبل ذلك بنصف قرن كاتب ممتاز ، وعلامة جغرافى وسياسى بارع هو أحمد بن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » ووضع عن نظم الكتابة والإنشاء الرسمية كتابه الشهير « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو ما يقابل فى اصطلاح العصر ، مراسيم البروتوكول والمراسلات الدبلوماسية ، فكان ، حسبما يقول لنا القلقشندى فى مقدمته ، هو أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب ، وكان بالرغم من إيجازه ، ونطاقه المحدود ، نواة للموسوعة الشاسعة التى وضعها القلقشندى فى نفس الموضوع . ولبث القلقشندى أعواماً يعمل فى ديوان الإنشاء ، ولعله استمر فيه حتى آخر عهد الظاهر برقوق (أعنى إلى سنة ٨٠١ هـ) أو بعد ذلك بقليل ، وفى تلك الفترة خطرت له فكرة وضع مؤلفه الكبير ، أعنى « صبح الأعشى » .

وقد بدأ القلقشندى فوضع فى هذا الباب رسالة موجزة ، يبين فيها مايحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما تقتضيه من أصول ورسوم وأساليب ، فوقعت موقعاً حسناً ، وأشير إليه ، حسبما يقول لنا فى مقدمته ـــ والظاهر أن الإشارة كانت من مصدر عال ، وربما كانت من السلطان نفسه ، إذ يقول لنا إنه قد امتثل الأمر « بالسمع والطاعة » ــ أشير إليه أن يبسط الكلام فى هذا الموضوع ، وأن يلحق رسالته بمؤلف جامع فى أصوله وفنونه ، فصدع القلقشندى بالأمر ، واسترشد بما كتبه العمرى من قبل فى « المصطلح الشريف »(١) وقضى أعواماً طويلة فى البحث والتنقيب ، واستخراج الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية ، وغيرها من مختلف أصناف المكاتبات الرسمية والدبلوماسية ، حتى اجتمعت لديه من ذلك مادة غزيرة لم يسبق أن اجتمعت من قبل لكاتب فى موضوعه ، ورتب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات . وإنا

---

(١) راجع صبح الأعشى (المقدمة) ج ١ ص ٩ و ١٠

لندهش حقاً ، إذا علمنا أن هذه المقدمة ، وهذه المقالات العشر ، تملأ أربعة عشر مجلداً ضخماً ، وهى محتويات الموسوعة العظيمة ، التى سماها القلقشندى فى مقدمته بكتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشاء » . وقد يسمى أحياناً « صبح الأعشى فى فنون الإنشاء » أو « صبح الأعشى فى معرفة الإنشاء » أو « صبح الأعشى فى قوانين الإنشاء » ، وذلك حسبما يسميه السخاوى فى الضوء اللامع .

والظاهر أن القلقشندى قد بدأ كتابة مؤلفه الجامع حوالى سنة ٨٠٥ هـ إذا قدرنا أنه استغرق فى وضعه عشرة أعوام ، فهو يقول لنا فى مقدمته ، إنه فرغ من تأليفه فى شوال سنة ٨١٤ هـ .

ومن الصعب علينا أن نتقصى سائر المصادر التى اعتمد عليها القلقشندى فى وضع موسوعته . ومن الواضح ، فيما يتعلق بمجموعة الوثائق والمراسلات الضخمة التى يوردها لنا فى كتابه ، انه اعتمد بنوع خاص على المحفوظات المصرية ، التى كانت تغص فى عصره بمختلف الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية ، التى تكدست فى ديوان الإنشاء خلال العصور المتعاقبة . بيد أن القلقشندى يذكر لنا إلى جانب ذلك ، خلال مؤلفه ، بعض الكتب التى رجع إليها ، واقتبس منها فى الناحية الفنية من مؤلفه . ومن ذلك كتابا «المصلح الشريف» « والتثقيف » لابن فضل الله العمرى ، وكتاب « مواد البيان » لعلى بن خلف من كتاب الدولة الفاطمية ، وكتاب « معالم الكتابة » لابن شيث ، وكتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى ، وكتاب الأموال لأبى عبيد ، وذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان ، وصناعة الكتاب لأبى جعفر النحاس ، وكتابين آخرين لم يذكر لنا مؤلفيهما ، هما كتاب حسن التوسل ، وكتاب الدر الملتقط .

وسوف نحاول ، أن نستعرض محتويات صبح الأعشى ، فى شىء من الإيجاز ، لأن العرض المفصل يقتضى مجالا شاسعاً لا يتيسر لنا هنا .

ففى المقدمة ، يتناول القلقشندى الحديث عن المسائل والتعريفات التمهيدية ، كالتنويه بفضل القلم والكتابة ، ومعنى الإنشاء ، وتطوره خلال العصور ، وترجيح النثر على النظم ، وصفات الكتاب وآدابهم ، وتاريخ ديوان الإنشاء وأصله فى الإسلام ، ثم انتظامه بعد ذلك فى مختلف الدول الإسلامية ، وقوانين الديوان ومرتبة صاحبه ، ثم التعريف بوظائف الديوان فى مصر الإسلامية ،

واختصاص كل منها فى مختلف العصور والدول ، وهذه المقدمة البديعة تصلح أن تكون وحدها مؤلفاً مستقلا .

وفى المقالة الأولى . يحدثنا المؤلف عما يجب أن يستوعبه الكاتب من مواد الإنشاء ، والمعارف اللغوية والأدبية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، لكى يستطيع أن يؤدى مهمته فى وضع الوثائق ، والمراسلات السياسية والإدارية على الوجه المرغوب ، وما يحتاج إليه الكاتب من أنواع الأقلام والورق والحبر وغيرها ، ويتبع ذلك بنبذة شائقة فى الخط العربى وتاريخه .

وتتناول المقالة الثانية الحديث عن المسالك والممالك ، وهى استعراض جغرافى ونظامى للدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام . وفيه تفصيل خاص لشئون الديار المصرية والشامية التى تتبعها ، وما يحيط بها أو يجاورها من الأمم الأخرى ، إسلامية وغيرها .

وفى المقالة الثالثة تفصيل واف لترتيب المكاتبات ، وما يناسب أنواعها من الأقلام وأحجام الورق قديماً وحديثاً ، وأنواع المراسم ومصادرها ، وأقلام الترجمة واختصاصها ، وفى فواتح الرسائل وخواتمها ، مع تفصيل خاص لما يتعلق بذلك كله فى ديوان الإنشاء المصرى . وهذه مزية من أجل مزايا الكتاب . فإذا كان المؤلف يتحدث بصفة عامة عما يتعلق بموضوعه فى مختلف الدول الإسلامية والعصور المختلفة ، فإنه يخص مصر دائماً بالنصيب الأوفى من الشرح والبيان .

وأما المقالة الرابعة فإنها حسبما يبدو من محتوياتها وحجمها ، أهم مقالات الكتاب وأضخمها . ويستهلها المؤلف بأن يقدم لنا فهرساً مطولا لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة مرتبة على حروف المعجم ، وقد وردت به شروح لسائر الصفات والألقاب التى نراها مدونة فى مختلف الرسائل الخلافية والسلطانية والوزارية ، والموجهة إلى أكابر رجال الدولة وأقطاب العلم والأدب ، ومن ذلك ألقاب الخلفاء وولاة العهد والألقاب الملوكية والسلطانية ، وأرباب السيوف والعلماء وأهل الصلاح ومشايخ الصوفية ، ومن ذلك أيضاً ألقاب أكابر النصارى من البطارقة والملوك والملكات .

ثم يشرح لنا أساليب الكتابة من استفتاح ومقدمات ودعاءات وصلوات وغيرها مما اصطلح عليه .

ومن أهم فصول هذه المقالة ، فصل يعالج فيه القلقشندى مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك أهل الشرق والغرب من جهة ، وكتاب الديار المصرية فى مختلف العصور ، منذ صدر الإسلام إلى عصره ، وهو الفصل الذى يفتتحه بذكر الكتب الصادرة من النبى العربى إلى زعماء الجزيرة وغيرهم من أهل الكفر ، مثل كسرى وقيصر والنجاشى .

ويلى ذلك استعراض للمكاتبات الصادرة من الملوك إلى الخلفاء ، ويقدم إلينا القلقشندى منها نماذج ، ومن ذلك رسالة صادرة من السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، بفتح بيت المقدس ، وفيها ينعت نفسه بالخادم والمملوك .

ويعنى القلقشندى عناية خاصة بالكتب الصادرة عن ملوك الديار المصرية ، ويورد لنا الكثير منها . من ذلك ما هو موجه إلى نواب السلطنة ، وإلى العمال والقضاة ، ورجال الدولة ، فى مصر والشام .

ومنها ما هو موجه إلى ملوك التتار وإيران وأرمينية وإذربيجان وأرزن وما وراء النهر .

وإلى ملوك المغرب فى تونس وبجاية وقسنطينة وتلمسان والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

وإلى ملوك السودان والبرنو ، وملوك الروم والترك العثمانيين ، ثم المكاتبات الصادرة من ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر من الروم والفرنج والحبشة ، وإلى ملوك الغرب من جزيرة الأندلس ، والأرض الكبيرة (أى فرنسا) وقشتالة وأشبونة وأراجون ونبرّة .

ثم إلى البابا وقيصر قسطنطينية وحكام جنوة مثل البودسطا والكبطان ، ثم إلى دوج البندقية .

وأخيراً المكاتبات الصادرة إلى ملك منفراد (مونفراتو) وإلى الملكة جوانا ملكة نابل .

ويعنى القلقشندى من جهة أخرى ، بالمكاتبات الواردة إلى البلاط المصرى . ومن ذلك المكاتبات الواردة على الأبواب السلطانية من أكابر رجال الدولة وأهل

المملكة ، ثم الكتب الواردة من أهل الشرق من القانات العظام والملوك والحكام وولاة العهد ، والكتب الواردة من الغرب ، من المرابطين والموحدين ، ثم من ملوك بنى مَرِين وبنى عبد الواد ، والكتب الواردة من السودان ، من مالى وصاحب البرنو (نيجيبريا) ، والكتب الواردة من ملوك الروم ، من قسطنطينية وبلاد الكرج وغيرها ، وأخيراً الكتب الواردة من ملوك الأندلس النصارى ، ومن الجهات الشمالية مثل البندقية وغيرها .

ويقدم إلينا القلقشندى نماذج من معظم المكاتبات المذكورة ، سواء الصادرة منها من البلاط المصرى ، أو الواردة عليه ، ومن ذلك نماذج فريدة ، مما ورد على ملوك مصر ، من مختلف الملوك النصارى ، وفى مختلف العصور .

وتتناول المقالة الخامسة ، مسألة الولايات ، وطبقاتها من الخلافة والسلطنة ، وولايات أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ثم الألقاب من خلافية ومملوكية ، والألقاب الصادرة إلى ذوى الولايات المختلفة ، ثم البيعات وما يكتب فيها بالنسبة للخلفاء والملوك . ثم العهود ، وأنواعها ، من خلافية ، وملوكية ، ولأولياء العهد ، وغيرها . وهنا يقدم إلينا القلقشندى أيضاً نماذج من مختلف المراسيم والعهود الصادرة بما تقدم ، وفى مختلف العصور .

وتشغل المقالتان الرابعة والخامسة من « صبح الأعشى » نحو ثلاثة مجلدات من منتصف المجلد السادس إلى أواخر المجلد الثامن . وفى رأينا أن هذا القسم هو أهم أقسام الكتاب وأنفسها . فهو يشتمل على مئات الوثائق والنصوص الرسمية والدبلوماسية ، ويلقى أعظم الضياء على تاريخ مصر النظامى والإدارى فى عصور الخلفاء والسلاطين ، وعلى السياسة الخارجية المصرية ، وعلائق مصر بالأمم الإسلامية والنصرانية فى تلك العصور ، وهى مادة نفيسة من الوثائق والمحفوظات الجليلة ، التى لا يمكن أن نظفر بها فى مؤلف آخر ، وإن كان العمرى قد أورد فى « المصطلح الشريف » شيئاً منها .

وفى المقالة السادسة يتحدث المؤلف عن الوصايا الدينية والمسامحات وتصاريح الخدمة السلطانية (الطرخانيات) ، وعن التواريخ ومقابلاتها . ويتحدث فى السابعة عن الإقطاعات وأصلها ، ونشأتها ، وأحكامها ، وأنواعها ، ويقدم إلينا نماذج من المراسيم الصادرة بها فى مختلف الدول والعصور . ويتحدث فى

المقالة الثامنة عن الإيمان وأنواعها منذ الجاهلية ، وفى عصور الإسلام ، والإيمان الملوكية والأميرية فى الدول الإسلامية وغيرها . وفى التاسعة يحدثنا عن عهود الأمان وعقدها لأهل الإسلام والكفر ، وما يكتب منها لأهل الذمة ، ثم الهدن وأنواعها وصيغها ، وعقود الصلح ونماذجها . وفى المقالة العاشرة والأخيرة ، يعرض القلقشندى نماذج مختلفة من الرسائل الملوكية فى المديح والفخر والصيد ، ثم يحدثنا عما يتعلق بديوان الإنشاء فى غير شئون الكتابة ، مثل البريد وتاريخه فى مصر والشام ، وهو فصل بديع جامع ، ثم الحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته ، ثم المناور والمحرقات التى كانت تستعمل فى استطلاع حركات العدو . وهذا الفصل هو خاتمة الكتاب .

هذا هو ملخص موجز لمحتويات « صبح الأعشى » . وفى مواد الكتاب وفى تنظيمه وروحه وأسلوبه ، ما يشهد لمؤلفه برفيع فنه وقوة بيانه ، وغزارة علمه ، وواسع ثقافته .

وقد عنى القلقشندى بنواح أخرى من التاريخ والأدب ، فوضع كتاباً فى أنساب العرب عنوانه « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » ، وتوجد منه نسخة خطية فى برلين ، يستفاد منها أنه كتب فى سنة ٨١٢ هـ[1] . وكتاباً آخر فى الأنساب أيضاً عنوانه « قلائد الجمان فى قبائل العربان » . ووضع مختصراً لصبح الأعشى عنوانه « ضوء الصبح المسفر ، وجنى الدوح المثمر » . ووضع كتاباً فى الفقه الشافعى عنوانه « الغيوث الهوامع فى شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع » . وأنشأ القلقشندى كثيراً من النظم الجيد . والظاهر أنه قضى أعوامه الأخيرة فى عزلة ، بعيداً عن الأعمال والوظائف الرسمية ، ولم يتول بعد ديوان الإنشاء ، منصباً آخر ، بيد أنه ظل كما يحدثنا صاحب شذرات الذهب ، محتفظاً بمكانته الرفيعة فى البلاط وفى الدولة ، وفى الدوائر العلمية .

هذا ، وإذا كنا لا نستطيع أن نعتبر القلقشندى مؤرخاً بالمعنى الحقيقى ، وإذا كنا لا نستطيع فى نفس الوقت أن نعتبر موسوعة « صبح الأعشى » مؤلفاً

---

(١) وقد طبع فى بغداد كتاب فى هذا الموضوع ينسب للقلقشندى ، وظهرت منه طبعات أخرى بصور مختلفة . ولكن هناك شك فى نسبته لصاحب صبح الأعشى . ويرى بعض الباحثين أنه من تأليف ابنه الذى وضع مختصرا لكتاب صبح الأعشى ، ومختصراً آخر لكتاب أنساب العرب .

تاريخياً محضاً ، فإنه لا شك أنها تقدم إلينا بالنسبة لتاريخ مصر بنوع خاص ، مجموعة عظيمة من الوثائق الإدارية والسياسية ، التي تلقى أعظم أضوء على مختلف النظم التي قامت عليها الدول الإسلامية المصرية المتعاقبة ، ومختلف العلاقات الدبلوماسية التي كانت تعقد خلال العصور الوسطى بين هذه الدول المصرية ، ومختلف الدول الإسلامية والنصرانية . وهذا وحده يكفي لأن نسبغ صفة تاريخية قوية على كتاب « صبح الأعشى » ، وأن نسبغ على مؤلفه صفة المؤرخ السياسي والإداري ، وهي صفة لها قيمتها الخاصة عند المؤرخ الحديث .

وقد سبقنا البحث الغربي كعادته إلى العناية بهذا الأثر النفيس ، فترجمت منه إلى الفرنسية مجموعة هامة من الوثائق الدبلوماسية التي تبودلت بين مصر والدول النصرانية ، وترجمت منه مختارات أخرى إلى الفرنسية والألمانية[1] . وكان لدار الكتب المصرية فضل إخراجه كاملا في أربعة عشر مجلداً ، وذلك ما بين سنتي ١٩٠٣ ، ١٩١٩ . بيد أنه أخرج مع الأسف خلواً من فهرس حديث شامل ، يدل على نفائسه ودقائقه ، ويوفر على الباحث مشقة التنقيب المضني ...

---

(١) صادرت من « صبح الأعشى » بعناية المستشرق فستنفلد **Wuestenfeld** قطعة بالألمانية عن جغرافية مصر ونظمها الإدارية عنوانها : **Die Geoyraphie und Verwaltung von Aegypten nach dem Arbeit des Abul - Abbas al - Calcachandi**

ونشرت في مجلة الجمعية الملكية للعلوم بجوتنجن . ونشرت قطعة بالفرنسية مترجمة بعناية المستشرق سوفير **Sauvaire** بعنوان : **Extrait de l'ouvrage de Kalkachandi inititulé "Lumière de l'Aurore. pour l'écriture des hommes"**

ونشر المستشرق البلجيكي لامانس **Lammens** الترجمة الفرنسية لعدة رسائل متبادلة بين سلاطين مصر والدول النصرانية بعنوان :

Correspondances diplomatiques entre les Sultans d'Egypte et les Puissances Chretiennes ونشرت بمجلة : **Revue de l'Orient Chrétien** (الشرق النصرانية)

الفصل الرابع

تقى الدين المقريزى

مؤرخ مصر السياسى والاجتماعى

(٧٦٦ – ٨٤٥ هـ) : (١٣٦٤ – ١٤٤١ م)

لم تشغل النظم السياسية والاجتماعية فراغاً كبيراً فى الآداب التاريخية العربية . فقد لبثت الروايات العربية مدى قرون تقتصر على سرد الحوادث المجردة ، وتعنى بسير الخلفاء والملوك ، والقادة ، وغزواتهم ، وتقلب طوالعهم ، وحياتهم الخاصة ، دون أن تعرض بكثير من التعريف والشرح إلى حياة الشعوب التى دانت لهم ، وإلى النظم السياسية والاجتماعية ، التى عاشت فى ظلها هذه الشعوب ، وإلى الأخلاق العامة ، وصور الحياة الخاصة ، والعادات الفردية ، وإلى ما تميزت به منها كل طبقة من طبقات المجتمع . ولكن نزعة إلى معالجة السياسة والاجتماع أخذت تبدو فى الرواية العربية منذ القرن السابع الهجرى ، وتميل بادئ بدء إلى ناحية السياسة الملوكية وإلى تحليلها ونقدها ، فنرى ابن الطقطقى مثلا يحاول فى كتاب « الفخرى »[1] أن يقدم إلينا صورة من المثل الأخلاقية الملوكية ، ومن النظم والأساليب التى يجب أن يتبعها الملك فى سياسة الدولة ، ورعاية الشؤون العامة ، وأن ينقد ويدحض ما يراه منها مخالفاً لما يقرره من المثل العليا . ثم نرى هذه النزعة العلمية النقادة تبلغ ذروة الافتنان والبراعة عند ابن خلدون شيخ الاجتماع والفقه التاريخى ، فنراه يعرض فى مقدمته الخالدة إلى قوانين العمران ، وإلى نظم الدولة ومبادئ السياسة ، وإلى أطوار الحياة الشعبية ، وعوامل قيام الدول والحضارات وانحلالها ،وإلى مقومات الخلافة والملك ، ونظمها الدستورية ، وإلى العلوم والفنون والصناعات ، فى إسهاب ودقة ومتانة لم تعرفها الآداب التاريخية العربية من قبله ، ولم تعرفها كذلك من بعده . وظهرت فى نفس الوقت إلى

---

(١) كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الإسلامية . (طبعة جريفزفلد ١٨٥٨) .

جانب هذا الروح العلمى الناقد ، نزعة إلى العناية بأحوال الشعب ذاته ، وسير الطبقات الاجتماعية ومميزاتها الأخلاقية ، وحياة الأفراد وعاداتهم ومشاعرهم وعواطفهم فى مختلف العصور والأوساط ، فنرى الرواية العربية تعنى مذ ذلك الحين بتدوين الكثير من هذه الظواهر بعد ما كانت تغفلها ، ونرى أخبار الأفراد والدهماء تتخلل سير الملوك والأمراء ؛ والحياة الاجتماعية العامة ، تعرض إلى جانب حياة القصور .

وقد أصابت مصر الإسلامية من هذا التراث أعظم قسط . فقلما يظفر مؤرخ الدول الإسلامية بصور عن النظم السياسية والاجتماعية ، والأخلاق العامة ، والحياة الخاصة ، أقوى وأوضح من تلك التى دونت عن مجتمعات مصر الإسلامية. ويرجع الفضل فى ذلك إلى أربعة من أعلامها المؤرخين أنجبتهم تباعاً فى القرنين الثامن والتاسع ، هم : المقريزى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس . وقد عاش الأربعة فى عصور متعاقبة ، واجتمع الثلاثة الأوائل فى عصر واحد ، فى أواسط القرن التاسع ، وعنوا جميعاً بتدوين تاريخ مصر الاجتماعى ، والإلمام بأحوال شعبها ، وظواهره النفسية والأخلاقية ، وحياته العامة ، الظاهرة والمستترة . ولكن صاحب هذه الفكرة السعيدة ، والمبدع فى عرضها ، هو أولهم وشيخهم تقى الدين المقريزى ؛ بل هو أول من ألهم هذه الفكرة من مؤرخى الإسلام جميعاً ، وليس فيما أخرجته الآداب التاريخية العربية عن مصر أثر فى طرافته ونفاسته ، كالأثر الذى خلفه المقريزى عن حياة المجتمع المصرى فى عهد الدول الإسلامية المتعاقبة ، فهو المرجع الفريد فى نواح من تاريخنا لولاه لحجبتها ظلمات الماضى إلى الأبد ، وهو أنفس الحلقات التى تصل فيما بين الأطوار المختلفة للتقاليد والعادات التى تقلب فيها آباؤنا عدة قرون .

نشأ المقريزى وعاش فى عصر سرى الانحلال فيه إلى الأمم الإسلامية ؛ وأخذت مصر تتردد بين النهوض والعثار ، ويسطع مجتمعها آونة ويخبو أخرى ، فشاقه الماضى الباهر إلى التنقيب فى خفاياه . وكانت مصر يومئذ تسير فى الواقع إلى اختتام عصورها المجيدة واستقبال عصورها السود ، فكانت ذكريات الماضى أشد ما يثير التأمل . ولكن المقريزى لم يعن من هذا التراث بحروبه وغزواته وتقلباته السياسية ، قدر ما عنى بنظمه وظواهره وأخلاقه وتقاليده ، ورأى الآثار

الماضية ، تغفل من حياة المجتمع ، جوانب لاح له أنها بخست حقها من التعريف والشرح ، وأن سير الحروب والثورات إذا كانت كل شيء فى حياة الغزاة والمتغلبين ، فإنها ليست كل شيء فى حياة الشعب والمجتمع ، فعمد إلى مادة جديدة بالمرة يستخرجها من ظلمات الماضى ، ويعرض ما استطاع أن يظفر به من صورها الشائقة ، فكان بذلك مؤرخ مصر السياسى والاجتماعى .

* * *

ولد تقى الدين المقريزى فى القاهرة سنة ٧٦٦ هـ ، وتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ — ١٤٤١ م) . وهو أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد الصمد بن تميم التقى أبو العباس بن العلاء بن المحيوى الحسينى العبيدى . وقد سجلنا هذه النسبة الطويلة ، إذ عرف عن المقريزى أنه كان ينتسب إلى آل عبيد الفاطميين . ويقول لنا السخاوى إن جده كان أصله من بعلبك الشام ، وكان من كبار المحدثين بها ، فتحول ولده على إلى القاهرة ، وولى بها بعض الوظائف القضائية ، وكتب التوقيع بديوان الإنشاء ، ورزق بولده أحمد صاحب هذه الترجمة .

ونشأ المقريزى فى تلك المدينة التى طوت قبله أجيالا من السلاطين والدول ، والتى كانت تشوق دائماً بماضيها الحافل وآثارها الإسلامية الباهرة ، طلعة كل مفكر وراوية ، وأنفق مدى حياته بين هاتيك الربوع والصروح الخالدة ، التى أوحت إليه أن يكون فيما بعد مؤرخها ومحيي ذكرياتها ، ودرس فى الأزهر موئل التفكير يومئذ ، على أساتذة هذا العصر وشيوخه ، وكان من شيوخه جده لأمه ، الشمس بن الصايغ الحنفى ، والنجم بن رزين ، والبرهان الآمدى ، وأبو إسحاق التنوخى ، وزين الدين العراقى ، وابن أبى المجد ، وسراج الدين البلقينى ، والهيثمى وغيرهم من أعلام العصر . وتخصص فى دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين ، ومهر فى الأدب ، وأجاد النثر والنظم ، وعين مراراً فى وظائف الوعظ وقراءة الحديث بالمساجد الجامعة ، وولى الحسبة بالقاهرة غير مرة ، وهى من وظائف القضاء الهامة ، أولها فى سنة إحدى وثمانمائة . وولى الخطابة بجامع عمرو ، وبمدرسة السلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بالمدرسة

المؤيدية وغيرها . وتقلب فى عدة وظائف قضائية وإدارية، فى القاهرة ودمشق ، وقد زارها مراراً . وحج غير مرة ، وسمع بمكة والمدينة .

وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ؛ ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده .وتوثقت صلته بالأمير يشبك الدوادار وقتاً، ونال فى ظله جاهاً ومالا[1]. ثم زهد فى الوظائف العامة واستقر فى القاهرة ، وتفرغ إلى الكتابة وهو يومئذ فى نحو الخمسين من عمره .

بيد أنه كان يضطرم شغفاً إلى البحث والكتابة قبل ذلك بأعوام طويلة . والظاهر أنه أنفق كثيراً من أعوامه الأولى فى التنقيب فى مختلف المصادر التى استطاع أن يصل إليها ، فى مكاتب دمشق ومكة والقاهرة ، وهى يومئذ ملاذ المراجعة والتنقيب ، ومستودع أجل آثار التفكير الإسلامى . وهو ما يشير إليه فى فاتحة كتاب « المواعظ والاعتبار » بقوله : « فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب » . والظاهر أيضاً أنه لم يكن يجمع أشتات هذه المواد الغزيرة ، تنفيذاً لفكرة وضعها من قبل ، أو لتكون مادة لموضوع بعينه ، ولكن المحقق أن المقريزى كانت توجهه فى درسه وبحثه عاطفة قومية ، ظهر أثرها فيما بعد فيما اختاره ميداناً أساسياً لنشاطه . وهى عاطفة نلمح أثرها فى جهود معاصريه السخاوى وابن تغرى بردى ، وكذلك فى جهود ابن إياس ، فقد عنوا جميعاً بتدوين تاريخ مصر قبل غيره ، ولا سيما حوادث عصرهم . ولكن أثر هذه العاطفة القومية فى جهود المقريزى أشد وأقوى ، وهى ظاهرة كل فى الظهور فى شغفه باستقصاء ما استقصى عن تاريخ مصر ومجتمعاتها من الحقائق الفريدة ، ثم هو يفصح عنها بجلاء فى ديباجة « المواعظ» بقوله : « وكانت مصر هى مسقط رأسى ،وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجوى الذى ربى جناحى فى وكره ؛ وعش مأربى فلاتهوى الأنفس غير ذكره ، لا زلت مذ شذوت العلم وآتانى ربى الفطانة والفهم ،أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ...».

اختار المقريزى تاريخ مصر ميداناً لخير جهوده وأعظمها . وقد كتب عدة

---

(١) السخاوى فى ترجمة المقريزى فى الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٢ .

مؤلفات فى نواح أخرى من تاريخ الإسلام[١] ، وكتب عدة مؤلفات فى غير التاريخ[٢] ، ولكنها جميعاً فى المحل الثانى . أما تاريخ مصر وتاريخ نظمها ، ومجتمعاتها ، وتاريخ شعبها ، فقد خصه المقريزى بطائفة من أنفس الآثار التى وصلتنا عن مصر الإسلامية . وهذه هى : أولا كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » الذى سنعود إليه بعد ، والسلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو تاريخ دول المماليك فى مصر ، وكتاب المقفى وهو سير الأمراء والكبراء الذين عاشوا فى مصر ، وهو مؤلف ضخم لم ينجز منه سوى قسم فى عدة مجلدات ، ودرر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة وهو تراجم مشاهير عصره ؛ واتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء[٣] ، وهو تاريخ الدولة الفاطمية والخلفاء الفاطميين ، والبيان والإعراب عما فى مصر من الأعراب ، ثم عقد جواهر الأسفاط فى أخبار الفسطاط ، ذكره السخاوى ولم يصلنا خبره . ويقول السخاوى وهو معاصره تقريباً إن مجلداته بلغت مائة ، وانه قرأ بخطه أى بخط المقريزى أن تصانيفه زادت على مائتى مجلد[٤] ، ويذكر منها عدة مؤلفات لم تصلنا أو لا نعرف خبرها . ولكن الظاهر أنا نملك كل أو على الأقل أهم ما كتبه المقريزى عن مصر ، وهو تراث حافل كما رأيت .

تراث حافل من حيث مداه . ولكنه حافل بالأخص من حيث نوعه وطرافته . فقد رأيت أن المقريزى عنى بنواح من تاريخ المجتمعات المصرية المتعاقبة لم يفطن إليها أسلافه ، أو على الأقل لم يتناولوها بمثل ما تناولها هو به من دقة واستقصاء وبسطة . ولا ريب أنه قد اعتمد كثيراً على جهود أسلافه ، ولكنك لا تكاد تظفر فى هذه الجهود إلا بلمحات ضئيلة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى

---

(١) نعرف منها « الدرر المضيئة » وهو تاريخ الخلفاء حتى نهاية الدولة العباسية ، « إمتاع الأسماع فى ما للنبى من الحفدة والأتباع » « والإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام » ، وكتاب الخبر عن البشر ، وتراجم ملوك الغرب ، والطرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة .

(٢) أى مثل رسالته فى تاريخ النقود العربية ، ورسالته فى الغناء ؛ والبيان المفيد فى الفرق بين التوحيد والتلحيد ، والاخبار عن الأعذار ، ونحل عبر النحل . والمقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية . وتجريد التوحيد . ونبع الفوائد . والأوزان والأكيال الشرعية وغيرها .

(٣) وقد عثر البحث أخيرا منه بنسخة أوفى وأكبر حجما من النسخة المتداولة ، وتتناول تاريخ الخلفاء الفاطميين حتى أواخر الدولة الفاطمية بتفصيل وإفاضة .

(٤) الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٣ .

أعنى مما يخرج لنا المقريزى عنه صوراً واضحة شافية ، وفضل المقريزى هو أنه قيد شوارد هذه الأشتات ، وأدرك قيمتها وأهميتها فى تاريخ مصر الإسلامية ، فاستخرج منها مادة للدراسة مستفيضة . وقد تقرأ فيها نبذاً نفيسة عديدة نقلها عن مؤرخين ضاعت آثارهم وكانت موجودة فى عصره ، وأنفس ما فى هذه النبذ أنها دونت بأقلام المعاصرين لما تعرض من شئون وحوادث . وهى مزية للمصادفة وصروف الزمن . ولكن المقريزى دون سير عصره ، وصور مجتمعه أيضاً . وهى صفحة حافلة أيضاً من تاريخ مصر الإسلامية ، لأن المقريزى عاصر من ملوك مصر عشرة متعاقبين . وكان المجتمع المصرى فى عهده يقدم إلى المتأمل كثيراً من الظواهر النفسية والاجتماعية الجديدة .

وأشهر آثار المقريزى وأهمها بلا ريب كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » . وهو الذى يعرف باسم أقصر وأشهر هو « الخطط » وهو أثر فريد فى نوعه ، طريف فى موضوعه ، غزير فى مادته ، وافر الطلاوة والإمتاع . ونستطيع أن نصفه بتاريخ مصر القاهرة ومجتمعاتها أيام الدول الإسلامية . والواقع أن القاهرة ، وخططها القديمة ، وتطوراتها الجغرافية ، وشوارعها ، بل أرضها وأسواقها ، وأحياءها ، ومساجدها ، ورياضها ، ومدارسها ، وكل ما احتوت من معاهد وصروح ، ودور عامة ، تشغل فراغاً كبيراً فى الخطط . فما حى ، وما شارع ، وما صرح أثرى أو معهد أو قصر ، إلا وفاه المقريزى حقه من الوصف ، وألم بمنشئه وتاريخه . وفى وسعك وأنت تقرأ الخطط ، أن تضع فى الحال مواقع « مصر — القاهرة » ومعالمها وحدودها المختلفة ، مذ قامت فسطاط عمرو ، وقطائع ابن طولون ، وقاهرة جوهر أو قاهرة المعز . وفى وسعك أن تتصور تخطيط « مصر — القاهرة » وتقسيمها الجغرافى فى مختلف الدول الإسلامية ، بل تستطيع فى كثير من الأحيان أن تُرجع ما تعرف اليوم من أحياء القاهرة وشوارعها القديمة ، إلى ما يقدمه إليك المقريزى عنها من وصف وتخطيط . أليس فخر القاهرة وتراثها الخالد آثارها الإسلامية ؟ أليس فخرها تلك المساجد الشامخة التى تصور لنا فن الهندسة والعمارة الإسلامية فى مختلف العصور والدول ؟ والقاهرة ، ومساجدها ، وكل ما فيها من روعة أثرية وعمرانية ، ثمرة من ثمرات المدنية الإسلامية .

لقد كانت « الخطط » إذاً ثمرة هذه العاطفة الوطنية المضطرمة التى ملأت جوانح المقريزى ، وما أوحت إليه من مثابرة وعناية وجلد . والظاهر أن المقريزى قضى أعواما طويلة فى البحث والدرس ، وجمع المذكرات والأخبار ، قبل أن تستقر فى ذهنه فكرة تدوين « الخطط » ؛ فهو يقول فى مقدمته : « فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ؛ إلا أنها ليست بمرتبة على مثال ، ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال ؛ فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم والقرون الخالية ؛ وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد ، غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم ؛ وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار القصور الزاهرة ؛ وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المبانى البـــديعة والأوضاع ؛ مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل » . وهكذا استخرجت « الخطط » من مادة غزيرة متباينة ، جمعت شواردها خلال أعوام طويلة ، وصيغت محتوياتها على هذا النحو الذى يصفه المؤرخ . ومن الصعب أن نعين تاريخ كتابة « الخطط » بالضبط . ولكن هنالك ما يدل على أن البدء فى كتابتها وتنظيمها كان بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ . ويشير المقريزى إلى ذلك عرضاً فى موضعين :

الأول — فى كلامه عن « موضع الفسطاط قبل الإسلام إلى أن اختطه المسلمون « مدينة » حيث يقول :

« قال ابن المتوّج : وعمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان . قلت : وهو باق إلى يومنا هذا أعنى سنة عشرين وثمانمائة »(١) .

الثانى — فى كلامه عن « مدينة مَدْين » حيث يقول :

« . . . وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقى منها إلى يومنا هذا وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة نحو الأربعين مدينة قائمة . »(٢)

---

(١) الخطط (بولاق) — ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٢) ج ١ ص ١٨٨ . وقد ذكر المستشرق جست فى مقال له فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية (J. R.A. S.) (سنة ١٩٠٢ ص١٠٣) عن المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى وضع خططه ، أن =

كذلك هنالك ما يدل على أن المقريزى لبث فى تدوين الخطط والزيادة فيها تباعاً إلى سنة ٨٤٣هـ أعنى قبل وفاته بنحو عامين . وإليك بعض الشواهد على ذلك :

(١) فى تاريخ « الجامع المؤيدى » حيث يسوق المؤلف أخباره حتى وفاة السلطان المؤيد سنة ٨٢٤هـ[١] .

(٢) فى تاريخ « المارستان المؤيدى » حيث يسوق تاريخه إلى سنة ٨٢٥ هـ[٢] .

(٣) فيما كتبه عن سلاطين عصره حيث يسوق الكلام إلى ولاية السلطان الأشرف برسباى فى ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ[٣] .

(٤) فى تاريخ « الجامع الأشرفى » حيث يسوق تاريخه إلى سنة ٨٢٧ هـ[٤] .

(٥) فى تاريخ بعض المساجد الصغيرة حيث يسوق تاريخها إلى سنة ٨٣٠ هـ ؛ وسنة ٨٣١ وسنة ٨٣٢ هـ[٥] .

(٦) فى كلامه عن قبر الليث بن سعد حيث يسوق الكلام عنه إلى ذى القعدة سنة ٨٤٠ هـ[٦] .

أما الدليل على أن المقريزى استمر فى كتابة الخطط حتى آخر سنة ٨٤٣ هـ ، وليس إلى سنة ٨٤٠ فقط كما يقول المستشرق جست ، فهو قول المقريزى فى أخبار بعض مساجد القاهرة التى أنشئت أو جددت فى عصره :

« وتجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرى ، وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل »[٧].

— الخطط كتبت بين سنتى ٨٢٠ و ٨٤٠ هـ معتمدا فيما يتعلق بالبدء على الإشارة الأولى ، وفيما يتعلق بالانتهاء على أن المقريزى يسوق ما كتبه عن قبر الليث بن سعد ، إلى ذى القعدة سنة ٨٤٠ هـ (ج ٢ ص ٤٦٣) . ولكن سنرى أن المقريزى يسوق الكتابة إلى ما بعد ذلك التاريخ .

(١) ج ٢ ص ٣٣٠ .
(٢) ج ٢ ص ٤٠٨ .
(٣) ج ٢ ص ٢٤٤ .
(٤) ج ٢ ص ٣٣١ .
(٥) ج ٢ ص ٣٣١ .
(٦) ج ٢ ص ٤٦٣ .
(٧) ج ٢ ص ٣٣١ .

كذلك هنالك ما يدل على أن أجزاء كثيرة من « الخطط » قد كتبت قبل سنة ٨٢٠هـ ، بعد فترة المحن والغلاء التى وقعت سنة ٨٠٦ حسبما تشير إلى ذلك مقدمة « الخطط » وكثير من فقراتها[1] . والظاهر أيضاً أن معظم المباحث التى تتعلق بتاريخ مصر القديمة ، والفتح الإسلامى ، وأخبار الفسطاط وملوكها ، وغير ذلك مما لا يرتبط بمجرى الحوادث فى عصر المؤلف ، قد كتب فى تاريخ سابق . أما ما تعلق بعصر المؤلف كما هو الشأن فى القسم الذى يشتمل على أحوال القاهرة فى عصره ، فلا ريب أن كتابته أو الزيادة فيه قد لبثت إلى ما قبيل وفاة المؤلف فى سنة ٨٤٥هـ ، على نحو ما قدمنا . بل هنالك ما يدل على أن « الخطط » كما وصلتنا تنقص عما رسمه لها المؤلف فى المبدأ ؛ وذلك أن المؤلف يقرر فى مقدمته ، أنه رتب مؤلفه على سبعة أجزاء : « أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها . وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائقها وما كان لهم من الآثار . وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر » . ولنلاحظ أولا أن الجزء السادس يتوسط الجزء الخامس فى الكتابة ، وأن المؤلف يستطرد فى تناول ما بمصر والقاهرة من المساجد والمنشآت ، بعد تناول الجزء السادس تكميلا للجزء الخامس ، ثم يختتم بفصول عن تاريخ اليهود والقبط والأديار والكنائس . أما الجزء السابع ، الذى يقول المقريزى ، إنه يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر ، فليس له وجود فى نسخ الخطط التى وصلت إلينا ، مع أن المؤلف يشير إلى المحن التى نشأ منها خراب مصر فى مواطن كثيرة[2] ؛ ويتناولها من آن لآخر فى شذور موجزة . وقد يرجع

---

(١) الخطط ج ١ ص ٥ .

(٢) راجع المقدمة ج ١ ص ٥ و ج ٢ ص و ١٠٥ و ١٠٦ و ١١١ وغيرها ، حيث يشير المقريزى إلى خراب كثير من أحياء مصر والقاهرة ، على أثر « الحوادث والمحن » التى وقعت فى سنة ٨٠٦ هـ.

ذلك إلى أن المقريزى قد عدل عن كتابة هذا القسم ، أو لعل الموت فاجأه قبل إنجازه[1] .

على أن محتويات « خطط » المقريزى ، أعظم وأغزر بكثير مما يدلى به هذا التقسيم . فهذا الأثر فوق كونه عرضاً مستفيضاً لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة ، وسيرها منذ الفتح الإسلامى ، هو مجمع فريد من صور مصر العمرانية والاجتماعية والفنية فى العصور الوسطى ، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى ، وأحوال المجتمع المصرى ، وظواهره النفسية والأخلاقية ، وحياته العامة ؛ وهو بذلك أثر وافر الابتكار والطرافة ، بما يفيض فيه من نواح فى التاريخ المصرى لم تلق حقها قبل من الإفاضة . وإذا لم يكن المقريزى أول مبتدع لتاريخ الخطط ، فهو بلاريب أعظم مؤرخيها جميعاً ، وأغزرهم مادة ، وأقواهم عرضاً ، وأوفرهم جلداً ومثابرة فى الاستقصاء . فهذه المدينة الإسلامية العظيمة « مصر القاهرة » ، وخططها القديمة ، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية ، وأحياؤها وآثارها ، ومساجدها ومدارسها ، وقصورها ورياضها ، وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن ، تشغل فراغاً عظيماً فى « الخطط » ؛ وما حى فيها وما شارع أو سوق ، وما صرح أثرى أو معهد أو قصر ، إلا وفاه المقريزى حقه من الوصف والتاريخ . وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد ، تراث المدنية الإسلامية فى مصر ، يعرضه لنا المقريزى فى صور قوية باهرة ممتعة . وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحديث ؛ فإذا ملك أو أمير أو كبير يقترن اسمه بذكر هذه الصروح والآثار الخالدة ، وإذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها ، فإنه يستقصى كل ما تعلق به أو بها من الأخبار ، فينتقل بقارئه من المسجد والقصر ، إلى الأمير ، ومن الأمير إلى الحروب ، ومن الحرب إلى المآدب والرياض وغيرها ، ثم هو لا ينسى أن يدون لنا فى نفس الوقت أخبار باقى الأقاليم والمدن المصرية التاريخية مثل الإسكندرية والفرما ودمياط والمنصورة ، وقفط وقوص والأشمونين والفيوم وغيرها ،

---

(١) يفترض المستشرق جست فى مقاله المشار إليه ، أن المقريزى عدل عن عزمه فى معالجة هذا القسم بعد الإشارة إليه فى المقدمة . بيد أننا نستطيع أن نفترض أن المقريزى استعاض عنه بكتابة رسالته المسماة « إغاثة الأمة بكشف الغمة » التى نشير إليها فيما بعد . وقد نشرت هذه الرسالة بعناية المرحومين الدكتورين مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال .

وما تحتويه من آثار وذكريات ، ثم لا ينسى بعد هذا كله أن يخصص للنيل عدة فصول ونبذ تتعلق بجغرافيته وخواصه وأحواله كما عرفت وأثرت حتى عصره .

على أن هذا القسم الذى يشغل أكبر حيز فى خطط المقريزى ، ليس أنفس ما فيها ، ذلك أن المقريزى يذهب فى الابتكار إلى الذروة ، فيعنى بتدوين التاريخ السياسى والاقتصادى والفكرى والاجتماعى لمصر الإسلامية . وهى أبدع فكرة خطرت لمؤرخ مسلم . ولسنا نعرف أنها خطرت لمؤرخ قبل المقريزى . وقد خطر لابن خلدون قبل المقريزى أن يكتب خواص السياسة والتفكير والاقتصاد فى الدول الإسلامية ؛ ولكنه بحثها من الناحية العامة ليرتب عليها مبادئ وقوانين عامة ، ولم يعن أن يبحث منها ما تعلق بمجتمع إسلامى بعينه إلا للتمثيل والاستشهاد . وقد التقى المقريزى بشيخ الفقه التاريخى فى القاهرة حيث لبث حيناً قطب التفكير والبحث ، وتعرف به ، وأعجب بنظرياته ومباحثه ؛ ودرس مقدمته ، وكان ذلك بلا ريب قبل أن يبدأ فى كتابة الخطط ، فى ختام المائة الثامنة وأوائل المائة التاسعة . وكان المقريزى يومئذ فتى يضطرم شغفاً بالتنقيب والبحث ، وكان لآراء ابن خلدون ونظرياته التاريخية أثر كبير فى تطور الرواية التاريخية ، ومن المرجح أنها كانت ذات أثر فى لفت المقريزى إلى العناية بناحية السياسة والاجتماع فيما يدون من تاريخ مصر . بيد أنه لم يكن فى ذلك ناقداً ولا محللا ، وإنما كان مصوراً مبدعاً فقط فيما أخرج من صور المجتمع المصرى .

ومما يجدر ذكره أن أثر تفكير ابن خلدون يبدو واضحاً فى رسالة كتبها المقريزى عنوانها « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وفيها يعالج الظواهر والعوامل التى أدت إلى خراب مصر وإفقار المجتمع المصرى ، وفيها ينحو نحو ابن خلدون تقريباً فى الشرح والتعليل .

وهذه الصور آية فى الطرافة ، ومحتوياتها وتفاصيلها آية فى الابتكار . والمادة نفسها هى التى أوحت إلى المقريزى طرافته وابتكاره . فقد شهدت القاهرة أيام الخلفاء والسلاطين مجتمعات زاهرة شائقة ، وشهدت ضروباً شتى من الحكومات والنظم ، وتقلب المجتمع القاهرى ، وهو ذلك المجتمع الطروب الضاحك المرح ، فى أطوار متباينة من الأفراح والمحن ، فكثيراً ما نراه يختال بالفخار والزهو إذا كلل جبينه فتح جديد أو هبت عليه ريح النعماء ، وكثيراً ما نراه عبوساً فى المحنة ،

يستكين وحشة وألماً إذا ألم به رزء أو نزل به وباء أو ضائقة . ويقدم إلينا المقريزى هذا المجتمع فى أثوابه المختلفة ، زاهية وقاتمة . ويعنى بادئ بدء بشرح النظم السياسية والاقتصادية التى توالت على مصر ، وما يتعلق بتطبيقها من تفاصيل عملية . ويحدثنا خلال ذلك عن الخراج وديوان الأموال والقطائع . ثم يحدثنا كيف تصدر القوانين ، وينظر الخليفة فى شئون الدولة وكيف يعين وزراءه وقواده وبأى الأساليب يقوم الوزراء والقواد بتنفيذ الأوامر والقوانين ومعالجة الشؤون العامة ، وكيف يعاملهم الخليفة ، ويجالسهم ويحادثهم ، وكيف تقام المآدب الرسمية وترتب الحفلات العامة ؛ وكيف يعيش الخليفة فى داخل قصره ، وكيف ينظم موكبه إذا خرج للصلاة أو للرياضة ، أو للحرب ، وعلى العموم كيف تدار الشئون العامة ، من تشريعية ، وحربية ، ومالية ، سواء فى عهد الخلفاء أو السلاطين من بعدهم : كل ذلك يشرحه المقريزى بدقة شافية ووضوح ممتع . ويشرح إلى جانب ذلك أحوال المنشآت العامة كالثكنات ، ومصانع السلاح ، والسجون ، والمستشفيات ، والمعاهد ؛ والمدارس والتكايا ، والزوايا وما إليها جميعاً ، ويورد فى ذلك من الحقائق الغريبة ما لا نظفر به فى أثر آخر .

أما حياة الشعب الخاصة ، وعادات الأفراد ، وتقاليدهم ، وأحوالهم فى المعاملات ، والملبس والمأكل ، والأفراح والأتراح ، واللهو والرياضة ، والجد والهزل ، فقد عنى بها المقريزى عناية تثير الإعجاب . فهو يصور هذه الأطوار المتعاقبة من الحياة الاجتماعية المصرية أقوى تصوير وأبدعه . وفى وسعك أن تعرف من صوره كثيراً من خواص الشعب المصرى ، ونفسيته ، وعواطفه ، وطبقاته الاجتماعية ، وسائر عاداته وتقاليده فى هاتيك العصور . وقد نلاحظ أن المقريزى يورد بعض الروايات والوثائق التى يلقى عليها البحث الحديث كثيراً من الريب ، خصوصاً ماتعلق منها بعصور الإسلام الأولى . ولكن المقريزى ليس بناقد كما قدمنا ، ولم يرتب على هذه الروايات أو الوثائق نتائج معينة . كذلك نلاحظ أنه يعنى عناية خاصة بأخبار الفاطميين ، وأحوال المجتمع القاهرى فى عهدهم ، وربما تفوق فى عرض هذا القسم عليه فى الأقسام الأخرى من مؤلفه ، وهو ما يرجع على مايلوح إلى أنه ينتسب إلى آل البيت وإلى بنى عبيد أبناء فاطمة ؟ وإلى أنه كان يجيش على ما يروى بنزعة شيعية .

هذا وصف موجز لما تعرضه « خطط » المقريزى . وقد لبث هذا الأثر الخالد على كر العصور موضع التقدير والإعجاب من كل مؤرخ ومفكر ، وما يزال إلى يومنا من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الإسلامية . ولكن مجهود المقريزى عُرِّض للانتقاص من أحد أعلام عصره ، بل انكر عليه فضل وضعه وابتكاره ، ونسب إلى النقل والتزييف . والقائل بهذه التهمة الغريبة هو شمس الدين السخاوى[1] ؛ نسبها إلى المقريزى فى مؤلفاته أكثر من مرة ، وحمل عليه بشدة ، ورماه بالادعاء والضعف والسقط . والسخاوى من أقطاب التفكير والنقد فى القرن التاسع . ولكن سنرى أن هذه الحملة القاسية التى وجهها إلى المقريزى ، أبعد ما تكون عن النزاهة والحق ، وأنها بالعكس يطبعها التحامل والتناقض ، ويدحضها المنطق والحقائق المادية .

قال السخاوى فى ترجمته للمقريزى[2] ما يأتى :

« واشتغل كثيراً ، وطاف على الشيوخ ، ولقى الكبار ، وجالس الأئمة فأخذ عنهم ... ، ونظر فى عدة فنون ، وشارك فى الفضائل ، وخط بخطه الكثير ، وانتهى ، وانتق ، وقال الشعر والنثر وأفاد » .

وقال بعد أن عدّد مؤلفاته : « بلغت مجلداته نحو المائة ، وقد قرأت بخطه ، أن تصانيفه زادت على مائتى مجلد كبار ، وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس . وكان حسن المذاكرة بالتاريخ ، لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك كثر له فيهم وقوع التحريف والسقط ... وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو ، واطلاع على أقوال السلف ، وإلمام بمذاهب أهل الكتاب ، حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه ، مع حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ... كل ذلك مع تبجيل الأكابر له ، إما مداراة له خوفاً من قلمه ، أو لحسن مذاكرته .

« وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة فى الجاهلية وغيرها . وأما الوقائع

---

(١) ولد السخاوى سنة ٨٣١ هـ . وتوفى سنة ٩٠٢ هـ . (١٤٢٧ — ١٤٩٧ م) .

(٢) أورد السخاوى هذه الترجمة فى كتابيه : « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » (نسخة دار الكتب الفتوغرافية ، المجلد الأول — القسم الثالث ص ٥٣٣) . وفى المطبوع ج ٢ ص ٢١ — ٢٥) . والتبر المسبوك فى ذيل السلوك » (طبع بولاق) ص ٢١ .

الإسلامية ، ومعرفة الرجال وأسماؤهم ، والجرح والتعديل ، والمراتب والسير ، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه ، فغير ماهر فيه... » [١] .

هكذا يتردد السخاوى فى ترجمته للمقريزى بين المديح والذم ، وبين التقدير والانتقاص ؛ على أنه لا يقف عند هذا التعميم بل يذهب إلى صوغ التهم المعينة فيقول فى سياق حديثه :

« وأقام ببلده (أى المقريزى) عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر ذكره ، وبعد فيه صيته ، وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمُسَوَّدة الأوْحدِى ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » .

ثم يكرر السخاوى هذه التهمة فى كتاب وضعه فى أواخر حياته سنة ٨٩٧ هـ . بمكة هو : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التواريخ » فيقول : « وكذا جمع خططها (أى مصر القاهرة) المقريزى ، وهو مفيد . قال لنا شيخنا : إنه ظفر به مسودة لجاره الشّهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوْحَدِى ؛ بل كان بيّض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه » [٢] .

فمن هو الأوحدى هذا الذى نُسب المقريزى إلى اختلاس أثره ؟

لقد ذكرنا أنه من كتاب القرن الثامن (٧٦١ — ٨١١ هـ) ، وأنه ألف كتاباً فى « الخطط » لا نعرف عنه سوى الإسم . ونزيد هنا ما ذكره السخاوى فى ترجمته حيث يقول : « وبرع (أى الأوحدى) فى القرآن والأدب ، وجمع مجاميع ، واعتنى بالتاريخ وكان لهجاً به ؛ وكتب مسوّدة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأجاد وبيض بعضها ؛ فبيضها التقى المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات ... ... وفى ترجمته فى عقود المقريزى [٣] فوائد ، واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط ، وأنه ناوله ديوان شعره » [٤] .

وذكره السيوطى ضمن مؤرخى مصر ، وقال : إنه « كان لهجاً بالتاريخ ،

---

(١) وردت هذه الفقرة الأخيرة فى « الضوء اللامع » فقط ، ولم ترد فى « التبر المسبوك » .

(٢) الاعلان بالتوبيخ — نسخة دار الكتب المخطوطة ص ١٥٧ . والمطبوع ص ١٣١ .

(٣) أى كتاب المقريزى المسمى « درر العقود الفريدة » الذى سبقت الإشارة إليه .

(٤) الضوء اللامع — القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٤٦٩ .

ألف كتاباً كبيراً فى خطط مصر والقاهرة ، وكان مقرئاً أديباً ، ومات فى جمادى الأولى سنة ٨١١ » (١) .

وهكذا ينسب السخاوى تهمة الاختلاس إلى المقريزى أينما سنحت له فرصة الكتابة ، وأينما جاء ذكر الخطط .

ويجب أولا لتمحيص هذه التهمة ، أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى كتابة « خططه » ، لأنه لم ينس أن يشير إلى هذه المصادر فى مقدمته حيث يقول : « وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء : وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم . والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس . والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم ، فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه ، لأخلص من عهدته ، وأبرأ من جريرته ؛ فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر ، واشتمل علينا المصر ، صار لقلة إشرافه على العلوم ، وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ ، وجهل مقالات الناس ، يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه ؛ ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله ، وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ، ولا يحتاج فى الشريعة إليه ، وحسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ ، فإنى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثنى ، إلا أن لا يُحتاج إلى تعيينه ، أو أكون نسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون ، ولله الحمد ، غير متهم ولا ظنين »(٢) .

ثم يتبع المقريزى ذلك بكلمة عن كتّاب « الخطط » ، يشير فيها إلى جهود الكندى والقضاعى وابن بركات النحوى والحوّانى وابن عبد الظاهر وابن المتوّج ، ويذكر أن ابن المتوج كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وأنه يصل فى كتابه إلى ذكر أحوال مصر وخططها ، إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . على أن المقريزى لا يقف عند هذا التعميم فى ذكر مصادره ، بل يعود فى سياق كتابه ، فيذكرها بأدق تخصيص وأوضحه ، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصفاً ،

---

(١) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ — وظاهر أن السيوطى يلخص من أقوال السخاوى .

(٢) الخطط ج ١ ص ٦ .

إلا أسنده إلى مصدره ومؤلفه . فأما أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الإسلام ، فيرجع فى معظمها إلى ابن عبد الحكم ، وابن يونس ، والمسعودى ، وابن وصيف شاه . ويرجع فى أخبار الفسطاط الأولى ، إلى الكندى ، وابن زولاق . وفى وصف النيل وغيره من الموضوعات الجغرافية إلى المسعودى. وفى عصر الدولة الفاطمية ، وهو من أبدع أقسام الخطط ، يرجع المقريزى بالأخص إلى ابن زولاق والمسبِّحى وابن المأمون والجوّانى ؛ وقد عاشوا جميعاً فى عصر الفاطميين ، وكتبوا عن مشاهدة ومعرفة وثيقة . وفيما يلى ذلك من أخبار مصر والقاهرة ، يرجع المقريزى إلى القاضى الفاضل ، وابن عبد الظاهر ، ثم ابن المتوج . وهكذا يستقى المقريزى مادته تباعاً من سلسلة متصلة من المصادر ، تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى فى سنة ٢٥٧ هـ ، وتنتهى بابن المتوج المتوفى فى سنة ٧٣٠ هـ ؛ مسنداً كل اقتباس إلى مؤلفه بمنتهى الصراحة والدقة[١] .

على أنه إذا كان من الصعب أن نجد فى هذه الأقسام المسندة إلى مصادرها الوثيقة ، أثراً أو لمحة مما يؤيد اتهام السخاوى لمؤلف الخطط ، فإنه يصعب أيضاً أن نجد ما يؤيد هذا الاتهام فى بقية الخطط ، أعنى ما تعلق بأخبار مصر القاهرة خلال القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أو بعبارة أخرى ، فى العصر الذى أدرك المقريزى شيوخه ، ثم عاش فيه . والمقريزى صريح فى أنه اعتمد على من أدرك « من شيخة العلم وجلة الناس » . وأما العصر الذى عاش فيه المقريزى فهو يمتد من أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع ، ويشغل فى الخطط حيزاً كبيراً . وقد عاصر المقريزى من ملوك مصر عشرة متعاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين فى تطور مصر القاهرة والمجتمع المصرى ؛ الأولى : فى أواخر القرن الثامن حيث كانت مصر القاهرة بعد ما أصابها من وباء وعفاء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ؛ والثانية : بعد المحن التى توالت عليها بين سنتى ٨٠٦ و ٨١٢ هـ . من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقريزى فى أخبار هذين العصرين وأحوالها وآثارهما . وكان المقريزى بحكم الوظائف التى تولاها ، وحظوته لدى بعض الملوك الذين عاصرهم ،

---

(١) راجع مقال المستشرق جست المشار إليه ، فهو يستعرض مراجع المقريزى ومصادره بإسهاب ، ويقرنها بتعليقات مفيدة (J, R. A. S) سنة ١٩٠٢ — ص ١٠٣ .

متمكناً من سبل البحث والتحرى ، والاستطلاع والمعاينة . ونفس الوقائع المادية هنا ، تهدم تهمة السخاوى من أساسها . ذلك أن الأوحدى الذى تسب المقريزى إلى اختلاس أثره ، قد توفى كما رأينا فى أوائل سنة ٨١١ هـ ، وقد بدأ المقريزى كما رأينا بكتابة « خططه » بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ واستمر فى كتابتها حتى سنة ٨٤٣ هـ ، أعنى قبل وفاته بنحو عامين ، فليس من الممكن عقلا أن يكون المقريزى قد نقل عن الأوحدى شيئاً يتعلق بأحوال هذه المرحلة ، والأوحدى قد توفى قبلها ولم يدرك شيئاً منها .

وما كتبه المقريزى عن خطط مصر والقاهرة منذ أوائل القرن الثامن إلى قبيل وفاته ، يشغل من مؤلفه أكثر من النصف ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المقريزى يقتبس من أسلافه كتاب الخطط وغيرهم ، بطريق الإسناد ، شذوراً تعدّ بالمئات ، كان ما تبقى مما يمكن أن يكون موضع الاتهام جزءاً يسيراً جداً ، يصعب علينا أن نعتقد أن المقريزى ، وهو إمام عصره فى التاريخ والرواية ، كان بحاجة إلى اختلاسه ، خصوصاً وقد استعرض تاريخ مصر من قبل فى عدة مؤلفات جليلة تشهد بفائق مقدرته وبراعته .

وقد رأينا أن السخاوى يُرجع الرواية فى اتهام المقريزى إلى شيخه فى كتاب « الإعلان بالتوبيخ » ، وإن كان يوردها من عنده فى « الضوء اللامع » ، فيقول فى إسناد التهمة : « قال لنا شيخنا إنه (أى المقريزى) ظفر به (أى الخطط) مسوّدة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه » . وشيخ السخاوى المراد هنا هو القاضى ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير[١] ، معاصر المقريزى وصديقه[٢] ؛ وإذاً فمصدر الإتهام الحقيقى طبقاً لهذا القول هو ابن حجر شيخ السخاوى ، وعنه ينقل السخاوى التهمة ، ويرددها فى مختلف المواطن . ولكن إليك ما يقوله ابن حجر عن المقريزى ، ومجهوده التاريخى ، وهو مما أورده السخاوى فى ترجمته أيضاً :

---

(١) راجع مقدمة السخاوى فى « الضوء اللامع » حيث يوضح أن المراد بشيخه دائماً هو الحافظ ابن حجر .

(٢) ولد ابن حجر سنة ٧٧٣ هـ وتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

« وقد ذكره شيخنا فى القسم الأخير من معجمه، الذى وقف صاحب الترجمة عليه بقوله : وله (أى المقريزى) النظم الفائق ، والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصاً فى تاريخ القاهرة فإنه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » .

ويذكر ابن حجر أيضاً فى ديباجة كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » المقريزى ضمن مصادره ، ويصفه بقوله : « رفيقى الإمام الأوحد المطلع تقى الدين المقريزى ... »[1] .

والواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره ، وانتقاصه لأقدارهم ، ونقده لجهودهم ، لم تقف عند المقريزى ولم تقتصر عليه ؛ فنراه فى « الضوء اللامع » يهاجم طائفة كبيرة من أعلام هذا العصر ومؤرخيه ، بل لم ينج ابن خلدون نفسه من لومه وتعريضه[2] . وقد أثار السخاوى بحملاته هذه دوائر التفكير فى عصره ، ونشبت بينه وبين غير واحد من أعلام العصر ، معارك قلمية ملتهبة ، ولا سيما جلال الدين السيوطى ؛ فقد اضطرم الجدل بينهما حينا ، وتبادلا مر الحملات والتهم ، ونسب كل منهما الآخر إلى الاختلاس والنقل ؛ ووصف السيوطى معجم السخاوى فى مقامة شديدة كتبها للرد عليه فى قوله : « ما ترون فى رجل ألَّف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونَصَبَ لأكل لحومهم خِوَاناً ، ملأه بذكر المساوى وثلب الأعراض ، وفوَّقَ فيه سهاماً على قدر أغراضه ، والأعْرَاضُ هى الأغْراض »[3] .

وهكذا يبدو اتهام السخاوى للمقريزى وانتقاصه لجهوده التاريخى باطلا ، يطبعه التحامل والتناقض ، وتدحضه الحقائق والوقائع المادية ؛ بل يبدو السخاوى أشد تحاملا وتناقضاً إذا علمنا أنه ، وهو ينتقص مجهود المقريزى ويزيفه ، لا يرى بأساً من الاعتماد عليه والتنويه به فى مقدمة « الضوء اللامع » .

ولم يلق هذا الاتهام كبير اهتمام فى دوائر البحث الحديث ، غير أن الأستاذ

---

(١) راجع ديباجة رفع الإصر (المنشور بعناية وزارة التربية ١٩٥٧) القسم الأول ص ٢ .

(٢) تراجع فى الضوء اللامع تراجم ابن خلدون ، وأبى المحاسن بن تغرى بردى ، والبقاعى ، ففيها أمثلة واضحة من تحامل السخاوى .

(٣) أسمى السيوطى هذه المقامة : « الكاوى على تاريخ السخاوى » وهى مخطوط بدار الكتب (رقم ١٥١٠ أدب) . وسنعود إلى ذلك فى ترجمة السيوطى .

بروكلمان Brockelmann قد أشار إليه فى ترجمته للمقريزى فى دائرة المعارف الإسلامية(١) ، حيث وصف « الخطط » بأنها أهم آثار المقريزى ، ثم قال : « ولكن الظاهر أنه نقل معظم ما لم ينسب النقل فيه ، عن كتاب للأوحدى ، ظفر به على قول السخاوى ، وهو قول حسن التأييد » . ويعتقد المستشرق جست من جهة أخرى ، أن المقريزى قد نقل فى خططه شذوراً من الأوحدى دون الإسناد إليه(٢) . على أن الأستاذ بروكلمان لم يقدم دليلا لتأييد هذا الرأى ، وقلما يشاركه فيه أحد ممن كتبوا عن المقريزى ومجهوده . وبالعكس فإن البحث الحديث يكبر مجهود المقريزى ويحله المقام الأول فى تراث التاريخ الإسلامى .

بقى فرض واحد يمكن الأخذ به ، وهو أن المقريزى ربما انتفع ضمن مصادره بمجهود الأوحدى ؛ وهو ما يشير إليه السخاوى فى ترجمة الأوحدى حيث يقول: « وفى ترجمته فى عقود المقريزى فوائد ، واعترف (أى المقريزى) بانتفاعه بمسوداته فى الخطط » . هذا إذا سلمنا بصحة نسبة هذا الاعتراف للمقريزى، لأنه لم يصل إلينا من عقود المقريزى — أو درر العقود الفريدة — سوى قطعة ضئيلة . وقد نميل إلى التسليم بهذا الفرض ، بل هو فى رأينا يقوى الريبة فى اتهام السخاوى، لأن هذا الاعتراف ، إن صح ، فإنما يشهد لصاحبه بالأمانة والصراحة . وشتان ما بين الاختلاس والانتفاع .

ومن جهة أخرى فإن ما لعل المقريزى قد انتفع به من « مسودات » الأوحدى لا يعدو اليسير التافه بالنسبة لمجموع الخطط . فقد رأينا فى استعراض مصادر المقريزى أن ما كتبه عن الخطط عصره ، وما اقتبسه بطريق الإسناد ، يستغرق معظم مجهوده فى الخطط ، وأن الباقى المرسل مما لا نسبة فيه يشغل فيها قسماً صغيراً جداً ؛ ومع ذلك ففى وسعنا أن نتعرف فى هذا القسم أيضاً ، على كثير كثير من المصادر التى نقل عنها المقريزى بطريق التلخيص والاقتباس ، ومعظمها يرجع إلى مجهود ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق .

والخلاصة أن هذا الإتهام الذى يلح السخاوى فى نسبته لمؤرخ الخطط ، لا يثير

---

(١) Ency. de L'Islam-Art.Makrizi

(٢) المستشرق جست فى مقدمته لكتاب تسمية الولاة والقضاة للكندى (ص ٤٨) ، بيد أنه فى مقاله المشار إليه فيما تقدم (J. R. A. S) سنة ١٩٠٢ ص ١٠٣ وما بعدها ، يبحث مصادر المقريزى فى الخطط ويحللها تحليلا وافيا ، ويشيد بمجهوده ، وينوه بأهميته ونفاسته .

فى نظرنا ذرة من الريب فى عظمة المجهود التاريخى الذى تقدمه إلينا « الخطط » ، وفى روعته وطرافته .

إن السخاوى كاتب ومحدّث ومؤرخ بارع ، ونقادة لاذع ، قوى البيان والحجة . ولكن التحامل ، وربما الافتراء ، يشوب هنا نقده ؛ والظواهر والأدلة تنهض كلها لتهدم زعمه .

يقول العلامة المستشرق الروسى إجناتيوس كراتشكوفسكى ، معلقاً على هذه المسألة الشائكة : « هذا وقد وجد رأى السخاوى عن المقريزى بعض التعضيد لدى جولدسيهر ، وبروكلمان . بيد أن هذا لا يعنى بأى حال اعتبار كتاب « الخطط » اختلاساً لكتاب الأوحدى . وقد أخضع تلك المسألة كلها لتحليل دقيق وفريد ، العلامة المصرى المعاصر محمد عبد الله عنان ، وخرج من ذلك بنتائج حازت القبول لدى الجميع »[1] .

---

(١) « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » المترجم إلى العربية بقلم الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم — القسم الثانى — ص ٤٨٥ .

الفصل الخامس

الحافظ ابن حجر العسقلانى

(٧٧٣ — ٨٥٢ هـ) : (١٣٦١ — ١٤٤٨ م)

كان الحافظ ابن حجر قطباً من أقطاب الحديث والعلوم الدينية ، وهو أجدر بأن يوضع فى ثبت أكابر الحفاظ والمحدثين منه فى ثبت المؤرخين . ومع ذلك فقد كان ابن حجر مؤرخاً فى نفس الوقت ، وله تراث تاريخى قيم . ومن المحقق أنه اشتق صفات المؤرخ الثبت من براعته كمحدث ، بلغ الذروة فى شئون الجرح والتعديل ، وفى تحقيق الرواية ونسبة الحديث .

ونود أن نقول بهذه المناسبة ، إن الحديث والتاريخ علمان متلازمان فى الرواية الإسلامية ، وإن كثيراً من أكابر المؤرخين المسلمين ، هم فى نفس الوقت من أكابر المحدثين ، ويكفى أن نذكر على سبيل التمثيل ابن جرير الطبرى ، وابن الأثير الجزرى ، والذهبى ، وابن عساكر ، وابن خلدون ، وابن حجر ، والمقريزى ، والسخاوى ؛ فقد كان هؤلاء جميعاً من علماء الحديث ، ومنهم من ينظم فى سلك أكابر الحفاظ ، ومن ثم فقد كانت صفة الحافظ التى توجت بها براعة ابن حجر فى الحديث ، تضفى فى نفس الوقت على صفته كمؤرخ ، براعة خاصة فى التثبت والتحقيق .

وهو قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد بن محمود بن أحمد العسقلانى الأصل ، ثم المصرى المولد والنشأة ، القاهرى الدار ، ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه(١) . ولد بمصر العتيقة (الفسطاط) فى ١٢ شعبان سنة ٧٧٣ هـ (١٣٦٢ م) ، ونشأ يتيماً ، حيث مات أبواه بالتعاقب وهو طفل ، فكفله وصى والده زكى الدين الخروبى كبير التجار بمصر ؛ وحينما رحل هذا الوصى إلى الحج سنة أربع وثمانين ، استصحب معه

---

(١) الضوء اللامع ، فى ترجمة ابن حجر ج ٢ ص ٣٦ .

الصبي ، وهو فى نحو الثانية عشرة من عمره . ودرس ابن حجر بمكة وهو فى هذه السن المبكرة الحديث على بعض علمائها . ولما عاد إلى القاهرة درس على جماعة كبيرة من علماء عصره ، وفى مقدمتهم شمس الدين القطان ، وبرهان الدين الإبناسي ، وسراج الدين بن الملقن ، ونور الدين الآدمى ، وسراج الدين البلقينى ، وشمس الدين الغمارى ، والعز بن جماعة ، وأبو إسحاق التنوخى ، وأبو الفرج ابن الشحنة ، وزين الدين العراقى ، والبدر البشتكى ، والشهاب البوصيرى ، وغيرهم من أعلام العصر .

ودرس ابن حجر الفقه واللغة وعلوم القرآن . وشغف بالأخص بالحديث « وأقبل عليه بكليته وطلبه من سنة ثلاث وتسعين »[١] . وتحول من منزله القديم إلى مدينة القاهرة وسكنها قبل نهاية القرن[٢] . وقام بعدة رحلات دراسية فى البلاد المصرية والشامية والحجازية ، وفى اليمن ، وأخذ كثيراً « واجتمع له من الشيوخ المشار إليهم والمعول فى المشكلات عليهم ، ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره » . وكان أخص أساتذته « التنوخي فى معرفة القراءات ، والعراقى فى معرفة علوم الحديث ومتعلقاته ، والهيثمى فى حفظ المتون واستحضارها ، والبلقينى فى سعة الحفظ وكثرة الاطلاع ، وابن الملقن فى كثرة التصانيف ، والمجد الفيروزابادى فى حفظ اللغة واطلاعه عليها ، والغمارى فى معرفة العربية ومتعلقاتها ، والعز بن جماعة فى تفننه فى علوم كثيرة »[٣] .

وانكب ابن حجر على الحديث ، وخصه بجهوده « مطالعة وقراءة ، وإقراء ، وتصنيفاً وإفتاء » . وبلغت مصنفاته فى الحديث والفقه والتفسير ، نحو مائة وخمسين مصنفاً . وكان من ألمعها كتاب « فتح البارى بشرح البخارى » وهو مؤلف يصفه السخاوى بأنه لم يكن له نظير ، حتى انه انتشر فى الآفاق وتسابق إلى طلبه سائر ملوك الأطراف[٤] . ويقول لنا السيوطى بهذه المناسبة إن ابن حجر قد انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواه »[٥] . ووضع ابن حجر كتباً عديدة أخرى فى الفقه والحديث

(١) السخاوى فى الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) كانت دار ابن حجر الجديدة تقع بالقرب من المدرسة المنكوتمرية بحارة بهاء الدين .
(٣) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٤) الضوء اللامع ص ٣٨ . (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٠ .

وعلوم القرآن ، ومن ذلك كتاب « الإتقان فى فضائل القرآن » . وتعليق التعليق ، وتهذيب التهذيب ، والآيات النيرات فى معرفة الخوارق والمعجزات ، وبلوغ المرام بأدلة الأحكام ، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، ولسان الميزان ، والخصال المكفرة للذنوب ، وشفاء الغلل فى بيان العلل ، وغيرها مما يضيق المقام بسرده . وقد نشر معظم هذه الكتب .

وتولى ابن حجر منصب القضاء ، كمعظم فقهاء عصره ، وكان غير راغب فى توليه حينما ندب للنيابة فيه ، ولكنه قبل أخيراً حينما ندب لرياسته والاستقلال به . وكان ذلك فى سنة ٨٢٧ هـ . وقد حدث لابن حجر خلال توليه ، ما حدث لسلفه ابن خلدون من قبل ، حين ندب لتولى قضاء المالكية ، من توالى التعيين والعزل . وهكذا عين ابن حجر لمنصب القضاء ، وصرف عنه أو استقال منه غير مرة . ومن الغريب أن يرجع ذلك ، إلى نفس البواعث والظروف ، إلى منافسة الأقران ، ودسائس الحاشية السلطانية من جهة ، وإلى تدخل الأكابر وشفاعاتهم من جهة أخرى . وكان ابن حجر يتبرم بالقضاء ، حسبما يقول لنا السخاوى ، لما اشتد عليه عتب الأكابر بعدم إجابة شفاعاتهم ، واحتياجه لمداراة صغيرهم وكبيرهم . واستمر ابن حجر فى ولايته للقضاء إحدى وعشرين سنة ، ثم زهد فيه « بعد ما توالى عليه فيه من الإنكار والمحن » ، وصرف عنه نهائياً فى أوائل سنة ٨٥٢ هـ أعنى قبل وفاته بأشهر قلائل[١] .

وكان ابن حجر يشغل فى نفس الوقت عدة من مناصب التدريس الهامة ، فقد درس فى الحسينية والمنصورية والجمالية والشيخونية والصالحية والمؤيدية والصلاحية وغيرها من المدارس الشهيرة ، وولى مشيخة البيبرسية ، وولى الإفتاء بدار العدل ، والخطابة بالجامع الأزهر ، ثم بجامع عمرو .

واشتهر ذكر ابن حجر ، وبعد صيته ، وكثرت طلبته وارتحل الأئمة إليه ، وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى ، قال السخاوى : « وطارت فتواه التى لا يمكن دخولها تحت الحصر فى الآفاق ، وحُدث بأكثر مروياته خصوصاً المطولات منها . كل ذلك مع شدة تواضعه وحلمه وبهائه ، وتحريه فى مأكله ومشربه وملبسه وصيامه وقيامه ، وبذله وحسن عشيرته ، ومزيد مداراته ، ولذيذ محاضراته ،

---

(١) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٨ .

ورضى أخلاقه ، وميله لأهل الفضائل ، وإنصافه فى البحث ، ورجوعه إلى الحق ، وخصاله التى لم تجتمع لأحد من أهل عصره »[١] .

وكان ابن حجر إلى جانب تضلعه فى الحديث والفقه ، أديباً كبيراً ، وشاعراً ينظم الجيد من الشعر ، وقد أورد لنا تلميذه السخاوى من نظمه قوله :

خليلى ولىّ العمر منا ولم نتب ونـنوى فعال الصالحـات ولكنا
فحتى متى نبنى بيوتاً مشـيدة وأعمارنا منها تهـد وما تبنى

وقـوله :

لقـد آن أن نتـقى خالقـاً إليـه المـآب ومنـه النشور
فنحن لصـرف الردى ما لنا جميعاً من الموت واق نصـير

ومن نظمه قوله من قصيدة طويلة فى المديح النبوى :

إن كنت تنكر حباً زادنى كلفا حسبى الذى قد جرى من مدمع وكفا
وإن شككت فسل عاذلى شجنى هل بت أشكو الأسى والبث والأسفا
كدرت عيشاً تقضى فى بعادكم وراق منى نسيب فيكم وصَـفا
سرتم وخلفتمو فى الحى ميت هوى لولا رجاء تلاقيكم لقـد تلفا

وبلغ ابن حجر فى أواخر حياته أوج مجده العلمى ، وتوفى عن سن عالية فى أواخر شهر ذى الحجة سنة ٨٥٢ هـ . وكانت جنازته حافلة ، وشهد الصلاة عليه السلطان والخليفة وجمهرة من الأكابر والعظماء .

— ٢ —

هذا عن ابن حجر المحدث والفقيه . ويبقى أن نتحدث عن ابن حجر المؤرخ . لقد ترك لنا ابن حجر ، تراثاً تاريخياً هاماً ، يضعه فى صف الأعلام من مؤرخى مصر الإسلامية ، وقد وضعه السيوطى بالفعل فى ثبت المؤرخين ، بعد ما وضعه فى ثبت الحفاظ[٢] .

ويحتوى هذا التراث على ثلاثة مؤلفات هامة :

أولها ، كتاب « إنباء الغَمر بأنباء العُمر » ، وهو مؤلف ضخم يقع فى

(١) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٩ .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٦ .

مجلدين كبيرين ، يضمان نحو ألف صفحة كبيرة ، ويقدم إلينا ابن حجر فى مقدمته ، مؤلفه ، وبرنامجه فى تأليفه ، ومصادره التى اعتمد عليها ، على النحو الآتى :

« هذا تعليق جمعت [فيه] حوادث الزمان الذى أدركته منذ مولدى سنة ثلاث وسبعين وسبع مائة وهلم جراً ، مفصلا فى كل سنة ، عن وفيات الأعيان ، مستوعباً لرواة الحديث ، خصوصاً من لقيته وأجازنى . وغالب ما أورد فيه ما شاهدته أو تلقفته ممن أرجع إليه ، أو وجدته بخط من أثق به من مشايخى ورفقتى ، كالتاريخ الكبير للشيخ ناصر الدين ابن الفرات ، وقد سمعت عليه جملة من الحديث ، وصارم الدين ابن دقماق ، وقد اجتمعت به كثيراً ، وغالب ما أنقله من خطه ومن خط ابن الفرات ، عن الحافظ العلامة شهاب الدين أحمد ابن علاء الدين حجى الدمشقى ، وقد سمعت منه وسمع منى ، والفاضل البارع المفنن تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، والحافظ العالم شيخ الحرم تقى الدين بن محمد بن أحمد بن على الفاسى القاضى المالكى بمكة . والحافظ المكثر صلاح الدين خليل بن محمد الإقفهسى وغيرهم . وطالعت عليه تاريخ القاضى بدر الدين محمود العينى . وذكر أن الحافظ عماد الدين ابن كثير عمدته فى تاريخه ، وهو كما قال . لكن منذ قطع ابن كثير ، صارت عمدته على تاريخ ابن دقماق حتى كان يكتب منه الورقة الكاملة متوالية ، وربما قلده ، وفيما يتهم منه حتى اللحن الظاهر . وأعجب منه أن ابن دقماق يذكر فى بعض الحادثات ما يدل أنه شاهدها ، فيكتب البدر كلامه بعينه بما تضمنه ، وتكون تلك الحادثة وقعت بمصر وهو بعد فى عنتاب . ولم أتشاغل بتتبع عثراته ؛ بل كتبت منه ما ليس عندى ، بما أظن أنه اطلع عليه من الأمور التى كنا نغيب عنها ويحضرها .

« وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث ، أن يكون ذيلا على تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير ، فإنه انتهى فى ذيل تاريخه إلى هذه السنة . ومن حيث الوفيات ، أن يكون ذيلا على الوفيات التى جمعها الحافظ تقى الدين بن رافع ، فإنها انتهت إلى أوائل هذه السنة » [١].

---

(١) من ديباجة كتاب « إنباء الغمر بأنباء العمر » من نسخته المخطوطة المحفوظة بمكتبة الجامع الأزهر (برقم ١٠٦٦٦ عمومية) . وهى نسخة تقع فى مجلدين كبيرين يحتوى أولهما على ٣٠٨=

وقد كان المفروض من مشروع الكتاب ، وهو تدوين حوادث العمر المشاهدة أو المعاصرة ، أن يقتصر على تاريخ مصر ، ولكن الواقع أنه ، وإن كان يحيط إحاطة تامة بحوادث التاريخ المصرى فى الحقبة التى يتناولها (٧٧٣ — ٨٥٠ هـ) ، فإنه مع ذلك يتعدى إلى تدوين ما يقع فى الأمم الإسلامية الأخرى ، من التركستان إلى المغرب ، فيذكر لنا تاريخ التتار فى سمرقند وخراسان وفارس ، ويتبسط فى ذكر تاريخ تيمورلنك وفتوحاته ، وتاريخ ممالك الجزيرة وآسيا الصغرى مثل مملكة الروم «الترك العثمانيين» وإمارات أرزن ، وماردين ، ونصيبين ، وحصن كيفا ، ومملكة العراق . ثم يذكر لنا تاريخ أمم الغرب الإسلامى ، مثل مملكة بنى مرين فى المغرب ، ومملكة بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبنى الأحمر فى الأندلس وهكذا ، هذا عدا ما يذكره من حوادث مكة والمدينة واليمن . وهو يتبع نظام الحوليات والشهور والأيام فى تدوين الحوادث . ثم يُتبع حوادث كل سنة بأعيان الوفيات . وتراجم الوفيات قصيرة ، والمطول منها قليل . بيد أنه من الواضح أن ابن حجر يضفى على حوادث التاريخ المصرى عناية خاصة ، ويفيض فى ذكرها إفاضة شافية ، ولا سيما ما تعلق منها بحوادث مصر الداخلية وحوادث السلطنة وانقلاباتها بنوع خاص ؛ فهو مثلا يقدم إلينا رواية مسهبة ضافية ، عن حوادث الفتنة التى اضطرمت فى سنة ٧٩١ هـ بخروج الأمير يلبغا الناصرى فى الشأم ، ضد السلطان الظاهر برقوق ، وما ترتب على ذلك من خلع الظاهر ، واضطراب أمر السلطنة بعض الوقت . ثم هو فى ثبت الوفيات يذكر أحياناً وفيات الأعيان من غير المصريين ، مثل الترك والمغاربة وغيرهم ، وقد يذكر وفيات النساء أحياناً .

ويعتبر كتاب « إنباء الغمر » مصدراً قيماً من مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى الحقبة التى يتناولها ؛ وقد كان ابن حجر بمركزه العلمى الرفيع ، وصلاته

= لوحة مزدوجة من القطع الكبير . وينتهى بحوادث سنة ٨١١ هـ . ويحتوى الثانى على ٢٢١ لوحة كبيرة مزدوجة وينتهى بحوادث سنة ٨٥٠ هـ ووفياتها . والنسخة جيدة الحفظ بالرغم من أنها كتبت حسبما سجل فى نهاية المجلد الثانى فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين وثمانمائة . وقد كتب هذا المجلد فيما يبدو بخط آخر غير خط المجلد الأول . وقد نقلت دار الكتب المصرية من هذه النسخة نسخة حديثة بتاريخ ١٣٢٩ هـ . وتحفظ بها برقم ٢٤٧٦ تاريخ . هذا وقد بدئ بإخراج « إنباء الغمر » بمدينة حيدر آباد بالهند ، وصدر منه حتى اليوم مجلدان .

العديدة مع أكابر رجال الدولة ، فى مركز يمكنه من تتبع الحوادث العامة ، ولا سيما حوادث السلطنة ، بكثير من الدقة والتحقيق .

وثانيها ، كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، وهو معجم كبير ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجرى ، من سنة إحدى وسبعمائة إلى آخر سنة ثمانى مائة « من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء » ، وذلك سواء من مصر أو مختلف البلاد الإسلامية الأخرى ، وعنى فيه مؤلفه عناية خاصة برواة الحديث . ويعـــدد لنا ابن حجر مصادره فى ديباجته ، وفى مقدمتها « أعيان النصر » للصفدى و « مجانى العصر » لأبى حيان ، و « ذيل النبلاء » للحافظ الذهبى ، و«الوفيات» للعلامة تقى الدين بن رافع ، ومما جمعه « صاحبنا » تقى الدين المقريزى فى أخبار الدولة المصرية وخططها إلى غير ذلك[1] .

وثالثها ، كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » ، وهو معجم لقضاة مصر ، الذين تولوا قضاءها منذ الفتح الإسلامى إلى آخر القرن الثامن الهجرى . وقد اعتمد ابن حجر فى تأليفه على من سبقه فى معالجة هذا الموضوع ، وبالأخص على كتاب أبى عمر الكندى « تسمية قضاة مصر » ، وذيله لأبى الحسن بن زولاق ، ثم على سلسلة من التواريخ المتعاقبة ، ذكرها ابن حجر فى مقدمته . وقد استفاد ابن حجر بنوع خاص من الإطلاع على كتاب المقريزى « المقفى » فى تاريخ علماء مصر . واسترشد فى وضع كتابه بأرجوزة وضعها شمس الدين محمد بن دانيال الكحال فيمن ولى القضاء بمصر ، فوضع كتابه لترجمة من ورد « ذكرهم فى الرجز المذكور »[2] . وقد رتب ابن حجر كتابه أولا على نظام الطبقات والسنين ، ولكن تلميذه العز الحنبلى رتبه بعد وفاته على حروف المعجم ، وأصلح كثيراً من أخطائه .

وقد كتب السخاوى ذيلا على كتاب شيخه « رفع الإصر » ، تناول فيه

---

(١) وقد صدر كتاب « الدرر الكامنة » عن مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر أباد بالدكن (الهند) فى أربعة مجلدات كبيرة (سنة ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ) . ونشر بعد ذلك بمدينة القاهرة .

(٢) ابن حجر فى مقدمة كتاب رفع الإصر المطبوع ص ١ .

تراجم القضاة المصريين حيث وقف ابن حجر وسماه « ذيل رفع الإصر » .

ولابن حجر عدة تصانيف أخرى فى التاريخ منها كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » ، وهو كتاب يدل اسمه على موضوعه . وقد رتبه ابن حجر على أربعة أقسام فى تصنيف الصحابة منذ المخضرمين منهم ، الذين حضروا الجاهلية والإسلام ، وتتبع فيه من تنطبق عليهم صفة الصحابة الحقيقية ، ومنها «الإعلام بمن ولى مصر فى الإسلام » ، و« طبقات الحفاظ » ، ومختصر « البداية والنهاية » لابن كثير .

ويكتب ابن حجر التاريخ بطريقة عادية غير ناقدة ، متبعاً على الأغلب طريقة الرواية المجردة . بيد أنه يتخذ من الترجمة أحياناً سبيلا إلى النقد والمهاجمة على النحو الذى توسع فيه فيما بعد تلميذه السخاوى . ونستطيع أن نقدم مثلا على ذلك ترجمته للفيلسوف المؤرخ ابن خلدون[1] ، فهو يهاجمه ويحاول أن ينتقص من قدر مقدمته ، وينقل فى حقه أقوالا لاذعة للجمال البشبيشى وغيره ، وهى التى نقلها تلميذه السخاوى فيما بعد فى ترجمة ابن خلدون فى « الضوء اللامع » . كما أنه ، بالرغم من ثنائه على المقريزى فى مقدمة كتابه « رفع الإصر » ، يحاول أن ينتقص من مجهوده التاريخى ، ويرميه بأنه قام باختلاس أثره عن « الخطط » من مسوّدة ظفر بها للشهاب الأوحدى ، وهى التهمة التى يكررها ويبالغ فى تصويرها السخاوى ، ويسندها إلى شيخه ابن حجر ، وذلك حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه .

وقد كتب لنا ابن حجر عن نفسه ترجمة موجزة فى كتابه « رفع الإصر »[2] وقدم لنا السخاوى عنه ترجمة حسنة فى « الضوء اللامع »[3] . ثم عاد بعد ذلك وخصه بترجمة مطولة وافيـة فى مؤلف خاص أسماه « الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر » . وهى ترجمة حافلة ، كما يصفها مؤلفها السخاوى ، وتقع فى مجلدين كبيرين[4] .

---

(١) راجع هذه الترجمة فى رفع الإصر القسم الثانى ص٣٤٣ وما بعدها .

(٢) رفع الإصر ، القسم الأول ، ص ٥٨ — ٨٨ .

(٣) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٦ — ٤٠ .

(٤) وتوجد منها نسخة خطية مصورة بدار الكتب المصرية ، منقولة عن نسخة مكتبة باريس الوطنية ، وتحفظ برقم ٤٧٦٨ تاريخ .

وقد أورد لنا السخاوى فى هذه الترجمة وصفاً ممتعاً لشخص شيخه ابن حجر يقول فيه : « وأما شيء من أوصافه : فكان — رحمه الله — فوق الربعة ، أبيض اللون ، منور الصورة ، كث اللحية ، مليح الشكل ، صحيح السمع والبصر ، ثابت الأسنان نقيها ، صغير الفم ، قوى البنية ، عالى الهمة ، خفيف المشية ، ولو عند إقباله على الملوك ، خفيف الوضوء فى تمام سريع ، سريع عقد النية ، بل يعيب على من يتردد فيها ، وكذا من يبالغ فى إخراج الحروف بتقطيع الكلمة ، لايتأنق فى مأكله ومشربه ولا فى آنيته ، ويأكل اليسير من الغذاء ، لكن كان يتقوت بالسكر ، ويميل إلى قصب السكر ميلا قوياً ، ويكثر النقل ، لايزال بجانبه علبة فيها شيء كثير منه ، وكان لايتأنق فى الرفيع من الثياب ، قصير الثياب ، حسن العمة ، ظريف العذبة ، وكذا لا يتأنق فى ألفاظه ، بل يعيب على من تقعر فى كلامه » .

وهو نموذج جميل لشيوخ هذا العصر .

الفصل السادس

أبو المحاسن بن تغرى بردى

مؤرخ مصر ومؤرخ النيل

(٨١٢ – ٨٧٤ هـ) : (١٤٠٩ – ١٤٦٩ م)

– ١ –

كان القرن التاسع الهجرى عصراً ذهبياً لتدوين تاريخ مصر القومى ؛ ففيه أزهرت الرواية التاريخية أيما إزهار ، وأسبغت على تاريخ مصر الإسلامية قوة وحياة وبهاء لم يعرفها من قبل ، وسلكت فى البحث مناهج جديدة ، وعنيت بتعريف جوانب من المجتمع وأطواره وعواطفه وخلاله ، عناية لم تبدها من قبل ، وأشربت روحاً جديدة من النقد ، وامتازت بالتوسع والإفاضة والغزارة . بيد أن أهم ما تمتاز به هذه المدرسة التاريخية الزاهرة بنوع خاص، هو مصريتها الواضحة ، فإن أقطابها جميعاً ، مصريون ولدوا وعاشوا فى مصر ؛ وقد خلفت أجل آثارها عن تاريخ مصر وشعبها ونيلها وخططها . وهو أثر من آثار النزعة القومية التى كانت قد غلبت يومئذ على التفكير المصرى . وكانت مصر قد انتهت إلى نوع من الرياسة فى التفكير الإسلامى كنتيجة لتفوقها السياسى والاجتماعى على غيرها من الدول الإسلامية . وكانت القاهرة فى الواقع آخر وأزهر حمًى لهذا التفكير بعد أن عفت رياسة بغداد ، وتضاءلت رياسة غرناطة . ولكن مصر كانت تطبع التفكير والآداب الإسلامية يومئذ بطابعها الخاص . وأشد ما يبدو هذا اللون المصرى فى جهود هذه الرسالة التاريخية الباهرة ، التى افتتحت بالمقريزى واختتمت بابن إياس ؛ ولبثت مدى قرن بأسره تفيض على تاريخ مصر الإسلامية أغزر وأنفس الآثار والوثائق .

وقد عرضنا فى فصل سابق بالتحليل والنقد إلى مجهود المقريزى أستاذ هذه المدرسة التاريخية الجليلة . ونريد أن نعنى فى هذا الفصل بمجهود علم آخر من أعلامها ، وقف حياته على التنقيب فى تاريخ مصر الإسلامية ، واختص بالتأريخ

لنيلها ، ووهبنا قلمه الخصب ، تراثاً حافلا من الآثار الجليلة ، هي وحدها ثروة عظيمة في مصادر تاريخنا القومي . هذا المؤرخ الكبير هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى ، تلميذ المقريزى ، وأعظم أساتيذ مدرسته من بعده ؛ وهو الذى ورث دونهم غزارته وشاسع بحثه ، وإن لم يرث كل بيانه وقوة عرضه ، وسحر روايته . كان المقريزى مؤرخاً عظيماً مبتدعاً ، جم الطرافة والابتكار ، يقرأ فى نفسية المجتمع الذى عاش فيه ، وفى حركاته وسكناته وأحواله وعاداته ، معظم الصور الاجتماعية ، التى تزين روايته ، وترفعها إلى صف النقد التاريخى الممتع ، وكان له من عواصف حياته الحكومية والفكرية ، قوة الحكم على الأشخاص والأشياء ، وجرأة التقدير . ولكن نشأة ابن تغرى بردى ، والحياة الهادئة الناعمة التى هيئت له منذ طفولته ، لم تكن تتسع إلا إلى التنقيب الهادئ ، أو بالحرى إلى الرواية المسندة ، فكان مؤرخاً بهواه وفطرته ، وكان راوية عظيماً يغلب لديه شغف الاطلاع والبحث على الابتكار والطرافة ، وتغلب الرواية فى عرضه على التحليل والنقد .

ولد جمال الدين أبو المحاسن يوسف فى القاهرة فى حى الأمراء ، على مقربة من القلعة ، فى أواخر سنة ٨١٢ هـ [١] (١٤٠٨ م) ، فى عهد الملك الظاهر برقوق . وكان أبوه مملوكاً ، رومى الجنس على قوله [٢] ؛ اشتراه الملك الظاهر وأعتقه ، وقربه لذكائه ؛ ورفعه تباعاً إلى أرقى المناصب ، حتى صار أتابكا للعسكر (أميراً للسلاح) وهى أرفع مناصب الجيش ، واختاره مع من اختار لوصاية المملكة بعد وفاته . وفى أوائل عهد الملك الناصر ابن الظاهر وخلفه ، ثار نائب الشام ، وحالفه على الثورة جماعة من قادة الجيش منهم تغرى بردى ، فحاربهم الناصر ومزقهم ، وفر تغرى بردى واختفى حيناً فى المشرق . وفى أثناء غيبته تزوج الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ ، ثم عفا عنه واستقدمه فى

---

(١) ذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن مولد المؤرخ كان فى شوال سنة ٨١٣ هـ . وذكر ابن إياس أيضاً أن مولده كان فى تلك السنة . ولكن الترجمة التى دونها أحمد بن حسين التركانى سكرتير المؤرخ نقلا عن روايته والتى ذيل بها كتابه (المنهل الصافى) صريحة فى أن مولده كان فى سنة ٨١٢ ، وهى الرواية التى نفضلها .

(٢) ترجم المؤرخ أباه فى كتابه (المنهل الصافى) أيضاً تحت حرف التاء .

سنة ٨٠٨ ، وأنعم عليه وعينه قائداً للميسرة . وتوفى تغرى بردى فى فاتحة سنة ٨١٥، وولده المؤرخ طفلا لم يبلغ فطامه ، فرباه زوج أخته الثانية قاضى القضاة ناصر الدين بن محمد العديم ، فلما توفى سنة ٨١٥ ، تولى تربيته زوجها الثانى قاضى القضاة جلال الدين البلقينى . وحفظ أبو المحاسن القرآن فى صغره ، ودرس الفقه والكلام والنحو والبيان على جماعة من أعلام هذا العصر منهم ابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين العينى ، وشهاب الدين بن عربشاه مؤرخ تيمورلنك . غير أنه شغف بالتاريخ منذ حداثته . وكان من حسن طالعه أن درس على المقريزى أعظم مؤرخى عصره ، وصادقه ولازمه ، واقتبس من مناهجه وأساليبه فى البحث والرواية . ودرس التاريخ أيضاً على العينى . وبدأ تدوين الحوادث منذ سنة أربعين ، ولبث من بعد المقريزى زهاء ثلث قرن ينهض بأعباء روايته الغزيرة الشاسعة . وكانت حياته الناعمة الهادئة ، ونشأته فى حجر الإمارة والجاه والثراء ، واتصاله بالمصاهرة والصداقة مع رجالات الدولة وكبراء البلاط ، من أهم العوامل التى ساعدته على إطلاق العنان لشغفه بالبحث والدرس ، والانقطاع إلى التنقيب والكتابة ، وتعرّف الشؤون والنظم ، والوقوف على أسرار الدولة والبلاط فى عصره ، الذى تعاقب فيه على عرش مصر أكثر من عشرة سلاطين .

فى هذا الوسط الهادئ تفتحت مواهب أبى المحاسن ، ودرج قلمه ، وأينع بحثه . وكما أن القاهرة وخططها وآثارها المجيدة ، ومجتمعاتها الزاهرة ، شغفت أستاذه المقريزى حباً ، وكانت أخصب ميدان لروايته وتحقيقه ، فكذلك كانت سيرة مصر ونيلها أحب غذاء لنشاطه ، وألذ مادة لتأملاته ، ومن ثم كان قلمه وقفاً على تحقيق هذه السيرة ، وتدوينها فى مختلف الصور . كان أبو المحاسن يجيش بنفس النزعة القومية التى جاش بها أستاذه من قبل وجعلته إماماً لمدرسة تاريخية ؛ مصرية محضة ، يستغرق تاريخ مصر معظم جهودها . والمقريزى صريح فى الإعراب عن هذه العاطفة الوطنية ، فهو فى ديباجة الخطط يشيد بذكر مصر « مسقط رأسه ، وملعب أترابه ومجمع ناسه ، وجؤجؤه الذى ربى جناحه فى وكره » . ولكن أبا المحاسن وإن كانت تسوقه نفس العاطفة ، ينظر إليها من طريق آخر ، فمصر تمتاز فى نظره على كل بلد « بخدمة الحرمين الشريفين » ، وهو ما يحمله على

تأليف « النجوم الزاهرة »[١] ، موسوعته الكبرى فى تاريخ مصر الإسلامية . وقد رأينا أن هذا المؤرخ المصرى ، الذى ولد وعاش فى القاهرة ، وثوى إلى غبرائها الثواء الأخير ، وشغف بسيرها وأخبارها ، ينتمى من جهة أبيه إلى أصل رومى مجهول ، تركى أو أرمنى أو يونانى[٢] ، ومع ذلك فقد نبغ أبوه وازدهر فى دولة السلاطين ، وأنجب مؤرخاً من أعظم مؤرخى مصر الإسلامية . وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما كان الإسلام يكنه يومئذ ، من حيوية تطبع الأحداث فيه بطابعها القوى ، وما كانت القومية المصرية تحويه من عصبية أثيلة تدمج بها فيها كل العناصر الدخيلة من عرب ، وترك ، وشراكسة وغيرهم . بيد أن المؤلف فخور بأصله ونسبه ، فخور بأبيه ، يترجمه فى معجم تراجمه (المنهل الصافى) ولكن على لسان غيره ، تحاشياً من أن يفيض فى مدحه بنفسه ، وأن يتهم من أجل ذلك بالتحيز ، ويختتم ترجمته بقوله : « ولم أطنب فى ذلك خوفاً من قول القائل ، وقد ذكره غالب أهل التاريخ فى أماكن لا تحصر ، وأخبار الناس معروفة والأصول محفوظة ... »[٣] . وقد استقى أبو المحاسن من هذه النشأة ذاتها ، بعض خلاله ومواهبه ، فقد برع فى التركية[٤] ، وهى لغة البلاط والخاصة والقادة يومئذ ، واستطاع بذلك أن ينفذ إلى دقائق الدولة ، والسياسة ، وأن يفهم نفسية هذا البلاط التركى أو الشركسى ، الذى تبوأ ملك مصر منذ بعيد ، وأدمجته القومية المصرية فى أعماقها ، وأن يتعرف أحوال طوائف المماليك المختلفة ، التى كانت تموج بها مصر يومئذ . وهى معرفة يدلل عليها فى أواخر « النجوم الزاهرة » تدليلا واضحاً .

وكان أبو المحاسن ، فوق غزارته فى المباحث التاريخية وبراعته فى الرواية ، يأخذ بحظ لا بأس به من بعض العلوم الأخرى ولا سيما الحديث والفقه ، وقد درسهما على أعظم الحفاظ والفقهاء فى عصره ، وكذلك البيان وقد تلقاه على

---

(١) راجع مقدمة النجوم الزاهرة . (طبع دار الكتب) ج ١ ص ٢ .

(٢) يصعب أن نحدد معنى كلمة (رومى) فى هذا العهد ؛ فهى أصلا تطلق على أهل بلاد الروم أو الأناضول . ولكنها قد تطلق بطريق التوسع على سكان البلاد المجاورة مثل ارمينية وربما القوقاز ، وتطلق فى التواريخ القديمة ، أعنى قبل السلاجقة على اليونانيين والبيزنطيين .

(٣) المنهل الصافى تحت حرف التاء ، النسخة الفتوغرافية بدار الكتب المصرية .

(٤) السخاوى فى الضوء اللامع (فى ترجمة أبى المحاسن) . وقد نقلت فى بداية النجوم الزاهرة .

أمرائه يومئذ ولا سيما ابن عربشاه . وكانت له فى النظم جولات ، ولا سيما فى الغزل ؛ ومن نظمه الرقيق قوله :

بطرفه الأحور زاه شاقنى   وبه قد ضاع علمى بالوسن

جوره عدل علينا فى الهوى   كل فعل منه لى فهو حسن

ونقل السخاوى عنه هذين البيتين :

تجارة الصب غدت   فى حب خود كاسده

ورأسها لى هبة   لفرحتى بفائده

وكان مصقول الخلال ، وصفه السخاوى رغم حملته عليه ، بأنه «كان حسن العشرة ، تام العقل والسكون ، لطيف المذاكرة » . ووصفه سكرتيره المتقدم ذكره بأنه : « نادرة الزمان ، وعين الأعيان ، وعمدة المؤرخين » لم ير فى أحد مثل ما رأى فيه « من لطيف المحاضرة ، وفكاهة المنادمة ، والعقل التام ، وكرامة الأصالة والحرية الوافرة ،وحسن الخلق ،وبشاشة الوجه ،وحسن الملتق والشكالة » . وكان يمتاز بإتقان الملاهى والفنون الأميرية التى كانت ذائعة فى عصره . فكان بارعاً فى الفروسية وألعابها ، وكان موسيقياً بارعاً فى النغم والضرب والإيقاع ، بل كان من أشهر الفنانين فى عصره ، وهو ما يرجع بلا ريب إلى الوسط الرفيع الذى نشأ فيه ، وإلى نعمائه ، وثرائه ، ورفاهته .

— ٢ —

لم تحل نعماء العيش ورفاهة الوسط ، اللتان نشأ فيهما أبو المحاسن ، وتفتحت مواهبه وخلاله ، دون خوضه غمار رواية شاسعة شاقة ، بل لقى المؤرخ الأمير فى ظلهما فراغاً ونشاطاً وصفاء ، مكنته من الدرس المستفيض والتحقيق الهادئ . وكان لهذا الدرس والتحقيق ميدان واحد تقريباً هو تاريخ مصر الإسلامية ؛ فكان هذا التخصص عاملا آخر فى إتقان الرواية وصقلها ودقتها . وكانت نتيجة هذا العمل المنظم المتواصل ، غزيرة باهرة ؛ ففى آثار ابن تغرى بردى يلقى تاريخ مصر الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع موسوعة نفيسة ، ويلقى نيل مصر سجله الأمين ، وبهذه الآثار يرتفع أبو المحاسن إلى صف الأكابر بين مؤرخى الإسلام .

وأشهر هذه الآثار وأجلها هو بلا ريب تاريخه العام لمصر الإسلامية ،

المسمى «بالنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» فهو تاج جهوده وهو خاتمتها . وفيه يودع أبو المحاسن ثمار بحثه الناضج ؛ وسيرة عصره حتى أيامه الأخيرة . والظاهر أن فكرة كتابة تاريخ عام لمصر ، لم تخطر للمؤرخ إبان مباحثه الأولى أو أنه لم ينفذها إلا فى أواخر أيام حياته ، بعد أن لبث أعواماً طويلة يعنى بنواح أخرى من تاريخ الإسلام وتاريخ مصر . وأول آثاره الضخمة فيما يظهر معجم تراجمه المسمى « بالمنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى » . والوافى هو معجم الصفدى الشهير[1] ، والمنهل ذيل أو تكملة له . وكما ذيل ابن شاكر وفيات الأعيان ، وهى موسوعة ابن خلكان ، بفوات الوفيات ، فكذلك ذيل أبو المحاسن موسوعة الصفدى بالمنهل الصافى . والمنهل كتاب ضخم ، يترجم فيه أبو المحاسن أعلام الإسلام ، منذ أوائل الدولة التركية ، ويبدأ بالمعز إيبك التركمانى زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ — ٦٥٥ هـ) أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ويفيض بوجه خاص فى سير أعلام مصر والشام التى كانت يومئذ ولاية مصرية ، من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء ، ويرتبه على حروف المعجم[2] . ويتقدم فيه إلى القارئ بفاتحة بليغة يشكر الله فيها على « أن أخرنا عن كل الأمم ، وتلك لعمرى من أجل المنن وأتم النعم ، لنشاهد ما تقدم من آثارهم ، ونعاين منازلهم وديارهم ، ونسمع كما وقعت وجرت أخبارهم » . ويقول إنه وضع كتابه « غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب به من الأصدقاء والإخوان ؛ ولا لتأليفه وترصيعه من أمير ولا سلطان ، بل اصطفيته لنفسى وجعلت حديقته مختصة بباقات غرسى ، ليكون لى فى الوحدة جليساً ، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً » . والمعنى الذى يقصده المؤلف بهذه التقدمة ظاهر . فهو لم يتأثر فى مباحثه وروايته ، بملق أو هوى أو تحريض ، بل وضع سير العظماء القريبين من عصره والمعاصرين له ، مستقلا

(١) هو « الوافى فى الوفيات » لصلاح الدين الصفدى . وهو أكبر موسوعة عربية للتراجم تبلغ مجلداته نحو الخمسين . غير أنه لا توجد منه — للأسف — نسخة كاملة فى مكتبة واحدة ، بل توجد منه أجزاء مبعثرة ناقصة فى عدة مكاتب فى الشرق والغرب .

(٢) توجد بدار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من المنهل الصافى ، وهى فى ثلاثة مجلدات ضخمة وتحفظ تحت رقم ٢٣٥٥ تاريخ . وقد شرعت دار الكتب فى إخراجه ، وأصدرت منه بالفعل المجلد الأول .

حراً فى التقدير والحكم . وفى تراجم العظماء دائماً موضع للملق والأهواء، خصوصا متى كانوا معاصرين .

وكما أن أبا المحاسن ألهم إلى وضع « المنهل » بمعجم الصفدى ، فكذلك ألهمه أستاذه المقريزى بكتابه « السـلوك لمعرفة دول الملوك » إلى وضع تاريخ آخر يبدأ فيه حيث انتهى المقريزى . وكتاب السلوك هو تاريخ دول المماليك فى مصر إلى سنة ٨٤٤ هـ ؛ أعنى إلى قبيل وفاة مؤلفه بأشهر قلائل . وقد خطر لأبى المحاسن أن يتم رواية أستاذه فوضع كتاب « حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » مبتدئاً فيه بسنة ٨٤٥ هـ أعنى عام وفاة أستاذه ؛ ودون فيه تاريخ مصر بإسهاب حتى سنة ٨٥٧ هـ ، وهو عصر الملك الظاهر چقمق العلائى ، ورتبه على السنين والأشهر والأيام . وفى مقدمته يعرب عن عرفانه وإجلاله للمقريزى ، فيسميه « شيخنا الإمام الأستاذ ، العلامة ، المتفنن رأس المحدثين وعمدة المؤرخين » . كما أنه يعرب عن مثل هذا الإجلال فى ترجمة أستاذه فى المنهل . ويقول إنه أراد بوضع « حوادث الدهور » أن يحيى سنة أستاذه . ولما كان المؤرخ يحيل قارئه فى هذا الكتاب فى تفاصيل التراجم ، إلى المنهل الصافى ، فن الواضح أنه قد كتب هذا قبل ذاك[1] .

على أن تاريخ مصر العام أو « النجوم الزاهرة » هو كما قدمنا أجل وأنفس ما أخرج المؤرخ . كتبه بعد أن كتب المنهل الصافى وحوادث الدهور ، لأنه إذا كان يحيل فى الأخير على الأول ، فإنه فى النجوم الزاهرة يحيل على حوادث الدهور[2] . ومعنى ذلك أن أبا المحاسن كتب « النجوم الزاهرة » بعد أن ملك ناصية الرواية ، وأينع درسه وبحثه . والنجوم الزاهرة موسوعة كبيرة فى تاريخ مصر الإسلامية وتقلبات نيلها ، منذ الفتح الإسلامى (سنة ٢٠ هـ) إلى سنة ٨٧٢ هـ

---

(١) راجع النسخة الفوتوغرافية من كتاب « حوادث الدهور » المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩٧ تاريخ ، وهى فى مجلدين كبيرين . ويلاحظ أن السخاوى قد وضع كتابه التبر المسبوك ذيلا أيضاً لكتاب السلوك ، وفيه يتناول حوادث التاريخ المصرى بإسهاب من سنة ٨٤٥ إلى سنة ٨٥٧ هـ وهو نفس العصر الذى يتناول حوادث الدهور .

(٢) راجع مثل هذه الإحالة فى النجوم الزاهرة الجزء السابع (القسم الثانى) من طبعة جامعة كاليفورنيا ص ٣٩٦ .

(سنة ١٤٦٨ م) أعنى إلى قبيل وفاة المؤلف بعامين فقط ، وهو أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية . ويلخص المؤرخ ، فى مقدمته محتويات مؤلفه وطريقة كتابته فى العبارة الآتية : « استفتحته بفتح مصر . وعلى أى وجه فتحت ... وأجمع فى ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار ... ثم أذكر من وليها من يوم فتحت ، وما وقع فى دولته من العجب ، ثم أذكر أيضاً ما أحدث صاحبها أيام ولايته من الأمور ، وما جدده من القواعد والولايات فى مدى الدهور . ولا اقتصر على ذلك بل استطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المبانى الزاهرة ، كالميادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة . على أننى أذكر من توفى من الأعيان فى دولة كل خليفة وسلطان باقتصار » . هذا ما يصف به أبو المحاسن مادة مؤلفه فى المقدمة القصيرة التى يفتتحه بها ، والتى يصوغها فى نفس المعانى التى صاغ فيها مقدمة « حوادث الدهور » إذ يشكر الله على « أن أخرنا عن كل الأمم ... فنخبر بذلك من تأخر عصره من الأقوام ، بأفواه المحابر وألسن الأقلام ، ليقتدى كل ملك يأتى بعدهم بجميل الخصال » . ثم يقول إنه وضع كتابه غير مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان ، « بل ألفته لنفسى ؛ وأينعته بباسقات غرسى ، ليكون لى فى الوحدة جليساً ، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً ، ولا أنزهه من خلل وإن حوى أحسن الخلال ، ولا من زلل وإن مورده الزلال » ، وهو يقصد أن يؤكد أنه لم يكتب النجوم الزاهرة ، وخصوصاً القسم الذى يتعلق منه بعصره ، ليجعل منه وسيلة لتحقيق الأهواء ، أو تدوين ما يراد أن يدونه البلاط أو كبار الزعماء والجند والولاة ، استجلاباً لنفع أو قصداً إلى تشهير أو أذى . والحقيقة أن أبا المحاسن يقدم إلينا ، فى النجوم الزاهرة ، موسوعة حافلة بحوادث التاريخ الإسلامى بوجه عام ، وتاريخ مصر بوجه خاص ، رتبت على السنين والأشهر والأيام . ويبدو هذا التعمم واضحاً فى القسم الأول ، أيام أن كانت مصر ولاية إسلامية ، فى عهد الخلفاء الراشدين أو بنى أمية أو بنى العباس ، ولكن المؤرخ يتقدم نحو الاختصاص فى تاريخ مصر والتوسع فيه ؛ حتى إذا بدأت دول مصر الإسلامية المستقلة ، بلغ هذا التوسع حد الإفاضة ، ولا سيا فى عصر الدولة الفاطمية ، أول وأعظم الدول المستقلة ، التى تربعت على عرش مصر . وقد خلب

هذا المجتمع الفاطمى الباهر لُبّ أبى المحاسن كما خلب لبّ أستاذه المقريزى ، فأفاض فى أصل الخلفاء الفاطميين ، وبلاطهم ، ورسومهم فى القصر ، وفى الركوب وفى الاحتفالات العامة ، وفى الحكم وفى الخطابة ، إفاضة ممتعة ، تناول فيها كل الروايات المختلفة السالفة ، وأورد عن مقتل الحاكم بأمر الله شذوراً طويلة صيغت فى شكل القصة ، وفيها يصف نفسية الحاكم ليلة مقتله ، وكيف تجاذبته العواطف المختلفة بشأن خروجه فى تلك الليلة ؛ وكيف دبرت أخته « ست الملك » مقتله بمهارة مع شيخ كتامة وعبيده ، ثم أوعزت بقتلهم بعد ذلك ، وكيف أتى لها بجثته فدفنتها فى نفس مجلسها . وعلى الجملة فإن المجتمع الفاطمى وسير الخلفاء الفاطميين ، تجرى قلم المؤرخ بعرض جزل شائق ربما كان أبلغ قطعة فى مؤلفه . أما العصر الذى عاش فيه المؤرخ فإنه يبلغ فى مؤلفه أوفر حظ من الشرح والإفاضة ، ويتخذ فى أواخر كتابه صورة السجل اليومى ، لا تفوته كبيرة أو صغيرة . وقد عاش ابن تغرى بردى فى عصر حافل بالسلاطين وعاصر أكثر من عشرة سلاطين ، من عهد الملك الناصر فرج إلى عهد الملك الأشرف قايتباى ، وشهد أكثر من ثورة سياسية ، وأكثر من محنة عامة . وفى أواخر حياته انقض الوباء على مصر ، فحمل من أهلها مئات الألوف وجدد بذلك عهد المحن والمصائب السابقة ، وأصيب المؤرخ نفسه بالوباء حسبما يذكر ، ولكنه نجا[1] . وهو يصف فتك الوباء ، وعدد الموتى ، ومناظر الخراب ، فى عبارات تنم عن الاستكانة والروع والألم . ومن المحقق أن هذه الرواية المعاصرة هى أنفس ما يحتويه أثر المؤرخ ، خصوصاً إذا ذكرنا ما كان له من وثيق الصلات بالبلاط والكبراء وأهل الرأى — وهم مصادر التحقيق والرواية — وما كان يعنى به من المشاهدة الواقعة فى كثير من الحوادث ، وهو ما يذكره فى مواضع كثيرة .

ولنيل مصر من عناية أبى المحاسن حظ أوفر ، فهو يحصى تقلباته فى الوفاء والنقص عاماً فعاماً — من سنة الفتح (٢٠ هـ) إلى سنة ٨٧٢هـ ، معتمداً فيما تقدم من العصور على طائفة كبيرة من الرواة والمؤرخين وبخاصة ابن عبد الحكم ، وابن زولاق ، وابن إيبك ، والمقريزى ، وبذلك يقدم لنا أتم جدول عن تقلبات النهر العظيم مدى ثمانية قرون ونصف قرن .

---

(١) النجوم الزاهرة — القسم الثانى من القسم السابع (طبعة جامعة كاليفورنيا) ص ٥٤١ .

ويعرض أبو المحاسن تاريخ مصر فى بيان سلس جزل ، يرى ماثلا فى أقسامه الأول ، غير أنه فى القسم الأخير منه ، أعنى القسم المعاصر ؛ ينحدر إلى شىء من الركاكة . والسر فى ذلك لا يرجع إلى ضعف فى بيان المؤرخ ، ولكنه يرجع إلى حوادث العصر ذاتها ، وإلى غلبة الأساليب الضعيفة يومئذ فى التعبير ، عن شؤون الحرب والسياسة ومهام الدولة . فالمؤرخ إنما يخرج صور عصره بأساليب عصره ولغة عصره ، وهى مزية فى الواقع لأنها معيار للحكم على آداب العصر[1] .

وللمؤرخ غير ما تقدم من هذه الموسوعات الجليلة عدة مؤلفات أخرى ، منها « مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة » ، والذيل الشافى على المنهل الصافى (وهو مختصر المنهل) ، والبحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ، وكلها فى التاريخ وبالأخص تاريخ مصر ، وحلية الصفات فى الأسماء والصناعات ،

---

(١) لاتزال آثار ابن تغرى بردى على نفاستها مخطوطات مفرقة فى مكاتب الغرب والشرق . ولم يشهد الضياء من مؤلفاته الكبيرة سوى « النجوم الزاهرة » . فنى منتصف القرن الأخير نشط المستشرقان الهولنديان چوينبل وماتس إلى إحياء هذا الأثر النفيس ؛ فنشرا منه القسم الأول بين سنتى ١٨٥٢ و ٥٣ ، ثم نشر چوينبل وحده قسما آخر فى سنة ٥٧ . ويشتمل القسمان على تاريخ مصر من الفتح إلى سنة ٣٦٥ هـ . ثم توفى العلامة چوينبل دون إتمامه . وفى سنة ١٩٠٨ قرر قسم اللغات السامية بجامعة كالفورنيا الأمريكية طبعه ، وعهد بذلك إلى المستشرق الأمريكى وليم بوبر ، فبدأ هذا المستشرق مهمته منذ سنة ١٩٠٩ ، واستأنف نشر النجوم الزاهرة حيث وقف چوينبل ، واستمر فى هذا العمل الشاق إلى سنة ١٩٣٠ حيث استطاع أن يتم مهمته وأن يخرج النجوم الزاهرة بعد عشرين عاماً من المراجعة والتحقيق . وقد اعتمد فى نشره على مخطوطات خمسة منها مخطوط بخط المؤلف نفسه محفوظ فى مكتبة باريس . واستعان فى تصحيحه وتحقيقه بجماعة من أعلام المستشرقين المعاصرين منهم العلامة الألمانى الأكبر نيلدكه ، وجوتهايل ، وسيبولد . ويستغرق القسم الذى نشره سبعة أقسام أو أجزاء كبيرة يشتمل كل منها على عدة أقسام فرعية . أما القسم الذى أخرجه العالمان الهولنديان فيستغرق جزءين كبيرين ، وبذلك تكون مجلدات النجوم الزاهرة تسعة تشمل نحو أربعة آلاف صفحة . ويتخلل هذه الطبعة تحقيقات ومقارنات وفهارس عدة تجعل لها قيمة خاصة .

هذا وقد قامت دار الكتب المصرية فى نفس الوقت بإخراج كتاب « النجوم الزاهرة » ، وأخرجت منه حتى اليوم اثنى عشر مجلدا كبيرة تنتهى حوادثها فى سنة ٨٠٨ هـ . وقد صدر آخر مجلدا منها سنة ١٩٥٦ ، ولم ينشر من بعده حتى اليوم مجلد آخر . وهو ما يدعو إلى أشد الأسف ، حيث شرعت دار الكتب فى نشر النجوم الزاهرة منذ أربعين عاما ، وقد مضت اثنتا عشر عاما على ظهور آخر مجلد منه . ورجاؤنا أن تعنى دار الكتب بإتمام إخراج هذا المرجع الهام فى تاريخ الإسلامية فى أقرب وقت ممكن ، فتتم بذلك مهمتها العلمية الجليلة .

وهو مجموعة أدبية تاريخية . وتوجد هذه الكتب أو أجزاء منها مخطوطة فى بعض دور الكتب ، ولم يطبع منها سوى مورد اللطافة ، طبع فى كمبردج فى سنة ١٧٩٢ .

* * *

هذه سيرة المؤرخ الأمير ، وهذه خلاله الرفيعة ومواهبه البارزة ، وهذا مجهوده التاريخى ، غزير قوى باهر ، يؤثر به تاريخ مصر وطنه . وقد لبث أبو المحاسن عماد هذه المباحث التاريخية الشاسعة ، التى أخرجت على يد المقريزى أينع ثمارها ، مدى ثلث قرن حتى توفى فى شهر ذى الحجة من سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩) بعد أن لبث أشهراً يعانى من المرض أروع الآلام .

على أن هذه الخلال الباهرة وهذه المباحث اليانعة ، كانت موضعاً لحملة مفكر عظيم معاصر للمؤرخ هو شمس الدين السخاوى ، وهو أيضاً من أعلام المدرسة التاريخية المصرية . فإن السخاوى يحمل فى كتابه « الضوء اللامع » على ابن تغرى بردى حملة قاسية ، وينتقص من خلاله ومواهبه وفضله ، ويذهب إلى حد رميه بالحماقة ، والادعاء والجهل وتزييف الحوادث[1] . وفى الضوء اللامع يترجم السخاوى أعيان القرن التاسع الهجرى ، أعنى القرن الذى عاش فيه ، فى صور قوية بارزة ، وهى من أبدع الصور النقدية التى تحتويها الآداب التاريخية العربية . بيد أن الذى يدعو إلى الدهشة هو أن روحاً عامة من النقد اللاذع تغلب على هذه التراجم ، وتذهب فى أحيان كثيرة إلى حد الهدم . ويبدو هذا الميل المضطرم إلى هدم الرجال والخلال واضحاً بالنسبة لجماعة معينة من الأشخاص ، هم الجماعة التاريخية التى التفت حول المدرسة المقريزية أو اتصلت بها . فهنا يبدو السخاوى هداماً لا أكثر ولا أقل . ويبدأ السخاوى بهدم إمام هذه المدرسة الزاهرة المقريزى ، فينسبه حسبما قدمنا إلى القصور والضعف والتحريف والسقط ، ويزعم أنه نقل « خططه » الخالدة من مسودة للأوحدى ، مع أن شيخه وأستاذه ابن حجر الذى يشيد بمناقبه الباهرة ، يصور المقريزى وكفاياته ومباحثه فى أجل

---

(١) راجع ترجمة السخاوى لابن تغرى بردى فى « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » (نسخة دار الكتب الفوتوغرافية المحفوظة تحت رقم ٣٢٧٠ تاريخ) — وقد أدرجت مع تراجم أخرى فى المقدمة التى صدر بها الجزء الأول من النجوم الزاهرة .

الصور[١] ، بل لم يحجم السخاوى من التعريض بالتجريح لابن خلدون أعظم مؤرخى الإسلام وأعظم فقهاء التاريخ والاجتماع المسلمين . وقد كان ابن خلدون أستاذاً للمقريزى . ثم يحمل السخاوى حملتـه القاسية ، على ابن تغرى بردى تلميذ المقريزى ، وعلى البقاعى صديق ابن تغرى بردى[٢] ، ويزعم أن البقاعى ، وهو محدث ومؤرخ بارع ، وفد من دمشق إلى القاهرة واتصل بمفكريها ولازم ابن تغرى بردى ، واستظل بنفوذه وحمايته ، وكان يحرك قلم أبى المحاسن بما شاءت أهواؤه . ثم يكرر أمثال هذه الحملات على مؤرخى عصره فى مؤلف آخر هو « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ » . ويحاول السخاوى أن يدعم هذه النزعة الهدامة بإحصاء بعض المآخذ والسقطات لمن يحمل عليهم ، غير أنه لم يوفق فى ذلك ، لأنه لم يستطع أن يحصى للمقريزى أو ابن تغرى بردى غير أخطاء تافهة فى الأنساب والألفاظ . ومن الصعب أن نجد أسباباً معينة لهذه الخصومة الأدبية الشعواء ، سوى أن السخاوى كان يضطرم بروح قوية من الزهو وشغف الهدم ، قد تأخذ لون الحسد اللاذع — بالنسبة لمعاصريه بالأخص . ويبدو هذا الزهو واضحاً فيما ذكره السخاوى فى ترجمته لأبى المحاسن من أنه اجتمع به مراراً « وكان يبالغ فى إجلاله إذا قدم عليه ، ويخصه بتكرمة للجلوس ، والتمس منه اختصار الخطط للمقريزى » ؛ ويبدو حب الهدم واضحاً فى ظاهرة غريبة تشعر بها فى تراجم الضوء اللامع ، هو أن السخاوى ضنين بالمدح ، فإذا اضطر إليه ، ذكره على لسان غيره ، وقلما سطره بلسانه . وقد بلغت هذه الخصومة الأدبية حداً عظيماً فى أواخر حياته ، ونشبت بينه وبين جلال الدين السيوطى أعظم مفكرى عصره ، فنقده السيوطى وحمل عليه من أجل ما انتقص به فى « الضوء اللامع » من أقدار أكابر الأعيان والمفكرين ، ورماه بالغرض والتحامل فى مقامة شهيرة له أسماها « الكاوى على تاريخ السخاوى »[٣].

---

(١) راجع التبر المسبوك للسخاوى (طبع بولاق ص ٢١ — ٢٤) . وراجع رفع الإصر من قضاة مصر لابن حجر المنشور بعناية وزارة التربية القسم الأول ص ١ .

(٢) راجع ترجمة ابن خلدون فى الضوء اللامع (المجلد الثانى ، القسم الثانى ص ٣٦٧ من النسخة المشار إليها) وراجع فيه ترجمة البقاعى (القسم الأول ص ٦٨) .

(٣) راجع مقدمة الكاوى على تاريخ السخاوى (مخطوط بدار الكتب نمرة ١٥١٠ أدب) .

وقد امتدت آثار هذه الخصومة إلى ما بعد وفاة السخاوى ، فنرى معاصره ابن إياس مثلا حين يذكر وفاته يقول بعد مدحه « أنه ألف تاريخاً فيه أشياء كثيرة من المساوئ في حق الناس »[1] .

وهكذا نرى آثار هذه العاصفة الأدبية الهائلة التى أثارها السخاوى بحملاته ونقده تتغلغل فى نواحى المجتمع الفكرى القاهرى زهاء نصف قرن . وإذا كانت هذه الحملات الصارمة تثير الإعجاب بما تحتويه من بيان رائع ، ومنطق لاذع ، وروح مضطرم ، فإنها مع ذلك تثير الريب فى أحيان كثيرة فى نزاهة القلم القوى البارع الذى أرسلها كالسهام الماضية لتحط من شأن عبقريات لها المقام الأسمى

---

(١) تاريخ مصر – ج ٢ ص ٣٢٢ (طبع بولاق) . هذا وسوف نعود إلى استعراض هذه الخصومة الأدبية فى ترجمة السخاوى ، وهى الآتية .

الفصل السابع

شمس الدين السخاوى

(٨٣١ – ٩٠٢ ﻫ) : (١٤٢٨ – ١٤٩٦ م)

أتيحت لى فى أوائل الثلاثينات فرصة لدراسة شخصية بارزة ، تتبوأ مكانة رفيعة فى آداب مصر الإسلامية ، وفى الآداب العربية بوجه عام ، وتمثل وحدها مدرسة فكرية زاهرة ، وتمتد عبقريتها الشاملة إلى عده نواح وفنون مختلفة ، وما زال تراثها إلى اليوم يكون مجموعة قوية حافلة ، فى تراث الأدب العربى والتفكير الإسلامى .

أريد بتلك الشخصية ، شمس الدين السخاوى ، الذى تملأ شخصيته الحركة الأدبية المصرية زهاء نصف قرن .

كان السخاوى إحدى هذه العبقريات الأدبية ، التى تفتحت بمصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) واختتمت بها مصر الإسلامية حياة أدبية باهرة سطعت مدى قرنين ؛ وكان ظهوره ، فى النصف الأخير من هذا القرن ، حينما أخذت عوامل الانحلال تفت فى هذا الصرح الباذخ الذى شادته دول السلاطين بمصر ، وأخذت الحركة الأدبية التى كانت فى النصف الأول من القرن التاسع فى أوج عنفها وازدهارها ، تميل إلى الضعف والسقم ، وتستبدل ألوانها القوية الساطعة ، بألوان سطحية باهتة ؛ فكان ظهور السخاوى وتلميذه ومنافسه السيوطى فى أواخر هذا القرن ، نفثة أخيرة من نفثات هذه الحركة القوية ، التى لم تلبث أن خبت بعد ذلك وانهارت أمام الفتح العثمانى .

— ١ —

ومن حسن الطالع أننا نستطيع أن ندرس شخصية السخاوى على ضوء حسن ، فلدينا أولا معظم آثاره ، نقرأ فيها خواص تفكيره وأدبه ؛ ولدينا ترجمته لنفسه وعدة أخرى من التراجم المعاصرة ، نتتبع فيها حوادث حياته وظروف تكوينه .

ولد السخاوى ، كما يحدثنا فى ترجمته لنفسه ، بمدينة القاهرة بحارة بهاء الدين[١] فى ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) فى أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية ، واستقرت فى القاهرة قبل ذلك بجيلين ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، شمس الدين أبو الخير السخاوى ، ولما بلغ الرابعة من عمره تحولت أسرته إلى منزل جديد فى نفس الحى اشتراه أبوه ؛ وكان موقعه بجوار دار علامة العصر الحافظ ابن حجر العسقلانى[٢] ؛ وكان لهذا الجوار أكبر أثر فى حياة السخاوى ، كما سنرى . وأنفق السخاوى بضعة أعوام فى المكتب وحفظ القرآن ؛ ثم أخذ يطوف بأشياخ العصر يتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون ؛ ودرس النحو والعروض واللغة والفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والتفسير والمنطق ؛ وهنا يعدد لنا السخاوى ثبت أساتذته وما أخذه عن كل منهم ، وما درسه فى مختلف الكتب[٣] ، وتجلت مواهبه ومقدرته بسرعة مدهشة ؛ وأجاز له الكثيرون من شيوخه ، بل أجازوا له الافتاء ولما يبلغ العشرين بعد .

وقد كان ابن حجر فى مقدمة أساتذته ؛ وكان ذلك الجوار الذى رتبته ظروف الحياة ، مبعث هذه الصلة الوثيقة التى استمرت مدى الحياة بين الأستاذ وتلميذه ، والتى بثت غير بعيد إلى نفس الفتى نوعاً من العبادة الروحية ، لهذا الذى كان يعتبر يومئذ إمام الأئمة وقطب العلماء والباحثين . والواقع أن ابن حجر كان يتبوأ يومئذ مركز الزعامة العلمية فى مصر الإسلامية ، وكان فى ذروة نضجه ومجده ، وقد انتهت إليه الرياسة فى معظم علوم العصر ، ولا سيما الحديث والشريعة . وكان بدء اتصال السخاوى بأستاذه فى سنة ٨٣٨ هـ ، أعنى وهو

---

(١) كان موقع هذه الحارة على مقربة من باب الفتوح ، وكانت من الأخطاط الجليلة فى ذلك العصر (خطط المقريزى ج ٢ ص ١) .

(٢) كانت دار ابن حجر تقع بالقرب من المدرسة المنكوتمرية داخل باب القنطرة بحارة بهاء الدين أيضاً (خطط المقريزى ج ٣ ص ٨٤ – والتبر المسبوك للسخاوى ص ٢٢٣) .

(٣) راجع ترجمة السخاوى لنفسه فى كتابه الضوء اللامع – نسخة دار الكتب الفوتوغرافية (رقم ٦٧٥ تاريخ) المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٧ – وفى المطبوع ج ٨ ص ٤ و ٥ . هذا وقد نشر الضوء اللامع بمدينة القاهرة فى اثنى عشر مجلدا (مطبعة القدسى سنة ١٣٥٢ – ١٣٥٥ هـ) . وهى الطبعة التى نشير إليها فيما يلى .

طفل لم يجاوز الثامنة ؛ وكان يذهب مع أبيه ليلا إلى مجالس الشيخ ، فيستمع إلى دروسه فى الحديث . ويصف لنا السخاوى علاقته بأستاذه فى عبارات مؤثرة تنم عما كان لهذه العلاقة من عظيم الأثر فى تكوينه ، فيقول متحدثاً عن نفسه : « وقبل ذلك كله سمع مع والده ليلا الكثير من الحديث ، على شيخه إمام الأئمة الشهاب ابن حجر ، فكان أول ما وقف عليه من ذلك فى سنة ثمان وثلاثين ، وأوقع الله فى قلبه محبته ، فلازم مجلسه ، وعادت عليه بركته فى هذا الشأن . وأقبل عليه بكليته إقبالا يزيد على الوصف ، بحيث تقلل ما عداه ... وداوم الملازمة لشيخه حتى حمل عنه علماً جماً ، واختص به كثيراً بحيث ، كان من أكثر الآخذين عنه ؛ وأعانه على ذلك قرب منزله منه ، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر ... وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء . وعلم شدة حرصه على ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله ؛ يأمره بالمجئ للقراءة »[1].

وهنا يفيض السخاوى فى ذكر الكتب والمتون التى قرأها ودرسها على شيخه ابن حجر ، سواء من تصنيفه أو تصنيف غيره ، ومعظمها فى الحديث ؛ ودرس عليه أيضاً التاريخ والتراجم ؛ ودرس فى الوقت نفسه على كثير من شيوخ العصر ؛ ويعدد لنا السخاوى كثيراً من شيوخه، ويقول لنا إنهم بلغوا أكثر من أربعمائة ، بيد أن ابن حجر كان دائماً إمامه وشيخه المفضل ، وقد أذن له غير بعيد فى الإقراء والإفادة والتصنيف ؛ ويقول لنا السخاوى « إنه لم ينفك عن ملازمة أستاذه ، ولا عدل عنه بملازمة غيره من علماء الفنون خوفاً على نقده ، ولا ارتحل إلى الأماكن النائية ، بل ولا حج إلا بعد وفاته ؛ لكنه حمل عن شيوخ مصر الواردين إليها كثيراً ، وفى الأوقات التى لا تتعارض وأوقاته ، سيما حين اشتغاله بالقضاء وتوابعه » . وقد لبثت هذه العلاقة الوثيقة بين التلميذ وشيخه حتى توفى ابن حجر فى أواخر سنة ٨٥٢ هـ[2] .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية فى حياة السخاوى ؛ وهى مرحلة درس وتحصيل

---

(١) الضوء اللامع — المطبوع ج ٨ ص ٥ — وكذلك التبر المسبوك ص ٢٣٢ .

(٢) الضوء اللامع . ترجمة السخاوى لنفسه المطبوع ج ٨ ص ٦ — والتبر المسبوك (ص ٢٣٢ و ٢٣٣) .

أيضاً ، ولكن خارج مصر . وكان السخاوى يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان رغم حداثته قد برز فى كثير من العلوم التى تلقاها ؛ وكان قد استأثر فى هذه الأعوام الطويلة التى قضاها إلى جانب ابن حجر ، بكثير من علمه ومعارفه ، وتأثر أعظم تأثير بأساليبه ومناهجه ؛ بل نستطيع أن نقول إن السخاوى كان بعد ابن حجر ، مستودع علمه وتراثه ؛ وكان أشد تلاميذه تمثيلا لمدرسته ؛ بل كان بعد شيخه زعيم هذه المدرسة وأستاذها القوى يرفع لواءها ، ويحمل مناهجها حتى خاتمة القرن التاسع ؛ وقد أشار ابن حجر نفسه فى أواخر أيامه إلى تلك الحقيقة ، وكثيراً ما وصف السخاوى بأنه « أمثل جماعته » أو « ممثل جماعته »[1] .

وسافر السخاوى عقب وفاة أستاذه إلى دمياط ودرس على شيوخها حيناً ؛ ثم سافر مع والدته بحراً إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ؛ وانتهز هذه الفرصة فدرس على شيوخ مكة والمدينة ، وطاف بالبقاع والمشاهد المقدسة كلها ؛ ثم عاد إلى مصر ، وسافر إلى الإسكندرية وقرأ بها مدى حين ؛ وزار معظم عواصم الوجه البحرى ، وقرأ على شيوخها الأعلام جميعاً ، وحصل كثيراً من الفوائد والمعارف . ثم رأى أن يقوم برحلة إلى الشام ليزور معاهدها ، ويتعرف بشيوخها ؛ فسافر إلى فلسطين ، وطاف ببيت المقدس والخليل ونابلس ، ثم قصد إلى الشام ، وزار دمشق وحمص وحماة ، ثم استقر حيناً فى حلب ؛ كل ذلك وهو يدرس ويقرأ على أعلام هذه العواصم ؛ ويقول لنا إنه « اجتمع له فى هذه الرحلة من الروايات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف » ؛ ويبدو من تعداده للكتب التى درسها وقرأها فى هذا الطواف ، أنه كان يعنى بدراسة الحديث والقراءة والنحو والفقه وعلوم البلاغة والتصوف . ولم يعين السخاوى لنا تواريخ تنقلاته فى هذه الرحلة ، ولكن الظاهر أنها استغرقت بضعة أعوام .

ولما عاد السخاوى إلى القاهرة عكف على التدريس ، ولا سيما تدريس الحديث ، أحياناً بمنزله ، وأحياناً بخانقاه (معهد) الصوفية المعروف بسعيد السعداء

---

(١) راجع « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة السخاوى — وراجع شذرات الذهب (ج ٨ ص ١٥) .

وكذا انتدب فى أوقات مختلفة ، للتدريس والإقراء فى أعظم مدارس القاهرة ، كدار الحديث الكاملية والصرغتمشية ، والظاهرية ، والبرقوقية ، والفاضلية وغيرها ؛ وذاع صيته وأقبل عليه الطلاب من كل صوب . وفى سنة ٨٧٠ هـ سافر مع أسرته — وكان قد تزوج يومئذ ورزق بعض الأولاد كما يفهم ذلك من إشارته إلى مولد ولده أحمد[١] — ومع والده وأكبر أخويه إلى الحج للمرة الثانية ؛ وصحبه أيضاً فى تلك الرحلة صديقه وأستاذه النجم بن فهد الهاشمى — وكان من أعلام العصر — ودرس بمكة مدى حين ، وقرأ بالمسجد الحرام بعض تصانيفه وتصانيف غيره . ولما عاد إلى القاهرة استأنف دروسه وإملاءاته ؛ وتبوأ مركز الزعامة يومئذ فى علم الحديث ، وشغل فيه نفس المركز الذى كان يشغله فيه أستاذه ابن حجر قبل ذلك بثلاثين عاماً .

ثم حج السخاوى للمرة الثالثة فى سنة ٨٨٥ هـ ، وقضى بمكة عاماً فى التدريس والدرس ؛ ثم حج سنة ٨٧هـ وقضى ثمة حيناً فى الدرس والإقراء ؛ وحج للمرة الخامسة فى سنة ٩٢ هـ ، وقضى ثمة عاماً آخر فى الدرس والإقراء ؛ ثم حج فى سنة ٩٤هـ ، وقرأ الكثير من دروسه وتصانيفه ، وغدت مكة وطناً ثانياً له ؛ وكتب فيها كثيراً من مؤلفاته كما سنرى .

ولما عاد إلى القاهرة فى سنة ثمان وتسعين (٨٩٨ هـ) استقر بمنزله ، وأبى الدرس والإقراء فى المعاهد والحلقات العامة « ترفعاً عن مزاحمة الأدعياء » حسب قوله ، وترك الإفتاء أيضاً ، واكتفى بالإقراء فى منزله لخاصة تلاميذه ؛ وكان السخاوى قد أشرف يومئذ على السبعين من عمره ، ولكنه استمر منكباً على الدرس والتأليف ؛ وكانت قد انتهت إليه الرياسة يومئذ فى معظم علوم عصره ، ولا سيما الحديث ، حتى قيل إنه فاق شيخه ابن حجر فى ميدانه ، وانتهى إليه فن الجرح والتعديل ، حتى قيل لم يبلغ أحد مكانته فيه منذ الحافظ الذهبى[٢] ؛ وكانت شهرته قد تعدت حدود مصر منذ بعيد وذاعت فى أنحاء العالم الإسلامى ، ولا سيما فى الشام والحجاز حيث تلقى عليه مئات العلماء والطلاب . ولبث السخاوى رغم مكانته العلمية الرفيعة ونفوذه القوى ، بعيداً عن ميدان السياسة ودسائس

(١) الضوء اللامع — المطبوع ج ٨ ص ١٣ .

(٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ١٧ .

البلاط والمناصب الرسمية ؛ واقترح عليه صديقه الأمير يشبك الداوادار أن يقرأ التاريخ بمجلس السلطان الظاهر خشقدم[1] فأبى ؛ ثم عرض عليه أن يتولى القضاء بعد ذلك ، فاعتذر وأشار بتعيين خصمه ومنافسه السيوطى ، رغم ما كان بينهما من الخصومات الأدبية الشهيرة[2] .

وأقام السخاوى حيناً فى القاهرة ؛ ثم سافر إلى مكة ليحج للمرة السابعة ؛ وعكف بعد أداء الفريضة على الإقراء والدرس ، وتردد حيناً بين مكة والمدينة ؛ ثم استقر أخيراً بالمدينة ؛ واستمر فى الإقراء بها حتى توفى فى ١٣ ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م)[3] فى الحادية والسبعين من عمره .

— ٢ —

ولنستعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمه . ويعنى السخاوى فى ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل فى عدة فنون مختلفة ؛ ولكنا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ .

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى إليه علم الحديث فى عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقادة لا يجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبى ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الإسناد وتمحيص الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ، وكانت براعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه إلى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هى التى تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها .

---

(١) الضوء اللامع — ج ٨ ص ٣١ . وقد حكم خشقدم من سنة ٨٦٥ — ٨٧٢ هـ .

(٢) الضوء اللامع — المطبوع ج ٨ ص ٣٢ .

(٣) هذه هى رواية صاحب الكواكب السائرة ، ولكن صاحب شذرات الذهب يضع وفاته بمكة فى ٢٨ شعبان سنة ٩٠٢ هـ (ج ٨ ص ١٧) .

ويحدثنا السخاوى فى ترجمته بأنه شرع فى التأليف « قبل الخمسين » ؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعنى وهو فى نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى لسنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه فى مكة[1] ، وإذاً فهو قد بدأ التأليف فى سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه فى استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف مزوداً بمادة غزيرة ؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تباعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة .

وبدأ السخاوى التأليف فى ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها فى ترجمته ، ولكنا لم تتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة فى الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » و « الغاية فى شرح الهداية » و « الأخبار المكللة فى الأحاديث المسلسلة » و « شرح الشمائل النبوية للترمذى » و « التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبى حنيفة » وعدة كتب ورسائل أخرى فى شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذيول لبعض كتب الحديث المعتبرة ، يذكرها كلها فى ترجمته ، ولا يتسع هذا المقام لذكرها[2] .

وكتب السخاوى فى هذه الفترة الأولى أيضاً ، عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجمها ؛ الرحلة الحلبية وتراجمها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته فى تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً فى تراجم شيوخه وأساتذته إسمه « بغية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى » .

* * *

على أن أهم ما فى تراث السخاوى هو مجهوده التاريخى والأدبى ، ففيه يرتفع السخاوى إلى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته فى أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد انتهت إلينا نخبة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمنى فى استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استهل مجهوده التاريخى

---

(١) السخاوى فى ترجمة نفسه — فى الضوء اللامع — المطبوع — ٨ ص ١٤ .

(٢) راجع الضوء اللامع — المطبوع ج ٨ ص ١٥ — ١٩ وفيها يعدد السخاوى كتبه وتآليفه .

بوضع كتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » . والسلوك الذى وضع هذا الكتاب ذيلا له هو كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » لتقى الدين المقريزى ، وقد تناول فيه تاريخ دول المماليك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ، وتناول السخاوى فى كتابه تاريخ مصر الإسلامية من سنة ٨٤٥ — ٨٥٧ هـ ، وكتبه كما يقرر فى مقدمته نزولا على رغبة الداوادار يشبك المهدى وزير السلطان الظاهر خشقدم[١] ؛ وعنى السخاوى بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة بإسهاب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمنى . وكتب السخاوى أيضاً ذيلا لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الإصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الإصر »[٢] ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر .

وأعظم آثار السخاوى بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع فى عدة مجلدات ، وينم عنوانها عن موضوعها . ويبسط لنا السخاوى موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة إحدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء ، والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصريا كان أم شامياً ، حجازياً أم يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة ... » . وقد هيأت حياة السخاوى نفسه ، وتجواله فى مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء فى عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم فى مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوى بلا ريب أعواماً طويلة فى إعداد مواده وتنظيمها واستكمالها ؛ والظاهر أنه لم يبدأ فى كتابة معجمه إلا فى أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠هـ ، واستمر فى الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ؛ يدل على ذلك أنه يصل فى

---

(١) التبر المسبوك (ص ٥) والإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (ص ٤٥) .

(٢) حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية لهذا الكتاب منقولة عن نسخة بخط السخاوى نفسه وهى فى مجلد .

ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر فى خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلا عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ[١] .

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة فى التصوير ليس لها نظير فى كتب التراجم الإسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوى فى أعظم خواصه وكفاياته الأدبية نقادة لا يجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً فى مواطن كثيرة ، فينزع عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده تحامل بين . وقد ترجم السخاوى كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم — إلا شيخه الحافظ ابن حجر — لم ينج من تجريحه اللاذع ؛ وتراجم المقريزى وابن خلدون وابن تغرى بردى والسيوطى أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، ففيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطيق عبقرية بارزة من عبقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة ؛ وهو يبدو فى أحيان كثيرة فى حملاته قوياً صارم الوطأة ، غير أنه يبدو فى أحيان أخرى سقيماً تعوزه الحجة ، فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرد ؛ وقد كان السخاوى أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء قلمه ؛ وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها فى مقدمة الضوء اللامع فيما يأتى : « ولكنى لم آل فى التحرى جهداً ، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلا عن الإعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان ابن ظهـــيرة المعتلى يقولان ، إنك منظور إليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنعش للعقول . وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه ، وتمتد إليه الأعناق فى سفره ومقامه ، من زكيته فهو العدل ، ومن مرّضته فالضعيف المعلل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت فى حياتى لأترجمه بما لعله يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوى لنفسه فى كتابه ، كما رأينا ، ترجمة ضافية ، ويذيلها بنبذ عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه فى مديحه والإشادة بغزير علمه ، والتنويه بتبوئه مركز الرياسة والزعامة فى علم الحديث ، ومنها ما خصه

---

(١) يراجع الضوء اللامع — ج ١ ص ١٠١ ، فى ترجمة إبراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ .

به بعض خصومه كالبقاعى، قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بإيراد بعض القريض الذى قيل فى مديحه وتقديره .

وقد كان وضع كتاب « الضوء اللامع » حادثاً أدبياً عظيماً ، تردد فى كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التى نشبت مدى حين بين السخاوى وبين بعض أقرانه وتلاميذه ، ولا سيما البقاعى والسيوطى[١] ، واتخذت صوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل . ويتخذ السخاوى كثيراً من تراجم « الضوء اللامع » سبيلا لحملات عنيفة على كثير من أعلام القرن التاسع ، ولم ينج أعاظم مفكرى هذا العصر من حملاته ، وكان فى مقدمة من حمل عليه منهم المؤرخ الفيلسوف ولى الدين ابن خلدون ، ثم تقى الدين المقريزى ، وقد اتهمه باختلاس « خططه » الشهيرة من كتاب للشهاب الأوحدى ، وذلك حسبما فصلناه فى ترجمة المقريزى ، وحمل كذلك على مؤرخ مصر والنيل أبى المحاسن تغرى بردى . بيد أن خصومة السخاوى مع البقاعى والسيوطى كانت أبرز وأعنف ما فى هذه المعارك الأدبية كلها ، وقد عرّض البقاعى فى كتابه « عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران »[٢] بالسخاوى وترجمه بصورة موجزة مهينة . ورد عليه السخاوى فى ترجمته فى الضوء اللامع أعنف رد ، ونعته بأقبح النعوت . وكذلك نشبت بين السخاوى والسيوطى خصومة أدبية مضطرمة ، تبادلا خلالها كثيراً من أنواع السباب والقذف ، سواء من الناحيتين العلمية أو الشخصية ، ورد السيوطى على مطاعن خصمه بتأليف رسالة عنيفة قاذفة فى حقه عنوانها : « الكاوى على تاريخ السخاوى »[٣] وفى فاتحتها يقول : « ما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه ، والأعراض هى الأعراض . جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق فيه بين جليل وحقير ... وامتد حتى إلى العلماء الأعلام » . ثم يأخذ السيوطى فى مقامته هذه على السخاوى بعض أخطاء فى

(١) توفى البقاعى فى ٨٨٥ هـ ، والسيوطى فى سنة ٩١١ هـ .
(٢) ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٠١ تاريخ .
(٣) ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٥١٠ أدب .

رواية الحديث ، وينسب إليه أنه ظفر بمسوّدة لكتاب أستاذه ابن حجر فى الطلال ، وحجبه عن الناس ونسبه لنفسه ، ويرميه بالجهل والحماقة والكذب فى عبارات شديدة . وقد استمر صدى هذه الخصومات الأدبية المضطرمةيدوى مدى حين بعد وفاة السخاوى وخصومه ، حتى أن ابن إياس الذى كتب تاريخه بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، يشير إليها ، ويقول عند ذكر وفاة السخاوى « إنه ألف تاريخاً فيه أشياء كثيرة من المساوئ فى حق الناس »[١] .

بيد أن الضوء اللامع ، بالرغم من هذه النزعة الهدامة التى تسيطر على معظم تراجمه ، يعتبر أثراً فريداً فى بابه ، لا من حيث موضوعه ، ولكن من حيث فنه وأسلوبه . ففيه يرتفع السخاوى ، رغم ما يحفزه من شغف التجريح والهدم ، إلى أسمى ضروب الابتكار والبراعة فى التصوير والتحليل والعرض ، وفيه يستحيل النقد الأدبى من الرواية المجردة إلى فن حقيقى ، ويتخذ الأسلوب النقدى صبغة محدثة شبه علمية . كان السخاوى متقدماً عصره بمراحل ، وكان فى القرن التاسع الهجرى أو القرن الخامس عشر الميلادى ، يقوم بنفس الدور الذى قام به سانت بيف Sainte Beuve ، النقادة الفرنسى[٢] فى أواسط القرن التاسع عشر فى النقد الأدبى . وكما أن سانت بيف تناول مجهود أقرانه وكتاب عصره ، بالتحليل العميق ، وغالباً بالنقد اللاذع ، وكما أنه فى فصوله الشهيرة « حديث الإثنين » Causeries de Lundi ، كان فناناً قوى التصوير ، ولكن صارم الوطأة قليل العطف ، كثير التنقيب عن مواضع الضعف ، فكذا تناول السخاوى فى الضوء اللامع مجهود أقرانه ومعاصريه وأساتذته وتلاميذه ، بنوع من التحليل

---

(١) تناولنا هذه الخصومات الأدبية الشهيرة فى فصل جامع عنوانه « معارك قلمية مصرية فى القرن التاسع الهجرى » وقد نشر فى كتابنا « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » (الطبعة الثانية) ص ٢٦١ — ٢٧٥ .

(٢) سانت بيف كاتب وشاعر ونقادة فرنسى كبير . ويعتبره البعض أعظم النقدة الأدبيين فى العصر الحديث . ولد سنة ١٨٠٤ وتوفى سنة ١٨٦٩ . ودرس الطب ولكنه مال إلى الأدب وظهر منذ حداثته بقوة الجدل والملاحظة ، ودقة التصوير والنقد . وكان صارما شديد الوطأة . ومعظم كتاباته فى النقد الأدبى ، وأعظمها جميعا فصوله الشهيرة « حديث الاثنين » . وهى نماذج باهرة للنقد الأدبى ، وتقع فى خمسة عشر مجلدا .

الدقيق ، والتصوير البارع ، ولكن نزعة الهدم تغلبه فى أحيان كثيرة ، فيغدو خبيثاً شديد الوطأة ، لاذع التجريح ، ظاهر التحامل . وكما أن سانت بيف كان أستاذ النقد الأدبى فى عصره ، وكان يقود الحركة الأدبية من هذه الناحية ، ويطبعها بطابعه القوى ، فكذا كان السخاوى محرر النقد الأدبى فى عصره ، بل هو فى نظرنا أستاذ النقد فى الأدب المصرى كله ، وكان مدى نصف قرن يتزعم جناحاً قوياً من الحركة الأدبية يطبعه بطابعه القوى ، ويثخن بقلمه طعناً فى معظم أقرانه ومعاصريه . وأخيراً نرى عاطفة الزهو والاعتداد بالنفس تجمع بين الرجلين ، فسانت بيف يقول عن فصوله النقدية ، أعنى « حديث الإثنين » ، أنها « كانت إشارة بعود الآداب » كأنه لم تكن ثمة قبل سانت بيف آداب حقيقية ، ولا كان نقد صحيح . وأما السخاوى ، فيجعل نفسه أستاذ عصره ، وحكماً على أكابر عصره ، له الكلمة الأخيرة ، فيما يقضى به من مديح وتزكية ، أو تجريح وانتقاص ، وذلك حسبما يقول لنا فيما تقدم من أقواله التى نقلناها من مقدمته .

* * *

وكتب السخاوى إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى فى التراجم ، منها حسبما يذكر كتاب « الشافى من الألم فى وفيات الأمم » وهو ثبت لوفيات الأعيان فى القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر فى مجلد ضخم أسماه « كتاب الجواهر والدرر » وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية لهذا الكتاب ، وفى خاتمته ما يفيد أن السخاوى كتبه فى مكة سنة ٨٧١ هـ ؛ وفيه يتحدث بإفاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ، وما قيل فى رثائه من نثر ونظم .

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوى أنه كتبها ، ولكنها لم تصل إلينا مثل « التاريخ المحيط » الذى يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ المدنيين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى منوعة منها :

ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع فى بيان المساجد والجوامع ، عمدة المحتج فى حكم الشطرنج ، الكنز المدخر فى فتاوى شيخه ابن حجر ، القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ؛ ومن هذا الأخير نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

* * *

ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ، أولها كتاب « القول التام فى فضل الرمى بالسهام » وهو كتاب طريف فى موضوعه ، وقد وقفنا على نسخته المخطوطة الوحيدة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٧٦٥ الغزيرى ؛ ويقع فى ١٢٣ صفحة صغيرة ، ومكتوب بخط نسخ جميل ، وبه أحاديث وحكم عن فضائل الرمى بالسهام والفروسية والشجاعة فى الحروب ، وفى نهاية أنه كتب سنة ٨٧٥ هـ ، أعنى فى حياة المؤلف .

وأما الثانى ، فهو كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وهو رسالة نقدية قيمة ، يعرّف السخاوى فيها علم التاريخ ويشيد بفضله ؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التى تدخل فى حيز التاريخ ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الإسلامية التى فى مختلف أبواب التاريخ وعصوره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف فى تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين والأطباء والأشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأمهات الكتب التى وضعت فى هذه النواحى المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة .

هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوى وآثاره ، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، إذا أردنا أن نفى شخصية السخاوى ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث ؛ وقد كان السخاوى بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الإسلامية والعالم الإسلامى فى القرن التاسع الهجرى .

هذا ويحلو للسخاوى أن يذيل ترجمته لنفسه بإيراد طائفة كبيرة مما قاله فى

مديحه وتقدير علمه واجتهاده أقرانه ومعاصروه . فمن ذلك ما قاله العز الحنبلي :

« الإمام العلامة الحافظ ، الأستاذ الحجة ، التقي ، المحقق ، شيخ السنة ، حافظ الأمة ، إمام العصر ، أوحد الدهر ، مفتي المسلمين ، محيي سنة سيد الأولين ، أبقاه الله للمعارف علماً ، ولمعالم العلم إماماً مقدماً ، وأحيا بحياته الشريفة مآثر شيخه شيخ الإسلام ، وجعله خلفاً عن السلف الأئمة الأعلام » .

وما قاله قاضي القضاة علم الدين البلقيني : « الشيخ الفاضل العلامة الحافظ ، جمع فأوعى ، واهتم بهذا الفن ولم يزل له يرعى ، وصرح غير مرة بالانفراد » .

وقول السراج العبادي فيه : « هو الذي انعقد على تفرده بالحديث النبوي الإجماع ، وأنه في كثرة اطلاعه وتحقيقه لفنونه بلغ ما لا يستطاع ، ودونت تصانيفه واشتهرت ، وثبتت سيادته في هذا الفن النفيس وتقررت ، ، ولم يخالف أحد من العقلاء في جلالته ووفور ثقته وديانته وأمانته ، بل حرصوا بأجمعهم بأنه هو المرجوع إليه في التعديل والتجريح ، والتحسين والتصحيح ، بعد شيخه شيخ مشايخ الإسلام ابن حجر » .

وقول الشهاب الحجازي : « الإمام العلامة حافظ عصره ، ومسند شامه ومصره ، هو بحر طاب مورداً ، وسيد صار لطالبي اتصال متون الحديث على الحالين سنداً ، بل هو لعمري عين في الأثر ، وما رآه أحد ممن سمع به إلا قال ، قد وافق الخبر الخبر » .

وقول بدر الدين العيني عن بعض مصنفاته : « إنه حوى فوائد كثيرة غزيرة ، وأبرز مخدرات المعاني بموضحات البيان ، حتى جعل ما خفي كالعيان ، فدل على أن منشئه ممن يخوض في بحار العلوم ، ويستخرج من دررها المنثور والمنظوم ، وممن له يد طولى في بدائع التراكيب ، وتصرفات بليغة في صنائع التراتيب ، زاده الله فضلا يفوق به على أنظاره ، وتسمو به في سماء قريحته قوة أفكاره » .

ووصفه المحيوي الكافياجي بقوله : « الإمام الهمام زين الكرام ، فخر الأنام ، الصالح الزاهد ، العارف ، العالم العلامة ، النسابة ، العمدة ، الرحلة ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، الموصوف بالمعارف القدسية ، المشهور بالكمالات السنية الإنسية ، الفرد الفريد الوحيد ، المشهود له بأنه إمام جليل ، أحفظ

زمانه فى المنقول والمعقول بالاتفاق ، المقدم على الكل بالاستحقاق ، فى جميع البلدان والآفاق » .

ومما كتبه فى وصفه الرضى أبو حامد بن الضياء : « الإمام العالم المفيد الأوحد الفريد ، قدوة المحدثين ، وعمدة العلماء العاملين ، نفع الله به ، وأعاد من بركته ، ووصل الخير بسببه . وقال ، قدم بيت الله الحرام ، وجاور لدى بيت الله المعظم ، وتجرد للعبادة مجتهداً ، وواصل ذلك بالفحص عن رواة الحديث بها مستعداً ، تكميلا لمراده ، وتحصيلا لمفاده ، فأفاد واستفاد ، واشتغل وأشغل ، ورام الإحاطة بالتحصيل فحصل » .

وزاد السخاوى على ذلك بأن أورد طائفة من النظم مما مدحه به بعض أقرانه وأصدقائه . ومن ذلك قول المليجى الخطيب من قصيدة :

أولاك فضلا فى حديث نبيه ... تبدى جميل الوصف من أنبائه
تحلى ارتجالا فيه وصف رجاله ... وتذيع ما قد شاع من أسمائه
يا شمس دين الله حسبك ما تجد ... من خير خلق الله عند لقائه
فضلا تجيزك وهو أكرم سيد ... أغنى الورى بنواله وسخائه
والفضل فضلك فى الحديث وغيره ... عجزاً لمقيد الوصف عن إحصائه

وقال ابن الحمصى :

يا خادماً أخبار أشرف مرسل ... وسخا فنسبته إليه سخاوى
وحوى السياسة والرياسة ناجحاً ... منهاج حبر للمكارم حاوى

وقال الزين الإشليمى :

يا سيداً أضحى فريد زمانه ... ودليل ما قد قلته الإجماع
عندى حديث مسند ومسلسل ... يرويه ذو الاتقان لا الوضاع
ما فى الزمان سؤال يلقى عالماً ... صحت بذاك إجازة وسماع
الخير فيك تواترت أخباره ... وهو الصحيح وليس فيه نزاع (١)

وقد أطال السخاوى فى إيراد هذه المدائح . ولعله كان يريد بتسجيلها أن يقدم إلى الخلف رده على خصومه العديدين ، الذين نشبت بينه وبينهم تلك الخصومات الأدبية المضطرمة التى أشرنا إليها .

(١) وردت هذه المدائح المنثورة والمنظومة فى ترجمة السخاوى لنفسه فى الضوء اللامع ج ٢ ص ٢١ — ٣٠ .

الفصل الثامن

جلال الدين السيوطى

(٨٤٩ — ٩١١ هـ) : (١٤٤٥ — ١٥٠٥ م)

يعتبر العلامة جلال الدين السيوطى خاتمة الأئمة والحفاظ من أكابر المحدثين والفقهاء فى تاريخ مصر الإسلامية المستقلة .

والسيوطى من أقطاب الموسوعات فى العلوم الإسلامية والعربية . ومن الصعب أن نخصه بعلم من علوم الدين أو اللغة أو الأدب . ذلك أنه خلف لنا تراثاً هائلا من كتب التفسير والحديث ومتعلقاته ، والفقه ومتعلقاته ، وعلوم اللغة ، والتاريخ والأدب ، يبلغ على قوله فى ترجمة نفسه زهاء الثلاثمائة كتاب ، ويبلغ على قول من ترجموه بعد وفاته ، زهاء الخمسمائة أو الستمائة[1] .

ولكن الذى يهمنا من هذا التراث العريض ، هو القسم المتعلق بالتاريخ ، وبتاريخ مصر الإسلامية بنوع خاص . وإن ما تركه لنا السيوطى من المؤلفات التاريخية ، يسمح لنا بأن ننظمه إلى جانب كونه إماماً من أئمة الحديث كذلك فى سلك المؤرخين . وهو فى ذلك يشبه سلفه الحافظ ابن حجر ، فقد ترك لنا كلاهما تراثاً تاريخيا يختلف فى قيمته وأهميته .

وهو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الشيخ همام الدين الخضيرى الأسيوطى الشافعى . وترجم لنا السيوطى نفسه فى باب الأئمة المجتهدين ، ويقول لنا إنه يقتدى فى ذلك بالمحدثين من قبله ، كالإمام عبد الناصر الفارسى فى تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطة ، والحافظ ابن حجر فى قضاة مصر ، ثم يقول لنا إنه لا يعلم

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب الكواكب السائرة ، ويقول بالثانية ابن إياس فى تاريخه ج ٣ ص ٦٣ .

بالتحقيق ماهية نسبته بالخضيرى ، ولكنه يظن أنها نسبة إلى الخضيرية وهى محلة ببغداد ، وأن جده الأعلى يكون بذلك أعجمياً أو من الشرق . وقد كانت أسرة السيوطى وفقاً لقوله من أهل الوجاهة والرياسة . منهم من ولى الحكم ، ومن ولى الحسبة ، ومن اشتغل بالتجارة ، وبنى مدرسة بأسيوط ، ووقف عليها أوقافاً جليلة . ولكنها لم تنجب من العلماء ، فيما يظن سوى والده ، الذى يترجمه فيما بعد فى باب الفقهاء الشافعية .

ولد السيوطى فى مستهل رجب سنة ٨٤٩ هـ (أكتوبر سنة ١٤٤٥ م) وتوفى والده وهو دون السادسة ، فأسندت وصايته إلى جماعة من العلماء . وأبدى الصبى ذكاء وتفوقاً فى الحفظ ، وحفظ القرآن فى الثامنة ، ثم حفظ عمدة الأحكام ، ومنهاج الفقه والأصول للنووى ، وألفية ابن مالك . وشرع فى الاشتغال بالعلم منذ بداية سنة ٨٦٤ هـ، وهو فى نحو الخامسة عشرة ، ودرس الفقه والنحو على جماعة من الشيوخ ، ودرس الفرائض على الشيخ المعمر شهاب الدين الشارمساحى ، وقرأ شرح الكافية لابن الحاجب ومقدمة إيساغوجى فى المنطق على الشيخ سعد الدين المرزبانى ، ولزمه حتى مات فى سنة ٨٦٧ هـ ، ولازم فى الفقه أستاذه شيخ الإسلام علم الدين البلقينى حتى وفاته ، ثم لازم ولده صالح البلقينى ، ثم لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوى منذ سنة ٨٧٨هـ ، ولزم فى الحديث والعربية الإمام تقى الدين الشبلى ، ولزم العلامة محيي الدين الكافيجى أربع عشرة سنة ، وأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعانى والبديع ، وقرأ فى الطب على محمد بن إبراهيم الدوانى ، وكان قد قدم إلى القاهرة من بلاد الروم . وذكر الداودى تلميذ السيوطى فى ترجمته ، أسماء شيوخه أجازة وقراءة وسماعاً ، وقد بلغوا أحد وخمسين شيخاً .

ويقول لنا السيوطى إنه شرع فى التأليف منذ سنة ٨٦٦ هـ ، أعنى قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، وأن مؤلفاته قد بلغت إلى وقت كتابته لترجمته ثلاثمائة كتاب ، وأنه قام برحلات إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور (منطقة تشاد) ، وأدى فريضة الحج ، وأنه شرب من ماء زمزم لكى يصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى ، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر ، وأنه بدأ الإفتاء من مستهل سنة إحدى وسبعين ،

وعقد إملاء الحديث من مستهل سنة اثنين وسبعين ، وأنه رزق التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء ، ثم يقول : « والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ، سوى الفقه والنقول التى اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم ... ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ، ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله »[١].

ولما بلغ السيوطى الأربعين من عمره ، لزم التجرد للعبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، وشرع فى تحرير مؤلفاته ، وترك وظائف الإفتاء والتدريس ومنها تدريس الحديث بالمدرسة الشيخونية . وكان يقيم فى بداية حياته فى منزل بجوار جامع ابن طولون ، ثم انتقل منه إلى منزله الجديد بروضة المقياس ، فلبث فيه حتى أدركته منيته ، ويقول لنا صاحب الكواكب السائرة إنه لم يفتح طاقة بيته التى على النيل من سكناه[٢] .

وكان الأمراء والأكابر يأتون لزيارته ، ويقدمون إليه الأموال والهدايا النفيسة فيردها . ومما يروى فى ذلك أن السلطان الغورى ، أهدى إليه عبداً خصياً وألف دينار ، فرد المال واحتفظ بالخصى ، وقال لقاصد السلطان ألا يأتيه بعد ذلك بهدية قط ، لأن الله أغناه عن ذلك . وكان لا يتردد إلى السلطان ولا إلى غيره ، كما كان يفعل زملاؤه العلماء ، وطلبه السلطان مراراً فلم يستجب إليه ، وألف فى ذلك كتاباً سماه « ما وراء الأساطين فى عدم التردد إلى السلاطين» وانقطع السيوطى إلى التأليف ، وانهمك فيه . ويقول لنا صاحب الكواكب السائرة ، إن مصنفاته بلغت خمسمائة مؤلف . وقد استقصاها الداودى فى ترجمته ، وقد اشتهر أكثر مصنفاته فى حياته فى البلاد الحجازية والشامية وبلاد الروم والمغرب والتكرور والهند واليمن . ثم يقول « وكان فى سرعة الكتابة والتأليف آية كبرى من آيات الله . وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه ورجاله ،

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) الكواكب السائرة فى مناقب أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى (مخطوط) فى ترجمة السيوطى .

وغريبه ، واستنباط الأحكام منه . وأخبر عن نفسه « أنه يحفظ مائتى ألف حديث » .

ويحدثنا صاحب الكواكب السائرة عن كرامات السيوطى ، ويورد منها ما لا يصدقه العقل ، ثم يقول لنا إن السيوطى تنبأ بدخول ابن عثمان مصر قبل أن يموت ، وأنه سوف يدخلها فى افتتاح سنة ثلاثة وعشرين وتسعمائة ، كما أخبر أيضاً بأمور أخرى . ثم يختتم ترجمته بقوله :

« ومحاسنه ومناقبه كثيرة لا تحصى ، ولو لم يكن له من الكرامات الا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً لمن يؤمن بالقدرة . وله شعر كثير ، أكثره متوسط ، وجيده كثير ، وغالبه فى الفوايد العلمية والأحكام الشرعية »[١] .

وتوفى السيوطى فى فجر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ (أكتوبر ١٥٠٥ م) بمنزله بروضة المقياس ، بعد أن مرض سبعة أيام بورم شديد فى ذراعه الأيسر[٢] ، ودفن بمشهد حافل بحوش قوصون خارج باب القرافة ، وكان فى نحو الثانية والستين من عمره .

ورثاه العلامة الرحالة عبد الباسط بن خليل الحنفى بقصيدة يقول فيها :

مات جلال الدين غيث الورى	مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدى الهدى	ومرشد الضال بنفع يعود
فياعيون انهملى بعده	ويا قلوب انفطرى بالوقود
واظلمى يادنيا إذا حق ذا	بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق الضوء بأن ينطفى	وحق للقايم فيك القعود[٣]

— ٢ —

والآن فلنلق نظرة سريعة على تراث السيوطى ، وهو تراث ضخم منوع ، وقد أورد لنا السيوطى منه فى ترجمته لنفسه جملة كبيرة ، وقسمه إلى عدة أبواب .

---

(١) الكواكب السائرة فى ترجمة السيوطى .

(٢) يبدو من ذلك ، حسبما يفسره لنا الطب الحديث أنه توفى من انسداد فى الشريان .

(٣) ترجمة السيوطى فى الكواكب السائرة ، مخطوط دار الكتب رقم ١٢٠٦ تاريخ ، المجلد الأول لوحات ٤٣٠ — ٤٤٠ .

الأول ، فن التفسير والقراءات ، ومنه : الإتقان فى علوم القرآن . الدر المنثور فى التفسير المأثور . أسرار التنزيل . التبحير فى علوم التفسير . شرح الشاطبية فى القراءات العشر . والثانى فى الحديث ، ومنه : كشف المغطى فى شرح الموطا . التوشيح على الجامع الصحيح . جمع الجوامع أو الجامع الكبير . الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج . عين الإصابة فى معرفة الصحابة . اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ، وكثير غيرها . والثالث فى الفقه ومتعلقاته ، ومنه : تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع . الجامع فى الفرائض . مختصر الأحكام السلطانية للماوردى . الأشباه والنظائر ، وغيرها . والرابع فى العربية ومتعلقاتها ، ومنه : شرح ألفية ابن مالك . الأخبار المروية فى سبب وضع العربية . شرح كافية ابن مالك . السيف الصقيل فى حواشى ابن عقيل . عقود الجمان فى المعانى والبيان . وغيرها . والخامس فى التاريخ والأدب ، وهو الذى يهمنا هنا . وقد أورد لنا السيوطى منه المؤلفات الآتية :

تاريخ الصحابة وقد مر ذكره . طبقات الحفاظ . طبقات النحاة الكبرى والوسطى والصغرى . طبقات المفسرين . طبقات الأصوليين . طبقات الكتاب . حلية الأولياء . طبقات شعراء العرب . تاريخ الخلفاء . حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . تاريخ أسيوط ، معجم شيوخى الكبير . الملتقط من الدرر الكامنة . تاريخ العمر وهو ذيل على إنباء الغمر . رفع الباس عن بنى العباس . وعدة أخرى من مؤلفات ورسائل مختلفة .

وليس من موضوعنا أن نستعرض تراث السيوطى ومؤلفاته التى تبلغ المئات عداً ، والتى أوردنا منها فيما تقدم بعض نماذجها ، وإنما يعنينا من هذا التراث كله بعض مؤلفات السيوطى فى التاريخ ، وهى التى تتعلق بتاريخ مصر ، أو تتصل به عن قرب .

(١) وأول هذه المؤلفات وأهمها دون شك هو كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » . وهو مؤلف ضخم يقع فى مجلدين كبيرين . يتحدث فى أولهما عن ذكر مصر فى القرآن والحديث ، ثم تاريخها الغابر حسبما ترويه الأساطير المتداولة ، وعجائبها مثل الأهرام ومنار الإسكندرية ، ثم يتحدث

عن فتحها فى الإسلام ، وعن خططها ، وما يتعلق بالجزية والمكوس ، ويقدم لنا بعد ذلك جزءاً من مؤلفه « درّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » يذكر فيه من دخلها منهم من حرف الألف حتى حرف الجيم . ثم يذكر من دخلها من التابعين ، وأتباع التابعين . ثم يحدثنا عمن كان بها من الأئمة المجتهدين ، والحفاظ والمحدثين والفقهاء ، على اختلاف مذاهبهم ، وأئمة القراءات ، وأئمة النحو ، وأرباب المعقولات والحكماء ، والوعاظ والقصاص والمؤرخين ، والشعراء والأدباء .

ويتحدث فى المجلد الثانى عن أمراء مصر ، وسلاطينها فى ظل الخلفاء العباسيين ، ثم عن قضاة مصر على مختلف المذاهب ، ثم عن الجوامع والمدارس ، والنيل وأحواله ومواسمه وجزائره . ويختتم بمختارات من الشعر فى الأنهار والأشجار والرياحين والأزهار والفواكه والمحاصيل الموجودة بمصر .

ونستطيع أن نقول على ضوء هذه المحتويات ، إن كتاب « حسن المحاضرة » يقدم إلينا صورة مصغرة من محتويات « خطط المقريزى » . ثم هو فوق ذلك يقدم إلينا ثبتاً شاملا للعلماء والمفكرين من رجالات مصر على اختلاف صفاتهم ، من الأئمة المجتهدين والحفاظ والمحدثين والفقاء ، إلى أئمة النحو والحكماء والأطباء والوعاظ والمؤرخين والشعراء والأدباء ، كل باب منها منذ القرن الأول للهجرة حتى أواخر القرن التاسع . وهن تراجم صغيرة ، ولكن اجتماعها على هذا النحو الشامل ، يجعل منها قاموساً لتراجم رجالات مصر الإسلامية ، قل أن نجد له مثيلا ، سواء فى شموله أو تبويبه . وبه تراجم قصيرة لرجالات من الصعب أن نجد لهم أية ترجمة فى مكان آخر . وهذا القسم فى نظرنا هو أهم أقسام كتاب حسن المحاضرة .

(٢) كتاب « درّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » ، وهو كتاب صغير ينم عنوانه عن موضوعه ؛ وقد ذكر السيوطى فى مقدمته ، أنه جعله تلخيصاً لكتاب الإمام محمد بن الربيع الجيزى ابن صاحب الإمام الشافعى ، حيث ألف كتاباً فيمن دخل مصر من الصحابة ، وأورد فيه أحاديثهم وما رواه أهل مصر عنهم ، وقد فاته جماعة لم يذكرهم . وقد أراد السيوطى أن يلخص هذا

الكتاب ، وأن يضم إليه ما فات مؤلفه من التراجم والمعلومات . وقد نقل منه فصلا فى كتاب حسن المحاضرة ضمنه ذكر الصحابة من حرف الألف إلى حرف الجيم .

(٣) « تاريخ الخلفاء » . وهو مؤلف ضخم فى « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبى بكر الصديق » إلى عهد المؤلف « على ترتيب زمانهم الأول فالأول » وذكر فى ترجمة كل منهم « ما وقع فى أيامه من الحوادث المستغربة ، ومن كان فى أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة » . ويقدم السيوطى لكتابه بتمهيدات فى ذكر الأحاديث المنذرة بخلافة بنى أمية ، والمنذرة بخلافة بنى العباس . ثم يتبسط فى الكلام على الخلفاء الراشدين بالتعاقب . ثم يتحدث عن خلفاء بنى العباس حتى خلافة المستعصم آخر خلفائهم ببغداد . ويتبع ذلك بالحديث عن خلفاء بنى العباس بمصر ، وأولهم المستنصر بالله أحمد . ويختم كتابه بقصيدة من نظمه فى ذكر الخلفاء . والكتاب عادى ليس به من المزايا أو الخصائص ما يلفت النظر . وقد طبع مراراً بمصر .

(٤) كتاب « نظم العِقْيان فى أعيان الأعيان » . وضعه السيوطى أسوة بمن تقدمه من علماء قرنه فى وضع معاجم للتراجم ، على نحو ما فعل الحافظ ابن حجر فى وضع كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، والبقاعى فى وضع كتاب « عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران » ، والسخاوى فى وضع معجمه الكبير « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » . ويقول لنا السيوطى فى ديباجته « هذا تأليف لطيف فى تراجم أعيان العصر على طريقة أهل العلم الراسخين ، لا عموم المؤرخين ، قصرته على الأعيان ، وأفراد الزمان ، ولم أدع إليه الجفلى ، ولا حشدت فيه ، بل انتقيت أماثل النبلاء ولم أورد فيه إلا محاسن ، ولا وردت إلا زلال ماء غير آسن » .

ثم يقول لنا بعد ذلك فى مقدمة الكتاب ، وهى التى يصفها بأنها مقدمة فيها « فوائد منثورة تتعلق بالتاريخ » ، إنه يورد ما أثر عن والده من الشروط التى يجب أن تتوافر فى المؤرخ ، إذ يشترط فيه الصدق ، وإذا نقل أن يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن يسمى المنقول عنه . ويشترط فيما يترجمه « أن يكون عارفاً

بحال صاحب الترجمة علماً وديناً وغيرهما من الصفات ، وأن يكون حسن العبارة ، عارفاً بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور فى حالة ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه ، وألا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه والتقصير فى غيره » .

والكتاب متوسط الحجم ، يحتوى على مائتى ترجمة ، لأعلام مصر والشام والجزيرة فى القرن التاسع ، من السلاطين والعلماء والحفاظ وغيرهم ، ومنهم أعلام فى بلاد أخرى مثل سلاطين التتار ، وسلاطين الترك ، وسلاطين العراق والجزيرة ، ومنهم بعض النساء . والتراجم كلها موجزة ، ولا تشغل المائتا ترجمة فيه أكثر من مائة وستين صفحة من المطبوع . وممن ترجمهم من أقرانه العلماء : البقاعى ، وابن ظهيرة ، وابن حجر ، والدمامينى ، والبلقينى ، وابن قاضى شهبة ، والمناوى ، وابن جماعة ، وابن عربشاه ، والسخاوى ، والعينى ، وغيرهم[1] .

ونحن نعرف ما اضطرم بين السيوطى والسخاوى من خصومة أدبية ، تبادلا فيها الحملات المرة . وكما حمل السخاوى فى ترجمته للسيوطى عليه ، ورماه باختلاس بعض كتبه من تصانيف ابن حجر ، كما رماه « بالهوس ومزيد الترفع حتى على أمه » ، فكذلك ترجم السيوطى للسخاوى فى « نظم العقيان » ، واتهمه بأنه سلق فى معجمه أعراض الناس ، وملأه بمساوئ الخلق . ثم وضع فى حقه رسالة عنيفة لاذعة أسماها « الكاوى على تاريخ السخاوى » حمل فيها على كتاب « الضوء اللامع » ومؤلفه حملة مرة ، ورمى السخاوى بالجهل ، والتجرد من أثواب العلم ، والجهل بأحكام الشريعة ، وضعف الرواية فى الحديث والتفسير إلى غير ذلك من الهنات والسيئات ، وقد سبق أن تناولنا هذه الخصومة وهذه الحملات الأدبية تفصيلا فى كتابنا « مصر الإسلامية » ، كما أشرنا إليها فيما تقدم فى ترجمة السخاوى[2] .

---

(١) نشر كتاب « نظم العقيان » عن مخطوطة المكتبة التيمورية ، ومخطوطة ليدن محققاً بعناية الدكتور فيليب حتى ، نيويورك سنة ١٩٢٧) فى مجلد متوسط الحجم يضم نحو مائتى صفحة .

(٢) راجع كتابى مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (الطبعة الثانية) ص ٢٧٢ و ٢٧٣ وراجع هذا الكتاب ص ١٢٥ و ١٢٦ و ص ١٣٥ — ١٣٧

(٥) « تاريخ السلطان قايتباى والدولة الأيوبية ودول المماليك » . ينسب هذا الكتاب للسيوطى . بيد أنه لم يذكره لنا ضمن مؤلفاته ، وليس بالمخطوط المحفوظ بدار الكتب من جهة أخرى ما يدل على نسبته للسيوطى . ويقول مؤلفه فى مقدمته ما يلى : « ولما أخذ مولانا السلطان الملك الأشرف أيده الله بنصره من ذلك الحظ الأوفى ، والمحل الأسنى ، وانتشر عدله فى الآفاق ، واشتهر ذكره بمكارم الأخلاق ، وضعت له ترجمة أذكر فيها ما يحضر من أوصافه السنية ، وأفعاله المرضية ، وإن كان اللسان يقصر عن حصرها ، والعلم يكل من ربضها ، لتكون باعثة للناظر فيها على مزيد الدعاء له بطول البقاء ، والعلو والارتقاء ، بلغه الله تعالى من فضله كل أمله ، ووفقه لما يرضيه فى قوله وعمله»

وقد تولى الأشرف قايتباى الملك فى سنة ٨٧٢ هـ وتوفى سنة ٩٠١ هـ .

ويتناول المؤلف فى ترجمة السلطان الأشرف هذه ، سيرته وحملاته المتوالية إلى الشام لمحاربة شاه سوار ، وفيها تفصيل لأقسام جيشه وقادته حتى سنة ٨٧٧ هـ ، وتشغل هذه الترجمة حيزاً قصيراً لا يعدو العشر لوحات .

ويورد مؤلف الكتاب بعد ذلك نبذة من أخبار سبعة آخرين من السلاطين . من الملك الناصر صلاح الدين إلى حين « وصول المملكة إلى مولانا المقام الشريف المشار إليه » .

ونحن نشعر أن فى لهجة الكتاب ، وفى اختتامه بالأحاديث الدعائية ، ما يحمل على الاعتقاد أنه فعلا من تأليف السيوطى[١].

(٦) « الشماريخ فى علم التاريخ » . هذا كتيب أو رسالة صغيرة للسيوطى تتألف من ثلاثة أبواب ، يتناول أولها مبدأ التاريخ ، والمقصود به الحوادث التى تتخذ أساساً للبدء بتاريخ العالم ، مثل هبوط آدم ، وبعث نوح ، والطوفان ، وبناء البيت ، ثم عام الفيل ، وأخيراً الهجرة التى اتخذها عمر بن الخطاب بداية لتاريخ المسلمين . ويتحدث فى الباب الثانى عن فوائد التاريخ . وفى الباب الثالث عن فوائد شتى تتعلق به ، وعن طريقة احتساب التاريخ بالشهور والأيام[٢] .

---

(١) توجد من هذا الكتاب نسخة خطية تقع فى ٥٧ لوحة متوسطة مزدوجة . وتحفظ بدار الكتب برقم ٦١ تاريخ .

(٢) نشر هذه الرسالة المستشرق الألمانى زيبولد سنة ١٨٩٤ ، وصدرت فى ليدن . وتقع فى خمسة عشر صفحة من القطع المتوسط .

هذا وقد ترك لنا السيوطى فى باب التاريخ أيضاً عدة من كتب الطبقات ، مثل « طبقات الحفاظ » و « طبقات النحاة » و« طبقات المفسرين » و « طبقات الكتاب » و « طبقات شعراء العرب » و« حلية الأولياء » . وكلها من مجموعات التراجم ، التى تختص بصفة المترجم من أى البلاد .

ونكتفى بما تقدم فى استعراض مجهود السيوطى فى ميدان التاريخ . والسيوطى عالم من علماء الدين قبل كل شىء . ولا شك فى اجتهاده وتفوقه فى هذا الميدان . وتراثه الدينى فى التفسير والحديث والفقه ، يتبوأ مكانة مرموقة ، بين تراث الحفاظ والفقهاء . ولكن إنتاجه التاريخى لا يرقى إلى هذا المستوى ، وفى رأينا أن معظمه يتسم بطابع سطحى ، ولا يمتاز بشىء من التعمق أو الروح النقدية أو الخواص التاريخية المميزة ، التى تجعل منه مراجع قيمة ، للموضوعات التى يتناولها ، ولا يستثنى من ذلك سوى كتاب « حسن المحاضرة » فهو فى نظرنا أهم وأقيم مؤلفات السيوطى التاريخية .

الفصل التاسع

ابن إياس

مؤرخ الفتح العثمانى

(٨٥٢ – ٩٣٠ هـ) : (١٤٤٨ – ١٥٢٣ م)

كانت مصر من بين فتوح الدولة العثمانية ، أعظمها وأيسرها ، ففى « مَرْج دابق » غنم بنو عثمان تراث الدولة الإسلامية ، الذى تكدس فى الشام ومصر مدى تسعة قرون ، وسحقوا دولة السلاطين الزاهرة ، وهى ما تزال تحتفظ بكثير من سالف بأسها وبهائها ، وانتزعوا رسوم الخلافة العباسية بعد ما اتشحت بها مصر عصوراً طويلة . وكان مصير مصر يضطرب فى كفة القدر ، قبل ذلك بأكثر من قرن ، ومن المحقق أنها كانت قبلة لأطماع بنى عثمان منذ اشتد ساعدهم ونما سلطانهم ، وأشرفوا من هضابهم على حدود مصر الشمالية ، وهى يومئذ قاصية الشأم ؛ فكانت مصر تثير جشع أولئك الغزاة بخصبها وغناها ونعمائها . وما كان فتح بنى عثمان لمصر أو على الأقل محاولتهم لهذا الفتح ، لترجأ إلى عام « مرج دابق » لولا أن عاصفة هائلة هبت على العالم الإسلامى قبل ذلك بأكثر من قرن ، فكادت تكتسح جميع الدول الإسلامية ، ولولا أنها انقضت بالأخص على مجد بنى عثمان الفتى فكادت تسحقه فى المهد ؛ ففى موقعة أنقرة أصاب تيمورلنك دولة بنى عثمان الناهضة بضربة شديدة (سنة ١٤٠٢ م) بعد أن اجتاح فى طريقه كل الأمم الإسلامية من سمرقند إلى الشأم ، فخبا ظمأ الفتح الذى شهر بنو عثمان سيفه حيناً ، وشغلوا مدى نصف قرن آخر بإصلاح شؤونهم وإتمام أهبتهم لفتح القسطنطينية . ومنذ محمد الفاتح عاد سيل الفتح العثمانى يتدفق نحو الشمال ، ونحو الجنوب ، وعادت مصر قبلة الفاتحين .

ولم تنج مصر من بطش الفاتح التترى ، فقد انقض تيمورلنك قبيل ذلك على بلاد الشأم ، فافتتحها وعاث فيها أشنع عيث ؛ ولم تنجع أهبة سلطان مصر

وسيره إلى لقاء الفاتح شيئاً فى تلافى النكبة ، ولم تهدأ العاصفة إلا حينما ارتد الفاتح من تلقاء نفسه ، وسار لقتال بنى عثمان . ولو كان تيمورلنك يعنى بالفتوح المستقرة لكانت مصر بلا ريب إحدى غنائمه ، بل هنالك ما يدل على أنه كان يعتزم فتح مصر بعد الشأم ، لو لم تتخذ الحوادث مجرى آخر وتدفعه نحو الشمال . على أن مصر تأثرت أيضاً بتلك النكبة التى سحقت الشأم حصنها من الشرق ، وشغلت حيناً بتحصين قواعدها ، وإصلاح أهباتها .

هذا ، وبينما كانت مصر تختتم عصورها المجيدة ، وتنحدر ببطء إلى طور جديد من الإنحلال ، وتجنح إلى حياة فتور ودعة ، هى أثر عصور طويلة من السلام والعيش الناعم ، إذا بالدولة العثمانية الفتية الناهضة ، تفيق من نكبتها بسرعة ، وتفتتح القسطنطينية ، ثم توغل فى الفتح شمالا وشرقاً . وكان شبح هذا الخطر يلوح لمصر قبل وقوعه بأعوام طويلة . ومنذ أوائل القرن العاشر الهجرى (أوائل القرن السادس عشر) كانت الجيوش العثمانية تهدد الشام من الشمال والشرق . وكانت مصر من جانبها واثقة فى منعتها ، فكانت كلما لاح هذا الخطر تهم لدفعه فى أهبات جزئية محلية . غير أن ثقة مصر فى منعتها ، وربما فى حسن طالعها ، واستسلامها إلى نوع من قدر الحوادث ، كانت أعظم أسباب النكبة . فقد لبثت مصر آمنة هادئة ، حتى اتخذ الفاتح كل أهبته ، وسار سلطان مصر للقائه فى أقصى حدوده الشمالية تاركاً من ورائه حكومة مفككة العرى ، وقواعد غير محصنة ، وعمالا ذوى أطماع وكيد . فكانت المفاجأة الهائلة فى « مرج دابق » ، وكان زوال ملك مصر وسيادتها ، وكان بدء رقها ، وفاتحة ذلتها مدى عصور طويلة ، ذوى فيها مجدها التالد ، وركدت فيها كل نواحى عظمتها السالفة ، وانحدرت إلى شر ما تنحدر إليه أمة عظيمة ، من ضروب الإنحلال الفكرى والاقتصادى والاجتماعى .

والحقيقة أن فتح الترك للأمم العربية والإسلامية ، لم يكن إلا تتمة لأعمال السفك والتخريب الهائلة التى بدأها هولاكو وبرابرته التتار بسحق الدولة العباسية والمدنية الإسلامية ، فى بغداد فى منتصف القرن الثالث عشر ؛ واستأنفها تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر . بيد أن الفتح العثمانى كان باستقراره أعمق أثراً

من الوجهة المعنوية ، وأشد تقويضاً للمدنية الإسلامية ، من الفتوح التتارية المؤقتة .

* * *

كانت حوادث هذا الفتح الذى سلخت مصر فى غمره وظلماته ثلاثة قرون سود ، مادة لتأملات مؤرخ مصرى ، قضى أن يشهد المحنة ، وأن يختتم بأخبارها تاريخه ، الذى بدأه بتدوين سيرة ما قطعته مصر الإسلامية ، من عصور الرياسة والمجد . كان محمد بن أحمد بن إياس سليل أسرة شركسية ، ظهرت فى مراكز الرياسة ، فى مصر والشام ، منذ منتصف القرن الثامن ، واتصلت بالبلاط القاهرى اتصالا قوياً . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ ﻫ وتوفى بها سنة ٩٣٠ (١٤٤٨ — ١٥٢٣ م) ودرس على جماعة من أعلام عصره ولا سيما جلال الدين السيوطى . وسار فى أثر هذه المدرسة التاريخية المصرية الزاهرة ، التى جنحت من التعميم إلى التخصيص ، ورأت أن تعنى قبل كل شىء بتاريخ مصر والإفاضة فيه ، والتى افتتحها المقريزى أعظم أساتذتها بخططه وآثاره الخالدة ، وبرز فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى والسخاوى . نشأت وازدهرت ثم تضاءلت فى القرن التاسع (القرن الخامس عشر) . غير أنها وهبت تاريخ مصر الإسلامية أكبر وأنفس مجموعة من الموسوعات والوثائق ، وامتازت بالأخص بتدوين حوادث عصرها بطريق المشاهدة ؛ وقد نشأ ابن إياس فى أواخر عهدها ، فسار على تقاليدها من تدوين تاريخ مصر ، ولكنه لم يوهب كثيرا من كفاياتها الباهرة ، سواء من حيث الطرافة ،أو الإفاضة أو البيان . ولو لم يقدرلابن إياس أن يشهد حوادث الفتح العثمانى ، وأن يدونها لنا بإسهاب وإفاضة ، لما كان لأثره عن تاريخ مصر كبير قيمة أو أهمية ، لأنه ليس إلا صورة مصغرة من جهود أسلافه ، مجردة من كل ما يميز هذه الجهود من الدقة والمتانة وعميق البحث .

غير أن ابن إياس لم يرد على ما يظهر أن يكتب تاريخ مصر كله بنفس الإفاضة، التى يتميز بها القسم الأخير من هذا التاريخ ، فبينما نراه يجمل تاريخ الفتح الإسلامى والدول الإسلامية الأولى ، وبينما يتناول تاريخ دول المماليك الأولى

بشيء من التوسع ، إذا به ينقلب إلى الإسهاب والإفاضة منذ بدء القرن التاسع ؛ فإذا كانت أواخر هذا القرن ، وهو العصر الذى عاش فيه ابن إياس ووعى صوره وحوادثه ، ألفيته يجعل من تاريخه نوعاً من السجل اليومى ، لا يفوته أى يدوّن فيه كثيراً من الحوادث الخاصة فضلا عن العامة[١] . أما حوادث الأعوام القلائل التى سبقت الفتح العثمانى ، وحوادث الفتح ذاته ، ثم الأعوام القلائل التى تلته ، فإنها تستغرق معظم مجهود المؤرخ ، وتملأ منه أكثر من مجلدين كبيرين .

وفى هذا القسم الذى يدوّن فيه ابن إياس حوادث عصره ، وبالأخص حوادث الفتح العثمانى ، وما تقدمه ، وما تلاه ، تبدو أهمية مجهوده واضحة . ففيه نجد وثيقة فريدة ، تكمل سلسلة الوثائق المتوالية التى تركها لنا المقريزى ، فابن تغرى بردى ، فالسخاوى ، كل عن حوادث عصره ؛ وبذا نستطيع أن نظفر بسيرة قرن بأسره من تاريخ مصر ، ترويه المشاهدة الشخصية . وهى مرحلة ذات أهمية وظواهر خاصة ، لأنها تفصل بين مصر الظافرة المستقلة ، وبين مصر المغلوبة المستعبدة . ومن المحقق أن حوادثها تنم عن كثير من العوامل والظواهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، التى دفعت بمصر يومئذ إلى طريق الإنحلال ، ومهدت إلى سقوطها فريسة هينة فى يد الظافر ، وإلى استكانتها عصوراً طويلة تحت نيره المضطرب .

نشأ ابن إياس كما قدمنا فى النصف الأخير من القرن التاسع فى مدينة

---

(١) مرجعنا فى هذا الوصف هو النص الذى أخرجته مطبعة بولاق سنة ١٣١٢ هـ من تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ولكن المستشرق كاله (Kahle) الذى قارن نص مطبوع بولاق بما يوجد من تاريخ ابن إياس بخطه بمكتبة الفاتح باستانبول — وهو أربعة أجزاء — يعتقد أن معظم المخطوطات التى انتهت إلينا من تاريخ ابن إياس ، إنما هى منتخبات منه فقط ، لأنه بينما نرى فيها الإجمال المخل فى تاريخ بعض السنين ، إذا بنا نجد التوسع والإسهاب فى البعض الآخر . هذا إلى أنه يوجد تباين كبير بين نص مطبوع بولاق ، وبين نص مخطوط استانبول سواء من حيث المدى والترتيب والصحة ، إلى حد أن الإنسان قد يتساءل عما إذا كان الأمر يتعلق بكتاب واحد (راجع مقدمة المستشرق كاله الألمانية ، فى الجزء الرابع من بدائع الزهور الذى نشر متمما لنص مطبوع بولاق ؛ ص — ٢) ، والذى سوف نتحدث عنه بعد .

القاهرة ، غير أنه لم يظهر فى مجتمعها الفكرى كما ظهر أسلافه وأساتذة « مدرسته » ولم يبد براعة خاصة فى فرع بعينه من العلوم والآداب . وقد يرجع ذلك إلى أن الدرس العام كان ظاهرة التفكير فى عصره . فقد كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر من جميع نواحى العلوم والآدب فى عصره ، ولكن شتان ما بين الذهنين . ومال ابن إياس بالأخص إلى درس التاريخ والجغرافية ، وعالج نظم الشعر . ولكنه لم يكن مؤرخاً عظيماً ، ولا جغرافياً محققاً ، ولا شاعراً مجيداً . وكان بيانه يقصر بالأخص عن أداء المهمة الكبيرة التى أخذها على نفسه ؛ فهو يكتب تاريخه بأسلوب ضعيف مفكك ، ويلوذ بتكرار النعوت والألفاظ ، كلما أعوزته حاجة التعبير ، ويلجأ إلى العامية فى كثير من الأحيان . وهو ما يرجع بلا ريب إلى ضعف أصيل فى بيانه ، أكثر مما يرجع إلى انحطاط البيان فى عصره ؛ فإن معاصريه ابن تغرى بردى ، والسيوطى ، والسخاوى كتبوا التاريخ وغيره بلغة قوية وبيان متين . كذلك لا نجد فى مباحث ابن إياس ، سواء ما تعلق منها بجغرافية مصر وخططها وتاريخ نيلها ، مما أودعه كتاب « نشق الأزهار » الذى نتحدث عنه فيما بعد ، كثيراً من التعمق أو الطرافة ، وكل ما هنالك أن ابن إياس يقتبس من المتقدمين من مؤرخى مصر ، مثل ابن عبد الحكم ، والكندى وابن زولاق والقضاعى والمسبحى وابن وصيف شاه والمقريزى وغيرهم . أما الجديد فى تاريخه عن مصر فليس إلا ما كتبه عن عصره ، وبالأخص عن حوادث الفتح العثمانى وما تقدمه وما تلاه . وقد لبثت هذه الرواية التى يتركها ابن إياس عن حوادث عصره ، فيما انتهى إلينا من مخطوطات مؤلفه ، عصراً ، ناقصة تتخللها ثغرة كبيرة ، هى حوادث خمس عشرة سنة من أول شوال سنة ٩٠٦ إلى آخر سنة ٩٢١ هـ ، (١٥٠٠ — ١٥١٥ م) وهى مدة سلطنة السلطان قانصوه الغورى آخر ملوك مصر المستقلة . ولكن البحث الحديث ظفر بها فى مخطوطين : أحدهما بمكتبة باريس ، والآخر فى لننجراد ؛ وظهرت أخيراً إلى الضياء فى مجلد ضخم[١] . وفيها يتناول ابن إياس عصر السلطان الغورى منذ بدايته ، بإسهاب

(١) نشر هذا المجلد بعد طول احتجابه بعناية جمعية المستشرقين الألمانية (Deutsche Morg-enlaendische Gesellschaft) ؛ وقام بتحقيقه وإخراجه الأستاذ پاول كاله (Paul Kahle) الأستاذ بجامعة بون ، بمعاونة الأستاذ محمد مصطفى مدرس العربية بها ، والأستاذ سوبرنهايم ، —

وإفاضة ، ويدوّن حوادثه شهراً فشهراً ، ويوماً فيوماً تقريباً ؛ ويتحدث عن كل ما يتعلق بالسياسة والحرب ، والبلاط ، والحكومة ، والأمن والقضاء ، والوظائف ، والشئون المالية والاقتصادية . ويتتبع بالأخص علائق البلاط القاهرى بالبلاط العثمانى . ويبدو جلياً من روايته أن بلاط القاهرة ، كان يشعر بأن خطر الفتح التركى لمصر غدا قريب الإنقضاض ، ويصانع بلاط قسطنطينية ما استطاع سبيلا إلى ذلك[١] . وكان سلطان الترك سليم الأول من جانبه يخادع سلطان مصر ويهاديه و يراسله[٢] . على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطمئن . بل كان الغورى

= فى مجلد فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير (استانبول سنة ١٩٣١) . وصدره الأستاذ كاله بمقدمة بالألمانية قارن فيها النصوص المختلفة التى وصلتنا من مؤلف ابن إياس . والمرجع فى نشر هذا الجزء الذى افتقدناه حينا من تاريخ ابن إياس مخطوطان : أولهما محفوظ بمكتبة باريس الوطنية (رقم ١٨٢٤) ، ويحتوى على تاريخ مصر من سنة ٨٩١ — ٩١٢ هـ ، ومنقول عن نسخة المؤلف الأهلية فى سنة ١١٢٧ هـ . وعنوانه « بدائع الأمور فى وقائع الدهور ، فى أخبار الدولة (كذا) الملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى » . والثانى محفوظ بالمتحف الأسيوى بلننجراد (رقم ٤٦) ، ويحتو على تاريخ مصر من سنة ٩١٣ — ٩٢١ هـ . وموصوف بأنه الجزء العاشر من تاريخ ابن إياس ومنقول عن نسخة المؤلف سنة ١١٢٧ هـ . ويبدأ هذا القسم الجديد من تاريخ ابن إياس — وقد وصف « بالجزء الرابع » من كتاب بدائع الزهور فى حوادث الدهور — من حيث انتهى الجزء الثانى من فص نسخة بولاق — أعنى من شوال سنة ٩٠٦ هـ . وينتهى بذى القعدة سنة ٩٢١ هـ ومن ثم يتصل بالجزء الثالث من نسخة بولاق الذى يبتدئ بأول سنة ٩٢٢ هـ . وينتهى إلى سنة ٩٢٨ هـ . وهو نهاية التاريخ .

هذا وقد نشر نص جديد لهذا القسم من تاريخ ابن إياس ، قام بإخراجه أيضاً الدكتور باول كاله وزميلاه ، ووصف بأنه « الجزء الخامس » من تاريخ ابن إياس (استانبول سنة ١٩٣٢) متضمنا لتاريخ مصر فى نفس الفترة (٩٢٢ — ٩٢٨ هـ) . بيد أنه توجد بين النصين ، نص مطبوع بولاق ونص المجلد الجديد ، فروق كثيرة ، سواء من حيث الاستيعاب أو المدى أو الترتيب .

وقام العلماء الثلاثة بعد ذلك بنشر ما وسموه « بالجزء الثالث من تاريخ ابن إياس (سنة ١٩٣٦) متضمنا لتاريخ مصر من سنة ٨٧٢ هـ (أعنى منذ السنة التى انتهى فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى من « تاريخه » النجوم الزاهرة) إلى سنة ٩٠٦ هـ . وهو ما يقدمه إلينا الجزء الثانى من مطبوع بولاق ابتداء من سلطنة الأشرف قايتباى (ص ٩٠) وذلك مع فروق كثيرة فى النص .

وقد أسدت جمعية المستشرقين الألمانية ، وأسدى العلماء الثلاثة ، بالعمل على إخراج هذه المجلدات الثلاثة ، ولا سيما « الجزء الرابع » الذى يحتوى على الجزء الفاقد من « بدائع الزهور » خدمة جليلة إلى البحث فى تاريخ مصر الإسلامية .

(١) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٢) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٠٠ و ٣٨٤ .

دائب الأهبة والاستعداد . ولكن الإنحلال كان يسود شؤون مصر يومئذ ، وكانت الثورات الداخلية تفت فى نظمها وأهبتها . وكان الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء فى الإدارة أو القضاء[١] . ويتحدث ابن إياس عن مقدمات الفتح ، ويذكر كيف أن أميراً مصرياً ، نقم على السلطان ، وفر إلى قسطنطينية ، ونقل إلى سليم الأول أخبار مصر وأحوالها ، وأطلعه على قواتها وأسرار دفاعها ، وحدثه عما يسودها من الاضطراب والضعف . ثم يقول : « فعندئذ طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب على أمره » ، مما يدلى بأن المجتمع القاهرى كان يشعر بدنو النكبة وانقضاضها[٢] .

* * *

وفى هذا القسم من روايته ، أعنى تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨ هـ ، يبدى ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدى بالأخص دقة فى الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها فى تحليل الأنفس والعواطف . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها ، وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التى قدر للمؤرخ أن يشهدها فى خاتمة حياته ، فهى التى تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق . ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصرى فى هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب فى بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ فى سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله الإجتماعية . وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها . ولكن لابن إياس فضلا فى ذلك ، هو أنه يعنى فى كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث فى نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة ؛ فنرى فى روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم فى سائر الطبقات ، اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ؛ ونشعر بوحى القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً فى سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين فى إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال

---

(١) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٤٩و٢٥٦و٢٥٧و٢٦٤ .

(٢) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٤٧١و٤٧٣ .

وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام ؛ ونرى الطبقة الوسطى منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط فى مجرى الحوادث . أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة ، تظهر فى طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفى أمام القوة . ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم ، من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، فى نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام .

أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة ، فيعرضها ابن إياس فى سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلى السلطان العرش، ويباشر الحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه . وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التى عرفت، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية، كلها فى صعيد واحد؛ وكانت مناصب القضاء الأعلى، وهى أربعة، لكل مذهب من المذاهب الأربعة منصب يملؤه قاض للقضاة، تعتبر من الوجهة النظرية أرفع مناصب الدولة، ويلحق بها منصب المحتسب العام . ولم تكن ثمة وزارة وإنما كانت الهيئة التنفيذية مزيجاً من عدة مناصب كبرى ، يملؤها الأمير الكبير ، وأمير المجلس ، والأمير اخور ، والأمير الداوادار الكبير، والإستادار ، وكاشف الكشاف ، وأمير السلاح[1]. وكان اختصاص هذه الوظائف يتقلب ويختلف باختلاف السلاطين . ويتتبع ابن إياس هذه التقلبات بعناية ، ويذكر أسماء القضاة والوزراء والأمراء والنواب وغيرهم من كبراء الدولة فى كل حكم . ونرى مما يذكر إلى أى حد كانت دولة المماليك الشراكسة ، تمعن فى المركزية والاستئثار بالسلطات ، فلم يكن بيد المصريين من مناصب الدولة سوى القضاء فى الغالب ؛ ونرى كيف كانت المناصب سلعة تباع وتشترى ، ويتجر فيها السلطان والأمراء والقضاة ؛

(١) لا يتسع المقام لأن نشرح اختصاص كل من هذه المناصب بالتفصيل ، ولكنا نذكر فقط أن المحتسب العام يسهر على تنفيذ القوانين (الشريعة) ويضرب على أيدى المتهكين لأحكامها فهو كالنائب العام فى عصرنا من بعض الوجوه . والأمير اخور هو ناظر الاصطبلات والركائب الملكية ومتولى جميع أمورها ، والداوادار هو المتولى تبليغ الرسائل السلطانية ثم كانت له بعد ذلك الولاية والعزل . والإستادار متولى أمر البيوت السلطانية (ناظر الديوان الخاص) . وأمير السلاح كوزير الحربية إليه شؤون الجيش . وكاشف الكشاف كوزير الداخلية إليه مرجع كشاف الأقاليم أو مديريها .

وكيف كانت الحقوق والأموال ، بل الأرواح فى كثير من الأحيان ، معلقة على نزعات العسف والتحكم والهوى .

ويستعمل ابن إياس فى رواية الحوادث والأوامر العامة لغة الدواوين أو اللغة الرسمية ، كما أنه يستعمل العبارات والأساليب التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، فى التعبير عن كثير من شئون الحياة الإجتماعية ، وفى تصوير كثير من العادات والأحوال. وهذا وجه طريف فى روايته ، فهو لا يلجأ إلى أسلوبه وعباراته الخاصة حيثما كانت هنالك لغة رسمية أو عبارات ذائعة متداولة . فنراه مثلا يتحدث دائماً عما «يرسمه» السلطان من الأوامر ، وعمن «يرسم» بشنقهم أو توسيطهم من الكبراء أو العامة ، وعمن يقضى بإقامتهم فى الترسيم (الإعتقال أو الحجز) لدين أو جرائم ؛ ويذكر فى مواضع كثيرة كيف كان السلطان أو الوالى أو المحتسب يشهر فى القاهرة «المناداة بالأمان والاطمئنان، والبيع والشراء» كلما حدثت فتنة أو سرى إلى الناس جزع أو انزعاج ، ويورد الأوامر والنداءات فى ذلك وغيره بألفاظها الرسمية ؛ وكيف كان ينذر المخالفون دائماً ، « بالشنق بلا معاودة » . كذلك يصف لنا حياة البلاط والمواكب السلطانية وغيرها من المواكب العامة ، وكيف كان السلطان يشق القاهرة ، « فتفرش له الشقق الحرير فى الطريق ، وترتفع له الأصوات بالدعاء والنصر ، وتنطلق له النساء بالزغاريت من الطيقان » ؛ ويشير دائماً إلى شؤون العصر وعاداته الإجتماعية ، فيصف الحفلات والأعراس والجنائز الشهيرة ، فى عبارات واحدة دائماً كقوله عن حفلة زواج شهيرة : « فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ، وملوا فيه أسمطة حافلة ، من الأطعمة الفاخرة ، وصنعوا فيه مزهرة بين وشامات ، وكان من المهمات المشهورة » . وهكذا . وهى لغة العصر الإجتماعية يوردها ابن إياس دائماً فى مواطنها إلى جانب اللغة الرسمية . ويصف ابن إياس أيضاً الخلع الملوكية ، وثياب الأمراء ، والقضاة والجند ، والخاصة والعامة ، وما يعتورها من تحوير وتغيير ؛ كذلك يصف التقلبات الإقتصادية من غلاء ورخاء ؛ وتغييرات النقد وآثارها فى المعاملات . وعلى الجملة فإنه يصور لنا فى سياق روايته مجتمع عصره سواء فى الحياة العامة أو الخاصة ؛ أو فى الخلال والعادات ، والميول والأهواء ، تصويراً قوياً شائقاً .

وترك لنا ابن إياس ، إلى جانب مؤلفه عن تاريخ مصر ، مؤلفاً آخر ، هو مزيج من التاريخ والجغرافية وعنوانه : « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » . وفيه يتحدث حسبما يقول فى مقدمته عن « عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء ، وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد . . . وأخبار النيل والأهرام ، وعجائب البلاد التى من أعمال مصر ، وخططها وأقطارها ». ويسمى الكتاب فى نسخة دار الكتب الخطية « خريدة العجائب ، وبغية الطالب» . وذكرت محتوياته على صفحة العنوان بما يلى : « فيه ذكر عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وأخبار الملوك السابقة ، وأخبار النيل وعجائبه ، وأخبار البلدان والبحار ، والأشجار ، والجزائر ، والجبال ، والعيون ، والأبيار ، والدور والكنائس والقصور » . ويتناول ابن إياس فيه طرفاً من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة ، وأخبار بعض آثارها وصروحها . والكتاب فياض بالأساطير والخرافات القديمة التى رددها المتقدمون . وابن إياس كعادته فى ذلك ناقل فقط لا يأتى بجديد ، ولا يعنى بتحقيق أو تمحيص ، وليس لأثره قيمة تاريخية أو جغرافية تذكر (١) .

— ٢ —

كانت حوادث الفتح العثمانى آخر ما دوّن قلم ابن إياس ؛ فهو يصل فى روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . ونحن نعرف أن المؤرخ توفى بعدئذ بقليل (سنة ٩٣٠ هـ) . ورواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى هى كما قدمنا أهم وأنفس ما فى أثره ، وإن كان بيانه لم يسبغ عليها كل ما يجب من دقة وقوة . فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة ، الحاسمة فى تاريخ مصر وتاريخ الإسلام ، سجلا يومياً مسهباً ، يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة . وهو لا يمهد فيه إلى الحوادث ، ولا يعنى بربطها ، بل يدونها مرسلة كما وقعت ، ويحصى آثارها إحصاء من رأى وسمع . وما كان لابن إياس أن يمهد أو يكثر التعليق فى رواية انقلاب مفاجئ

(١) تحفظ نسخة دار الكتب الخطية من الكتاب المذكور برقم (٤٣٩ جغرافية) . وقد نشرت من الكتاب قطعة معظمها عن النيل والمقياس ، وأرفقت بترجمة فرنسية بقلم المسيو لانجليس أمين قسم المخطوطات الشرقية بمكتبة باريس سنة ١٨٥٧ .

صعقت مصر لحوادثه السريعة المدهشة ، وقضت من بعده حيناً بين التصديق والتكذيب ، والرجاء واليأس . وكل ما هنالك أن ابن إياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، بالاستناد إلى الحوادث دائماً ، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة فى عبارات شديدة ، وأحياناً مؤثرة ، ويغتبط بمصرعهم ؛ ويعنى بالتبسط فى سرد فظائع الترك وآثام الفاتح ، ويشيد ببطولة طومان باى آخر الزعماء المدافعين عن حرية مصر ، ويبكى مصرعه ومصرع أعوانه وجنده ، ويرسل عبارات التأثر أو السخط أو الغضب أو الإشفاق كلما عنّ له ذلك . على أن قصور بيانه كثيراً مايعجزه عن أن يسبغ على هذه البوادر النفسية ، كل ما يجب من القوة والوضوح . وهذا القصور فى البيان ينتقص كثيراً من قيمة الرواية التى يخلفها لنا ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى . كان ابن إياس بحاجة إلى بيان كبيان جيبون[1] ليستطيع إخراج الصور التى يقدمها إلينا فى أثوابها الرائعة ، وليصف لنا فظائع الترك فى القاهرة ، وما جنوا على الأنفس والأموال والنظم ؛ كما وصف جيبون بقلمه الجبار فظائعهم فى قسطنطينية ، وما ارتكبوه فيها يوم افتتاحها من شنيع السفك والإثم ، وما جنوا على الحضارة البيزنطية بقية أعظم الحضارات الخالدة . غير أن ابن إياس لم يكن مصوّراً بارعاً للحوادث ، ولم يكن بالأخص ناقداً قوى التعليل ، يقرأ فى الحوادث غير نواحيها المادية . ولكن كثيراً من الإفاضة ، وقليلا من التأمل ، وطرفاً من الملاحظة القوية ، تعوّض عن هذا النقص فى كثير من المواقف ؛ وتقدم إلى الناقد مادة لا بأس بها .

وقد بينا كيف أن مصر كانت ترتجف لشبح هذا الفتح قبل وقوعه، وكيف أن المؤرخ كان يستشعر النكبة ، ولكن مصر لم تكن تتوقع أن يسحق استقلالها ومجدها فى لمحة صاعقة . فكانت « مَرْجُ دابق » مفاجأة مروعة ، ذهلت لها مصر وصعقت . ويبدو أثر هذا الروع واضحاً فى أول صرخة تبدر من المؤرخ فى ذكر النكبة إذ يقول : « وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار »[2] . ولا غرو فقد خرج السلطان

---

(١) إدوارد جيبون Gibbon المؤرخ والفيلسوف الانكليز الشهير (١٧٣٧ – ١٧٩٤) ، مؤلف كتاب « اضمحلال وسقوط دولة الرومان » Decline and Fall of the Roman Empire.

(٢) بدائع الزهور – ج ٣ ص ٤٥ .

الغورى ، إلى شمال الشأم قاصية الحدود المصرية ، بجيشه الزاهر ، ليرد عادية الغزاة عن مصر ، فكانت « مرْجُ دابق » قبراً له وقبراً لحريات مصر . يقول المؤرخ : « وزال مُلك الأشرف الغورى فى لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه »[1] . ويفيض فى تفاصيل الواقعة الهائلة التى نشبت بين الغزاة ، وبين الجيش المصرى فى « مرج دابق » فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ (أغسطس سنة ١٥١٦) ، وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ؛ ويصف صدى النكبة فى القاهرة وكيف « قام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا . وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء . . . ورجت القاهرة ، وضجت الناس ، واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال »[2] . ثم يقف المؤرخ قليلا ليصف الغورى وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره ؛ وينظم فى ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى ... فيما سمعت حوادثاً مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها ... بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذى وقعة ما مثلها ... سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغورى كان مليكنا ... لكنه قد جار فينا وافترى
أعماله ردت عليه بما جنى ... والدهر جازاه بأمر قدرا

ويختم ابن إياس حديثه عن الغورى وعن عصره وأعماله بإيراد زجل طويل مؤثر لصديقه بدر الدين الزيتونى ، وهو من أشهر أدباء هذا العصر ، وفيه يصف النكبة ، ويرثى الغورى فى مقاطيع مبكية ، نقتبس منها ما يأتى :

غرُبت شمس دولة الغورى ... وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكمْ ... والفلك دار ولم يزل داير

* * *

والعجائبْ فى قتلة الغورى ... راح برجلو لقتلو خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا ... ما جرى لو ما مرّ بالخاطر

---

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٥٢ — ٥٣ .

دمعة العـين منى على الغورى | من دماها تجـرى لحزنى عـين
أرتجى فى الناس عين تساعدنى | من صباحى حتى تغيب العـين
كان عليـه ترقب زمان مُلْكو | والسعادة حتى أصـابو عـين

* * *

ذى العسـاكر شبهتها روضـة | فيها أغصان فرسان عليها زهور
واللبوس من الحـديد تحـكى | ورد أحمر بين الرياض منثـور
والإمارة تحـكى شجر مثمـر | فى رياض نشرو غـدا عـاطر
والمدافع ترمى سـفرجل كبار | ول رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسـلى قلبى على الغورى | وأقـلّو ياقلب اتفـكر
كل حادِثْ بأمر القـديم راحل | والإقامة للأول الآخـر

* * *

ياالذى جا يسمع عقود نظمه | خـذ وحرر عَنُّو بديع نقـلوا
وإن أتى لك من يطلب التاريخ | والوقائع عن المـلوك قُـلُّو
غربت شمس دولةِ الغـورى | وابن عثمان نجمو طلع سـاير
وبهـذا رب السما قـد حـكم | والفـلك دار ولم يزل داير[1]

ويتتبع ابن إياس حركات الغزاة بإفاضة منذ « مرج دابق » حتى قدومهم إلى القاهرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ (ديسمبر سنة ١٥١٦) . ويصف أهبة السلطان طومان باى لمقاومة الفاتح بحماسة ، وينوّه « بهمته العالية » فى إعداد وسائل الدفاع ، ويجيد شرح الوقائع الهائلة التى نشبت متعاقبة بين الجيش التركى وعلى رأسه سليم الأول ، وبين الجيش المصرى وعلى رأسه طومان باى والمماليك ، وكيف عبس القدر لمصر وجيشها ، فهزم طومان باى مراراً فى أنحاء القاهرة وضواحيها ؛ ولكنه استمر فى دفاعه جلداً مستبسلا حتى انفض عنه معظم أنصاره وجنده ، ففر إلى الصعيد يجمع هنالك أشتات جيشه وأهباته . وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى المفترسة ، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وعيثاً وهتكاً ونهباً ، ودامت هذه المذبحة الهائلة أياماً أربعة

---

(١) راجع هذه القصيدة المبكية بأكلها — بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٤ — ٦٨ .

من ثامن المحرّم سنة ٩٢٣ (أوائل فبراير سنة ١٥١٧) ويصفها ابن إياس « بالمصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان » ويقول : « إن الجثث كانت مرمية فى الطرقات من باب زَوِيلة إلى الرميلة ، ومن الرميلة إلى الصليبة ، إلى قناطر السباع ، إلى الناصرية ، إلى مصر العتيقة » ويقدر القتلى بأكثر من عشرة آلاف ، ويقدر من قتل من المماليك فقط بثمانمائة . ولكن هذا التقدير متواضع جداً ، إذ يقدر البعض ضحايا هذه الجريمة الشائنة بخمسة وعشرين ألفاً .
ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى أمر سليم الأول بإعدام الأمراء المماليك ، وكان قد احتال عليهم ووعدهم بالأمان حتى ظهروا ، وعددهم أربعة وخمسون أميراً وقائداً ؛ وقبض على نسائهم وفرض عليهن الغرامات الفادحة . ثم كانت الموقعة الأخيرة والفاصلة فى السادس من ربيع الأول (أبريل سنة ١٥١٧) بين الغزاة ، وجيش طومان باى ؛ فإن هذا الأمير الجلد الشجاع عاد بقواته على مقربة الجيزة يحاول مرة أخرى إنقاذ الوطن من براثن الوندال ، ولكن القدر ظل على عبوسه له ، فهزم للمرة الخامسة ، وغاض كل أمل فى إنقاذ حريات مصر واستقلالها ، وظفر الفاتح بعد ذلك بطومان باى ، وأمر بإعدامه ، فشنق على باب زويلة أمام أعين ذلك الشعب الذى كان مليكه قبل ذلك بأشهر قلائل ، والذى أحبه وقدر خلاله .
ويرثيه المؤرخ فى قوله : « صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . وكان شجاعاً بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العنارة ... وقاسى شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجا ... ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولم يعهد مثل هذا .

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كأنه لن يذكرا »[1]

ولبث سليم الأول فى القاهرة زهاء ثمانية أشهر ، يذيق وجنده ، المصريين ، أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة ، ويجمع من تراث مصر وثروتها الفنية ، كل ما وصلت إليه يده ، ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية ،

---

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ١١٥ .

ويبعث بها إلى قسطنطينية ؛ ويقبض على أكابر مصر وزعمائها ، وعلمائها ، ورجال المهن والفنون فيها ، ومهرة الصناع والعمال ، ويحشدهم أكداساً فى السفن ، ويبعث بهم إلى قسطنطينية ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس بمصر وأفراد أسرته ، وجماعة كبيرة من الأمراء والقواد والقضاة . وكان الفاتح يرمى بذلك إلى غرضين : الأول تجريد مصر من أكابرها وزعمائها ليحطم بذلك عصبيتها ، ويقتل قواها المعنوية ، والثانى نقل تراث مصر الفنى والفكرى والصناعى إلى قسطنطينية . ويقول ابن إياس فى ذلك : « وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها » ويعقد فصلا خاصاً يذكر فيه أسماء كل من نفى إلى قسطنطينية من أكابر مصر وأعيانها ومفكريها وفنانيها[1] ، ويختتم هذه الوقائع كلها بقصيدة طويلة من نظمه هذا مطلعها :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ... من حادث عمّت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى ... غمض العيون كأنها سنة الكرى

ومنها : الله أكبر إنها لمصيبة ... وقعت بمصر مالها مثل يرى
لهفى على عيش بمصر قد خلت ... أيامه كالحلم ولى مدبرا
قد كان هذا الإنتقام بمصرنا ... سبقت به الأقدار كان مقدرا

ويفيض المؤرخ فى أعمال الفاتح وجوره ، وما أصاب شعب مصر من بطشه وعسفه حتى مغادرته مصر ، ثم يتتبع أخباره بعد ذلك حتى وفاته عام ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠م) ، ويترجمه بهذه المناسبة ، ويرثيه بأبيات من نظمه[2] .

---

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ١١٩ .

(٢) تستوقف النظر هنا إشارة بدرت من المؤرخ ، فهو يحيل القارئ فيما ارتكبه سليم الأول فى مصر ، إلى كتاب له يسميه بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وذلك فى قوله : « ومن أراد أن ينظر ما وقع منه بالديار المصرية فلينظر إلى الجزء الخامس من تاريخنا « بدائع الزهور » (ج ٣ ص ٢٣٥) ووجه التساؤل هنا ، هو أن مؤلف إياس فى تاريخ مصر ، وهو الذى ندرسه فى هذا الفصل ، يسمى بهذا الاسم أعنى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فهل تكون هذه التسمية خطأ ، وهل يكون « بدائع الزهور » هذا مؤلف آخر لابن إياس غير الذى وقع فى يدنا وعرف بهذا الاسم ؟ على أنا نرجح أن « بدائع الزهور » الذى يشير إليه المؤرخ إنما هو المطول لمؤلفه ، لأن النص الذى نشرته مطبعة بولاق قد نقل كما قدمنا عن مختصرات فقط لتاريخ ابن إياس .

ومن الغريب أن ابن إياس يبدى فى عواطفه نحو الفاتحين ترددا واضطرابا ، فبينما يحمل على سليم الأول ، ويعدد جرائمه ومثالبه فى حق وطنه ، إذا به يلقبه بالملك المظفر ، ويترحم عليه حين يذكر نبأ وفاته ، ويدعو بالنصر لولده وخلفه السلطان سليمان . ومن الصعب أن نضبط عواطف المؤرخ فى هذا الموقف ، وفى كثير غيره ؛ ومن الصعب أيضاً أن نتعرف حقيقة المؤثرات التى ربما دفعت قلم المؤرخ بما قد يخالف حقيقة عواطفه ؛ فلعله وهو كما رأينا ينحدر من أصل شركسى أو تركى ، يتأثر هنا بنوع من عصبية الجنس . ومن جهة أخرى ، فقد كان ابن إياس يدون روايته فى عهد اضطراب وفتنة ، وربما كان هذا التردد بين المديح والذم ، نوعاً من حرية التقدير عند ابن إياس ، فهو مثلا لا يحجم عن الحملة على مواطنيه . ووصفهم بأنهم « ليس لهم عقول ، يصدقون بالمحاولات الباطلة » .

هذه هى رواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى ، وهى وثيقة تستمد نفاستها ، رغم ضعف بيانها، من المعاصرة والمشاهدة . بيد أنه يجب ألا نبالغ فى مدى هذه المشاهدة ، فإن ابن إياس لم يكن جندياً يخترق الصفوف ، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة . والظاهر أيضاً أنه كان قليل الطواف والتنقل فى تلك الأيام العصيبة التى دون حوادثها ، فهو مثلا لم يحاول أن يرى سليما الأول رغم إقامته فى القاهرة عدة أشهر ؛ وهو لذلك يعتمد فى وصف شخصه على صديق له رآه. ولا غرو فقد كان ابن إياس فى ذلك الحين شيخاً يجاوز السبعين ، وربما لحقته أوصاب المرض . غير أن ابن إياس كان أديباً ومفكراً كبيراً ، يتصل بأكابر عصره ؛ وكان فى وسعه أن يتحرى من المصادر والجهات المطلعة ، وكان يشهد بعينه كثيراً من المناظر والآثار المادية لما يدون من الحوادث ، ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها . بل إن المؤرخ لا يملك نفسه أن يهتف لنفسه فى خاتمة مؤلفه ، وأن يملق نفسه بأنه « وقع له فيه من المحاسن ما لم يقع لغيره من المؤرخين » وأن :

« تاريخنا بهجة المجـــالس يطرب من لفظــه المجـالس
سمـــاعه للـــورَى ســـرور يشرح صـــدراً لكل عابس »

أما نحن فنرى فى رواية ابن إياس ، وما يسرده من حوادث هذا الفتح الوندلىّ ، وفى ذلك الاستشهاد الطويل المروّع الذى عانته مصر تحت النير التركى الغاشم ، درساً قومياً خالداً عميق الأثر ؛ ومثلا حياً ساطعاً لسياسة السفك والتخريب الآثمة ، التى وصمت إلى الأبد ذكرى الوندال والهون والتتار ، ومن إليهم من الشعوب البربرية الغازية ؛ ونبراساً مستنيراً لفهم نفسية هذه الشعوب الهدامة ، وتقدير مجدها الذى لم يقم إلا على اجتياح الشعوب والمدنيات الزاهرة[1] .

(١) نشر هذا الفصل ضمن المجموعة التى تضمنها كتابى « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » (الطبعة الثانية) ص ٢٠٧ — ٢٢١ .

الفصل العاشر

محمد بن أبى السرور البكرى

(١٠٠٥ - ١٠٦٠هـ) : (١٥٩٦ - ١٦٥٠م)

كان من الطبيعى أن تخبو النهضة الأدبية ، وأن تتحطم الأقلام بمصر ، عقب الفتح العثمانى ، ومن ثم فإنا نرى النهضة التاريخية التى ازدهرت فى القرن التاسع ، والتى خلفت لنا الموسوعات العظيمة فى تاريخ مصر الإسلامية ، تخبو بدورها ، ولا نجد بعد ابن إياس ، مؤرخين مصريين يتناولون تاريخ بلادهم بمثل الإفاضة ، والسعة ، والتبحر ، التى طبعت كتب المقريزى ، وابن تغرى بردى ، والعينى ، والسخاوى.

ومن ثم فإنا نجد التراث المصرى التاريخى يتضاءل خلال العصر العثمانى ، ويتحول معظمه إلى مؤلفات وملخصات قاصرة ، يتعلق معظمها بهذا العصر ، وتعداد سلاطين آل عثمان ، ونوابهم بمصر ، وقلما نعثر إلى جانب ذلك بروايات ضافية عن أحوال مصر ومجتمعاتها فى ذلك العصر .

على أن هذه المؤلفات المتواضعة ، تمثل مع ذلك بين مصادر التاريخ المصرى ، وتلقى أضواء كثيرة على طبيعة الحكم العثمانى ، وأحوال الولاة العثمانيين ، وخصائص الإدارة العثمانية للبلاد ، كما تلقى بعض أضواء على أحوال المجتمع المصرى ، وما كان يعانيه فى ذلك العصر ، من ضغط الفاتحين وعسفهم وجشعهم .

وكان فى مقدمة مؤرخى العصر العثمانى ، كاتب لامع خصب ، هو ابن أبى السرور البكرى ، الذى عاش خلال القرن الحادى عشر الهجرى ، وترك لنا عدة مؤلفات تاريخية ، عن النصف الأول من العصر العثمانى ، أعنى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر .

وهو محمد بن محمد بن أبى السرور شمس الدين البكرى الصديقى المصرى ، المعروف بابن أبى السرور البكرى سليل الأسرة البكرية المعروفة . ولد بالقاهرة سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) ، وتوفى بها فى سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) .

وليست لدينا تفاصيل عن حياته . بيد أنه يبدو من نسبته ، ومكانته العلمية ، أنه كان عميد السادة البكرية فى وقته ، ويبدو من جهة أخرى من موضوعات كتبه ومقدماتها ، أنه كان من أولياء الحكم العثمانى ، وأنه كان وثيق الصلة بالولاة العثمانيين ؛ فمعظم كتبه ، حسبما سنرى ، يدور حول تاريخ الفتح العثمانى ، وسير الولاة والقضاة العثمانيين منـــذ الفتح حتى عصره . وقد ترك لنا ابن أبى السرور فى هذا الميدان تراثاً تاريخياً هاماً ، يلقى أضواء كثيرة على أحوال الحكم العثمانى والحكام العثمانيين (أو البكلربكية حسبما يسميهم) فى القرن العاشر الهجرى وأوائل القرن الحادى عشر .

ويتكون تراث ابن أبى السرور من عدة مؤلفات تاريخية ، وكلها ما يزال مخطوطاً لم ير الضياء . ومعظمها يدور حسبما تقدم حول تاريخ آل عثمان والحكام العثمانيين ، وليس بينها سوى مؤلف واحد ، يدور حول التاريخ العام وتاريخ الدول الإسلامية ، ومن بينها الدول المصرية منذ الفتح الإسلامى ، وسوف نبدأ باستعراض هذا المؤلف العام ، ثم نستعرض بقية مؤلفاته على النحو الآتى :

(١) كتاب « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » .

وهو مجلد ضخم يقع فى أكثر من أربعمائة صفحة كبيرة ، وقد رتبه مؤلفه على تسعة عشر مقصداً أو فصلا ، هى على الترتيب كما يلى : ذكر بيان شرف التاريخ . ما للناس من القول فى مدة الزمان واختـــلافهم فى أعمار بنى آدم . فى ذكر من كان قبل آدم من المخلوقات . ذكر آدم ومن بعد من الإنسان إلى حنظلة بن صفوان . ذكر ملوك الفرس . ذكر ملوك الفرس والساسانية . ذكر ملوك اليونانيين . ذكر ملوك الروم . ذكر النبى وسيرته . ذكر الخلفاء الخمسة من بعده . ذكر خلفاء بنى أمية . ذكر خلفاء بنى العباس . ذكر دولة بنى أمية بالأندلس . ذكر أعيان الدولة الديلمية البويهية . ذكر الخلفاء الفواطم . فى ذكر دولة آل سلجوق . فى ذكر الدولة الأيوبية . فى ذكر الدولة التركية . فى ذكر الدولة الجركسية . وهذا الفصل هو خاتمة الكتاب .

ويقول لنا المؤلف إنه لم يتناول دولة آل عثمان فى هذا التاريخ ، لأنه أفرد لها تاريخاً مستقلا ، هو الذى أسماه « المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية » ، وهو الذى سوف نستعرضه بعد .

ومن الواضح أن المؤلف يجرى فى سرد تاريخ هذه الدول بطريق الإيجاز ، بيد أنه يميل إلى التبسيط نوعاً فى حديثه عن الدول المصرية ، ولا سيما الدول المملوكية التركية والجركسية[١] .

(٢) كتاب « النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » .

وهذا أول الكتب التى يخص بها ابن أبى السرور تاريخ مصر ، وهو تاريخ موجز للدول المصرية ، يبدأه بذكر ملوك مصر قبل الطوفان ، وفى أيام الجاهلية ، وينقل فى ذلك ما رواه المسعودى . ثم يتحدث عن ملوك مصر القديمة ، وعمن دخلها من الأنبياء ، ثم عن فتحها فى خلافة عمر ، ومن وليها من الحكام المسلمين . ثم يتحدث عن الدول الطولونية ، والفاطمية ، والأيوبية ، ودول الملوك الجراكسة . كل ذلك بمنتهى الإيجاز . ثم يتناول بعد ذلك « ذكر الدولة العثمانية بمصر المحمية » ، ويمهد له بذكر فتح مصر على يد السلطان سليم الأول . ويتحدث بعد ذلك عن خلفه السلطان سليمان ، فالسلطان سليم الثانى ، فالسلطان أحمد ، فالسلطان مصطفى ، فالسلطان مراد . ويتحدث فى عهد كل من هؤلاء السلاطين ،عمن ولى مصر من الولاة والحكام (البكلربكية) ، ومن قضاة العسكر . وهو يتناول أخبارهم بشىء من التبسط ، ويسرد علينا ما وقع فى أيامهم من الحوادث . وذلك حتى ولاية خليل باشا فى سنة ١٠٤١ ﻫ (١٦٤١م) .

وفى القسم الأخير من الكتاب ، يحدثنا المؤلف عن خصوصيات مصر ، وعجائبها ومتنزهاتها ، وحفلاتها . ويشمل هذا الباب الكلام عن قناطر الجيزة ، وبركة الرطلى ، وبركة الأزبكية ، ثم عن الأهرام وأبى الهول (ويقدم إلينا المخطوط رسماً ساذجاً للأهرام وأبى الهول) ، وكل ذلك منقول عن الكتاب السابقين ولا سيما المقريزى[٢] .

---

(١) تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة مخطوطة من هذا الكتاب تحفظ بها برقم ٧٢ م تاريخ (مكتبة مصطفى باشا) ، وهو يقع فى ٢٠٣ لوحة كبيرة مزدوجة تضم ٤٠٦ صفحة فى كل صفحة ثلاثين سطرا .

(٢) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ٢٦٦١ تاريخ تحتوى على ١٠٩ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط ، كما توجد منه نسخة أخرى فى مكتبة جوتا ، وثالثة فى مكتبة جامعة اكسفورد (البودليان) .

(٣) كتاب « الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة » .

وهو كتاب صغير الحجم . ويصارحنا المؤلف فى مقدمته بأنه اختاره مما ورد فى كتبه الأخرى ، إذ يقول فى مقدمته « فهذا كتاب ... اقتطفت فيه أزاهير تواريخى التى ألفتها ، وجعلته خاصاً بالديار المصرية فى الدولة الشريفة العثمانية ، مع ما يضاف إلى ذلك من فضايلها البهية » .

ورتب المؤلف كتابه على ثلاثة أبواب يشرح لنا محتوياتها على النحو الآتى :

الباب الأول — فى ذكر فضايل مصر من الكتاب الكريم ، ومن سنّة النبى العظيم ، وذكر دعاء الأنبياء لمصر وأهلها ، وذكر وصف العلماء لمصر ودعائهم لها ، واختيارها للصحابة والملوك ومن بعدهم إلى وقتنا هذا . وذكر فتوح مصر .

الباب الثانى — فى ذكر من وليها من البكلربكية والوزراء ، من حين فتحها مولانا السلطان سليم خان فى سنة اثنين وعشرين وتسعماية إلى سنة أربع وخمسين وألف .

الباب الثالث — فى ذكر من وليها من قضاة العسكر أهل المقام الباهر . واعتمادى فى مدة الوزراء والبكلربكية وقضاة العسكر ، على ورود خبر العزل وجلوس الوزير أو البكلربكى والحاكم الشرعى على تخت مصر من المدة هى مدة قايم مقام .

ومن الواضح ، أن الباب الأول ، وهو المتعلق بفضايل مصر ، إنما هو ترداد وخلاصة لما كتب فى ذلك فى سائر كتب المؤرخين المتقدمين ، وليس فيه أى جديد ، كذلك لا يأتينا بأى جديد فيما يتعلق بفتوح مصر ، إذ هو منقول عن الكندى وابن زولاق .

والذى يهمنا فى هذا الكتاب قبل كل شىء ، هو ما يتعلق بذكر الحكام والقضاة العثمانيين ، وهو ما تحتويه البابان الثانى والثالث . وهو يسرد لنا أخبار البكلربكية أو الولاة ، وقضاة العسكر المتعاقبين ، وما وقع فى أيامهم من الحوادث . وبالرغم مما تتسم به روايته من الإيجاز ، فإنها تعتبر مرجعاً نفيساً لثبت الحكام والقضاة العثمانيين فى عصر نضبت فيه المراجع التاريخية المصرية[1]

---

(١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ١٩٢٦ تاريخ وتقع فى ٥٣ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط .

(٤) كتاب « المنح الرحمانية ، فى الدولة العثمانية » .

وهذا كتاب آخر لابن أبى السرور البكرى يخص به تاريخ الدولة العثمانية ، وذكر الولاة العثمانيين على مصر منذ افتتاحها . وهو يقول لنا فى مقدمته إنه بعد أن ألف كتابه « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » ، أعجب به بعض الفضلاء ، وسألوه « أن يفرد منه ذكر الدولة العثمانية الجليلة الخاقانية فى مؤلف لطيف ، مع زيادات بذكر ما حوته من مزيد السير » ، وأنه قام بتحقيق هذه الرغبة ، لأن ملوك آل عثمان هم « عين الملوك شرقاً وغرباً ، عجماً وعرباً ، مع ما أظهروه من العدل والإنصاف ، وإطاعة الشرع ، والنظر للرعية ، بعين الإسعاف ، إذ كان جدى يقول ، ما دام الملك باق فى آل عثمان ، فالشرع معمول به ، على توالى الزمان ، فأسأل الله بقاء دولتهم مع مزيد رفعتهم ، إذ أنها الرحمة الكاملة ، والنعمة الشاملة » .

ويتناول الكتاب ابتداء الدولة العثمانية ، منذ قيامها على يد مؤسسها عثمان خان ، ثم يذكر خلفاءه من السلاطين بالتعاقب : أورخان ، مراد الأول ، بايزيد ، محمد ، مراد الثانى . وليس لهذا القسم كبير أهمية ، إلا منذ الباب التاسع ، الذى يتحدث فيه المؤلف عن سلطنة سليم الأول فاتح مصر . ويذكر لنا المؤلف بإيجاز فتح السلطان سليم لمصر ، وما صاحب الفتح من الحوادث ، ثم يحدثنا عن سلطنة السلطان سليمان ، ثم عمن ولى مصر فى عهده من البكلربكية وأولهم مصطفى باشا ، الذى تولى حكم مصر فى ذى الحجة سنة ٩٢٨هـ (١٥٢٢) ، ثم أحمد باشا ، ثم قاسم باشا . ويذكر لنا مدة حكم كل منهم ، وبعض صفاته ، وما وقع فى مدته من الأحداث . ويتحدث بعد ذلك عن السلطان سليم الثانى ، ثم عن السلطان محمد بن مراد ، الذى تولى السلطة سنة (١٠٠٣ هـ) ثم السلطان أحمد (١٠١٢ هـ) ثم السلطان مصطفى (١٠٢٦ هـ) . ويذكر لنا أسماء الولاة (البكلربكية) الذى تولوا حكم مصر فى عهد كل سلطان من هؤلاء ، ويحدثنا عن الوباء الذى نزل بمصر فى ربيع الأول سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) فى عهد السلطان أحمد ، وعهد الوالى جعفر باشا ، وعمن راح ضحيته من الأعيان . ويلحق بهذا المؤلف الذى يشغل من نسخته المخطوطة ٩٢ لوحة مزدوجة ، قطعة

صغيرة فى « اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » ، تشغل نحو عشر لوحات أخرى[1]

(٥) « اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » .

إن ابن أبى السرر البكرى يكرر نفسه فى كتبه ، ولا سيا حول ذكر الولاه والقضاة العثمانيين الذى تولوا الحكم والقضاء بمصر . وهذا ما فعله فى هذا الكتاب . فهو يقول لنا فى مقدمته إنه « بعد أن ألفت كتابى المسمى بالمنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، وذكرت فيه بكلربكيتهم بمصر ، فخطر لى أن أجمع تاريخاً له ، وزدت فيه ذكر قضاتهم بمصر مع زيادات ظفرت بها بعد تأليفى المنح ، وسميته « فيض المنان بذكر دولة آل عثمان » . وهذا العنوان الذى ورد فى المقدمة يخالف العنوان المدون فوق الورقة الأولى من المخطوط ، وهو الذى أوردناه فيما تقدم .

ويبدأ ابن أبى السرور كتابه بذكر جلوس السلطان عثمان بن السلطان أحمد فى ربيع الأول سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٨ م) ، وما وقع فى عهده من الحوادث . غير أنه يبدأ ذكر الولاة منذ الوالى أحمد باشا الذى تولى حكم مصر فى سنة ٩٣١هـ (١٥٢٤ م) ، ثم يسرد أسماء الولاة تباعاً ، وما كان يقع فى ولاية كل منهم من الحوادث ، وهم على التوالى قاسم باشا . إبراهيم باشا . الوزير سليمان باشا . خسرو باشا . سليمان باشا . داود باشا . على باشا . محمد باشا الشهير بدقادن زاده . إسكندر باشا . على باشا الصوفى . ثم محمد باشا وهو الخامس عشر من الولاة العثمانيين . ويجرى ذكر هؤلاء الولاة حتى سلطنة السلطان مصطفى فى سنة ١٠٣١هـ .

ثم يقدم لنا بعد ذلك فصلا يذكر فيه من ولى مصر من قضاة العسكر ، وأولهم المولى أحمد الرومى ، ويذكر مدة كل منهم ، وما جبل عليه من الصفات ، وما أحدثه من الأعمال والتغييرات ، ويسميهم جميعاً بالموالى ، ويستمر فى ذكرهم حتى المولى رضوان أفندى الشهير بالمحتشم ، وهو السادس والستون من قضاة

---

(١) يوجد من كتاب « المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية » بدار الكتب نسخة مخطوطة تقع فى ١٠٢ لوحة مزدوجة يشغل منها هذا الكتاب ٩٢ لوحة ويشغل الذيل المسمى « باللطائف الربانية » اللوحات العشرة الباقية . ويحمل هذا المخطوط رقم ١٩٢٦ تاريخ .

الدولة العثمانية بمصر ، وكانت ولايته للقضاء فى سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢١م)[١] .

وكتب ابن أبى السرور إلى جانب هذه المؤلفات التاريخية مختصراً لخطط المقريزى أسماه « قطف الأزهار من الخطط والآثار » ، ورتبه على نحو خطط المقريزى تقريباً ، فتكلم عن أصل تسمية مصر ، وعن نيلها وجبالها وأهراماتها وملوكها قبل الإسلام ، وعن الفتح الإسلامى ، ثم أخبار الفسطاط وأخبار الخلفاء والسلاطين ، كل ذلك بمنتهى الإيجاز . ثم تحدث عن الفتح العثمانى ، وعن نواب الدولة العثمانية حتى ولاية الوزير أيوب باشا (١٠٥٤ هـ) ، وعن قضاة مصر منذ الفتح الإسلامى ، ثم قضاة الدولة العثمانية حتى سنة ١٠٥٦ هـ . وهذه الفصول الأخيرة هى الزيادات التى أضافها المؤلف إلى مختصر الخطط . وأما عن الخطط فقد اقتبس المؤلف أبواب المقريزى ، عن القاهرة وقصور الخلفاء ، وعن الحارات والدروب ، وعن الصروح المختلفة من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق ، وعن القياسر والأسواق ، والكنائس والديارات . وهو يكتفى فى ذلك بما أورده المقريزى ، غير أنه يقرنه من آن لآخر بملاحظات وزيادات موجزة عما طرأ على أحياء القاهرة فى عصره من التغيير فى مختلف أحيائها . وهذا وجه أهمية هذا المختصر ، فهو يصل تاريخ الخطط فى بعض المعالم ، من حيث تركها المقريزى إلى عصره[٢] .

* * *

هذا مجمل ما تركه لنا ابن أبى السرور البكرى الصديقى من مراجع تاريخية ، يتعلق معظمها بالفتح العثمانى لمصر ، وبالولاة والقضاة العثمانيين ، منذ الفتح حتى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى .

وهى مراجع لا شك فى قيمتها وأهميتها بالنسبة لتاريخ مصر فى العصر العثمانى ، الذى يسوده نوع من الظلام ، وتندر فيه المصادر الجادة . ونستطيع أن نقول إن مؤلفات البكرى يمكن أن تعتبر حلقة هامة فى سلسلة مصادر العصر

(١) توجد نسخة مخطوطة من « اللطائف الربانية » بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٨٠ م تاريخ (مكتبة مصطفى باشا) وهى فى مجلد صغير متوسط القطع .

(٢) يوجد من كتاب « قطف الأزهار » نسخة خطية بدار الكتب تحفظ برقم ٤٥٧ جغرافية وهى عبارة عن مجلد متوسط يقع فى نحو ثلاثمائة صفحة . ومنه نسخ خطية أخرى فى باريس ولننجراد .

العثمانى ، تقترب من العصر الذى يعالجه الجبرتى فى بداية تاريخه ، وتقرب الثغرة بين العهدين . وإنه لتبدو لنا من هذا التراث حقيقة أخرى جديرة بالتسجيل ، وهى تتلخص فى موقف الطبقة المصرية العليا يومئذ من الحكم العثمانى ، وما كانت تبديه من ولاء أو ملق للدولة العثمانية المسيطرة على أقدار الوطن ، ولولاتها الذين عرف معظمهم بالاستبداد والعسف والقسوة الغاشمة فى حكم البلاد ، والعمل على سحق كل مقوماتها المادية والأدبية ، وذلك لكى تحتفظ بنعمائها ونفوذها وجاهها . ولقد أوردنا من قبل ، ما ذكره البكرى فى مقدمة كتابه « المنح الرحمانية » من مديح مغرق للدولة العثمانية ، وتنويه بما أظهره ملوك آل عثمان « من العدل والإنصاف وإطاعة الشرع » ، ومن دعاء ببقاء دولتهم « إذ أنها الرحمة الكاملة والنعمة الشاملة » . وننقل هنا فقرة أخرى مما ورد فى كتاب « الروضة المأنوسة » ، فى خاتمة الفصل الذى يتحدث فيه البكرى عن دعاء الأنبياء ووصف العلماء لمصر ، وقد أوردها شرحا لإحجام آل عثمان عن اتخاذ مصر داراً لملكهم ، قال :

« وأما ساداتنا آل عثمان ، فعدم جعلها دار ملكهم ، وكرسى سلطانهم لخوفهم على القسطنطينية من الكفرة ، ولما ملكوا من جهة بر روميل من الكفار ، فخافوا أن يجعلوها دار ملكهم لبعد المسافة من مصر إلى الجهة المذكورة . ولكن ليس عندهم أعظم من مصر ، ولا أرجح منها دون ساير بلادهم . فنسأل الله تعالى أن يبقيها بأيديهم إلى يوم القيامة »[1] .

ولسنا فى حاجة إلى التعليق على تلك الحقيقة المؤلمة، التى تنضح من مثل هذا الدعاء .

---

(١) مخطوط « الروضة المأنوسة » لوحة ٢٨ .

الفصل الحادي عشر

عبد الرحمن الجبرتي

واضع أسس الرواية عن مصر الحديثة

(١١٦٨ – ١٢٤٠ هـ) : (١٧٥٦ – ١٨٢٥ م)

ليس فى صحف مصر الإسلامية أظلم من العهد التركى ، ولم ينزل عصر من عصور الحكم الأجنبى بمصر ، ما أنزله بها حكم السلاطين والباشوات الترك ، ولم يعصف مثله عصر ببنى مصر ، أرواحهم وعقولهم وجسومهم . وهو حكم لا تعوزه الدلائل رغم ما يحيط بسير هذا العصر من أسباب الغموض والظلمات . فالعصر التركى أغمض صحف مصر أيضاً رغم كونه أحدثها ، وقلما نظفر عنه بوثائق تاريخية شافية ، أو صور صحيحة عن أحوال مصر الاجتماعية والفكرية ، وكل ما نظفر به سير الباشوات الولاة ، وأخبار عسفهم ومظالمهم ، ودسائسهم وأعمالهم الإدارية . وهى كلها صحف متماثلة . أما الشعب المصرى ، وحقيقة أحواله المادية والمعنوية ، فقلما نجد عنه فى هذه السير آثاراً شافية . ويرجع ذلك إلى طبيعة النظم السياسية والاجتماعية التى فرضت على مصر وشعبها خلال هذه القرون المظلمة . على أن مؤرخاً مصرياً استطاع أن يخلف لنا وثيقة نفيسة ، عن أحوال مصر فى العصر التركى ، وهى وثيقة تتعلق بأواخر هذا العهد ، ولكنها تلقى ضوءاً كبيراً على ما تقدم من عصور ، لأن التماثل فى النظم والأحوال كما قلنا ، من أهم ظواهر تاريخ مصر أيام الباشوات .

هذا المؤرخ الذى يعتبر بحق ، واضع الحجر الأول فى صرح الرواية عن مصر الحديثة ، هو عبد الرحمن الجبرتى . ولسنا نريد فى هذا الفصل أن نعرض للمؤرخ قدر ما نعرض لمجهوده التاريخى . فهو عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتى . ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦ م) ، وتوفى بها سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م) ، وتلقى من التربية والعلوم ما كان يسمح بتلقيه فى عصره ، وحفظ القرآن طفلا ،

وكان معلمه الأول أبوه الشيخ حسن برهان الدين ، وهو من أكبر علماء عصره ، وقد اشتهر بالأخص بتضلعه فى المعقولات والعلوم الرياضية . ودرس عبد الرحمن كذلك على أشهر أساتذة العصر ، وبرع بالأخص فى علوم الدين واللغة ، وكذلك فى الحساب والهندسة والفلك ، وهى العلوم التى تلقاها بالأخص عن أبيه ، وأبدى فى دراسته تفوقاً وذكاء . وهو يذكر لنا كثيراً من شيوخه خلال استعراض تراجمهم فى تاريخه . ثم تولى التدريس بالجامع الأزهر ، وكان يلقى دروسه فى الفقه والرياضة والفلك . ولما غزا الفرنسيون مصر فى سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، سافر الجبرتى إلى بلدة إبيار فى شمال الدلتا حيث توجد أملاكه ، معتزماً أن يقيم هنالك ، مؤثراً سكون الريف على اضطرابات العاصمة . على أنه لم يقم إلا قليلا . ولعل ذهنه الوثاب لم يطاوعه يومئذ ، على أن يبتعد طويلا عن حوادث فريدة فى تاريخ مصر ، خصوصاً بعد أن هدأت العاصفة الأولى . وعلى أى حال فقد كان المؤرخ يومئذ يرى الحوادث ويلاحظها عن كثب ، ويدوّن عنها مذكراته ، فعاد إلى القاهرة غير بعيد . ويقول مسيو الكساندر كاردان ، الذى نقل جزءاً من تاريخه إلى الفرنسية ، والذى استقى معلوماته عنه من أسرته ، أن المؤرخ استدعى ليعين عضواً فى الديوان العام الذى أنشأه نابليون من بعض شيوخ مصر ، ليستعين به على تهدئة الأحوال ، وضبط النظام ، وأنه عين فعلا عضواً فى هذا الديوان ، وظهر بين أعضائه ، ونال احترام قادة الجيش المحتل وكبرائه . ولكن المؤرخ لا يذكر لنا ذلك عن نفسه فى أخبار الديوان الذى يذكر أعضاءه العشرة ، وهو ليس منهم . كذلك لا يشير إلى ذلك فى كلامه عن الديوان الثانى المعروف بمحكمة القضايا الذى عقب الديوان الأول .

ولكن الجبرتى عين بالفعل عضواً فى الديوان الثالث ، الذى ألفه الجنرال منو فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠ م (جمادى الثانية سنة ١٢١٥ هـ) ، من تسعة أعضاء ، هم الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، والشيخ محمد المهدى كاتب السر ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد على الرشيدى صهر الجنرال منو ، والشيخ الفيومى ، وعبد الرحمن الجبرتى ، وهو يشير إلى نفسه فى هذا الموطن خلال ذكر الأعضاء

بقوله « وكاتبه » ، أى مؤلف الكتاب[١] . وعين الشاعر السيد إسماعيل الخشاب صديق الجبرتى الحميم أميناً للمحفوظات ، وكاتباً لسلسلة التواريخ ، وهى عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة . ومن الواضح أن اتصال الجبرتى على هذا النحو بسلطات الاحتلال ، كان يهيئ له فرصة طيبة للوقوف على الأحداث ، والاطلاع على كثير من الوثائق والبيانات والإحصاءات الرسمية ، والانتفاع بذلك فى تدعيم مجهوده التاريخى ، ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ الاحتلال الفرنسى .

وقد بدأ المؤرخ وضع مذكراته التاريخية قبل الاحتلال الفرنسى ، كما يستفاد ذلك من مقدمته إذ يقول : « أنى كنت سودت أوراقاً فى حوادث آخر القرن الثانى عشر (الهجرى) وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها ممن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعتبرين » . ونلمح من هذه العبارة أن الجبرتى أراد أن يكون مؤرخ عصره قبل كل شىء ، فدون ما وقع تحت بصره وسمعه ، من الحوادث والمشاهد والأخبار ، ولكنه رأى أن يمهد إلى عصره بحوادث العصر الذى سبقه . والواقع أن المؤرخ يبدأ تاريخه بفاتحة القرن الثانى عشر ، بعد أن يجمل تاريخ مصر أيام الدولة الإسلامية فى لمحة موجزة ، ثم يتبسط فى سرد الحوادث كلما اقترب من عصره . وهو يسلخ فى حوادث الجيل الذى تقدمه ، وهو أواخر القرن الثانى عشر ، مجلداً ضخماً . ولهذا القسم الأول من تاريخه قيمة كبرى ، إذ هو عرض واضح لدور من أدوار الحكم التركى ، يلقى ضياء على ما تقدمه من أدوار متماثلة فى معظمها ، ثم هو صورة قوية للمجتمع المصرى فى ذلك العصر ، ولعله وثيقة فريدة فى هذا الباب . وللرواية هنا كثير من القوة التى تمثل فيما يرويه المؤرخ بعد من الحوادث المعاصرة ، فهو قد تلقاها من « أفواه الشيخة » الذين عاصروا الحوادث وشهدوها ، هذا إلى ما يكون قد عثر عليه من وثائق ، أو حققه من الأشخاص الرسميين أو المصادر الرسمية ، وقد كان يتصل بها بحكم نشأته وتربيته العلمية ، وكان العلماء و« الشيخة »

---

(١) تاريخ الجبرتى (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٣ ص ١٤٤ .

يومئذ من أهم مصادر السلطان والرأى . ويبدو ذلك واضحاً فى كثير مما يرويه من حوادث هذا العصر .

ويختار الجبرتى لعرض الحوادث الترتيب الزمنى ، فيعرضها متعاقبة فى الأعوام والأشهر والأيام المتعاقبة ، على طريقة ابن الأثير فى الكامل ، وهى طريقة تخل أحياناً بنظام الربط والتدليل والاستنتاج . ولكنها لا تحدث مثل ذلك الأثر فى رواية الجبرتى ، لأن الحوادث التى يعرض لها ، إذا استثنينا عهد الاحتلال الفرنسى ، إنما هى فى الغالب سلسلة من الأعمال والنزعات والأهواء الفردية ، لا ترجع إلى فكرة أو سياسة عامة ، ثم هى إذا تعلقت بحركات الجموع ، كانت وثبات عرضية متقطعة ، لا تستند إلا إلى أسباب أو بواعث مؤقتة . وماذا دون الجبرتى غير أعمال الحكام وزعماء المماليك ، وسير الأفراد النابهين ، وفورات العامة ؟ على أن هذه هى كل تاريخ مصر فى هذا العصر ، ومن استقرائها وتحليلها ، يبرز المجتمع المصرى يومئذ فى صورته الحقيقية ؛ وهذه هى مهمة مؤرخ مصر فى عصرنا . أما الجبرتى فلم يعن إلا بأن يقدم إلينا ثبتاً من حوادث عصره وصوره المختلفة ، قلما يتخللها التعليق أو التحليل ، وأن يهب الخلف وثيقته القيمة ليقرأوا ويتأملوا ويحكموا . على أن الجبرتى يمتاز فى تطبيق هذه الطريقة بمهارة فى العرض وقوة فى الملاحظة ، ودقة فى التفصيل ، فهو يدون غير الحوادث السياسية والحربية ، كل حادثة اجتماعية أو اقتصادية ، ويعرج على أصغر الحوادث كما يعنى بأعظمها ، ويعنى بظواهر الطبيعة ، ومظاهر الحياة العامة ، وأحوال الأفراد العاديين ، وطبائعهم وأخلاقهم ، ثم يعنى بكل التفاصيل الجغرافية والتخطيطية ، حتى ليخيل إليك فى كثير من المواقف ، إنك تشهد معه ما يروى من حوادث القاهرة فى أحياء وأماكن ما زالت قائمة فى عصرنا ، فلم يكن الجبرتى مؤرخاً فقط ، بل كان أيضاً صحفياً بارعاً ، ولو أنه اختار أن يذيع مذكراته فى نشرات أسبوعية أو شهرية ، لكان بحق مبتكر الصحافة العربية ومنشوءها . وإليك مثلا مما يدونه فى حوادث عام ١١٠٦ هـ :

وفى ثامن عشر رجب ، ورد الخبر بجلوس السلطان مصطفى بن محمد .

« فى رابع شعبان ورد مرسوم بضبط أموال نذير أغا وإسمعيل أغا الطواشين فسجنوهما بباب مستحفظان وضبطوا أموالها وختموها .

« فى خامس شوال أنهى أرباب الأوقاف والعلماء والمجاورون بالأمر إلى على باشا بامتناع الملازمين من دفع خراج الأوقاف ، وخراج الرزق المرصدة على المساجد ، وما يلزم من تعطيل الشعائر ، فأمر الملتزمين بدفع ما عليهم من غير توقف فامتثلوا .

وفى حوادث عام ١١٠٧ هـ :

« فى منتصف المحرم اجتمع الفقراء والشحاذون رجالا ونساء وصبياناً ، وطلعوا إلى القلعة ، ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع ، فلم يجبهم أحد ، فرجموا بالأحجار ، فركب الوالى وطردهم ، فنزلوا إلى الرميلة ، ونهبوا حواصل الغلة التى بها ، ووكالة القمح وحاصل كتخدا الباشا . وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة . . . ومات الكثيرون من الجوع ... واشتد الكرب ، وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ، ومن على رؤوس الخبازين ، ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه بالفرن ، ثم يعودون به .

« وفى شوال عمل الباشا مهماً عظيماً لختان ولده إبراهيم بك ، وختن معه ألفين وستمائة وستة وثلاثين غلاماً من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار .

وفى حوادث عام ١١٠٨ هـ :

« فى ١٣ ربيع الأول ورد أمر بتزيين أسواق مصر سروراً بمولود للسلطان سمى محموداً .

وورد الخبر باستشهاد مراد بك .

« وفى ١٣ رمضان أحضر الباشا الشيخ محمد الزرقانى أحد شهود المحكمة ، بسبب أنه كتب حجة وقف منزل آل إلى بيت المال ، فأمر بحلق لحيته ، وتشهيره على جمل فى الأسواق ، والمنادى ينادى عليه ، هذا جزاء من يكتب الحجج الزور ، ثم أمر بنفيه إلى جزيرة الطينة » .

وكثيراً ما يعرج المؤرخ على الظواهر الطبيعية ، فيقول مثلا :

« فى غاية الحجة سنة عشرين ، كسف جرم الشمس فى الساعة الثامنة ، واستمر سبع عشرة درجة ثم انجلت .

« فى شهر شوال (سنة ٢١) ترادفت الأمطار ، وسالت الأودية حتى زاد بحر النيل بمقدار خمسة أذرع ، وتغير لونه لكثرة ممازجة الطفل للماء فى الأودية ، واستمرت الأمطار تنزل وتسكب إلى غاية الشهر ، وكان ابتداؤها من غرة رمضان .

ويعنى المؤرخ بتدوين عادات عصره ورسومه بدقة ، وإليك كيف يصف حفلة عرس وقعت فى عام ١٢٠٦ هـ وهى مما شهدها بنفسه :

« فى أواخر شهر الحجة شرع إبراهيم بيك فى زواج ابنته عديلة هانم للأمير إبراهيم بيك المعروف بالوالى أمير الحاج سابقاً ، وعمر لها بيتاً مخصوصاً بجوار بيت الشيخ السادات ، وتغالوا فى عمل الجهاز والحلى والجواهر ، وغير ذلك من الأوانى والفضيات والذهبيات . وشرعوا فى عمل الفرح ببركة الفيل ، ونصبوا اصوارى أمام البيوت الكبار ، وعلقوا فيها القناديل ونصبوا الملاعيب ، وفردت التفاريد على البلاد ، وحضرت الهدايا والتقادم من الأمراء والأكابر والتجار ، ودعا إبراهيم بك ، الباشا ، فنزل من القلعة وأحضر صحبته خلعاً وفراوى ومصاغاً للعروس من جوهر ، وقدم له إبراهيم بك تسعة عشر من الخيل ، وسبحة لؤلؤ أقمشة هندية ، وشبقات دخان مجوهرة ، وعملوا الزفة فى رابع المحرم يوم الخميس ، وخرجت من بيت أبيها فى عربة غريبة الشكل صناعة الإفرنج ، فى هيئة كمال من غير ملاعيب ولا خزعبلات ، والأمراء والكشاف وأعيان التجارة مشاة أمامها » .

* * *

هذه الرواية المتعددة الألوان المختلفة النواحى ، هى ابتكار خاص للجبرتى ، وهو منهج فريد محدث فى تدوين تاريخ مصر ، وليس مبالغة أن نقول إنه يبدو من أحدث المناهج العلمية فى استقراء تاريخ الأمم ، من سير الطوائف والمجتمعات التى تتكون منها ، ومن ظواهرها العامة والخاصة ، وبالأخص من سير الأفراد وأحوالهم وخلالهم فى الحياة اليومية . ولعل الجبرتى إذ يقرن المنهج القديم ، الذى يعنى بتدوين تاريخ الملوك والحكومات ، بتاريخ الشعب ذاته ماثلا فى طبقاته وأفراده ، لم يكن يفكر فى أن يستحدث منهجاً فى التاريخ ، ولكن لا ريب

أنه كان يشعر ، وهو يدون أخبار الحياة اليومية ، والحوادث الصغرى، وعادات العصر ورسومه ، وأخلاق الأفراد وخلالهم ، بفكرة غامضة عن أهمية هذه التفاصيل وضرورتها ، لكى يقدم من المجتمع الذى عاش فيه إلى الخلف ، صورة واضحة قوية ، ويلوح لنا أنه وفق أعظم توفيق ، فى تصوير مجتمعنا المصرى فى العصر الذى عنى به ، وتصوير النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، التى كان يدين بها .

ونلمح فى كل ما يعرضه المؤرخ من هذه الصور الطريفة ، قوة فى الملاحظة، ودقة فى البحث، ووضوحاً فى العرض ، وبساطة فى التعبير ،ونزاهة فى التقدير . بيد أنه يبدو فى ذروة هذه المواهب ، فى القسم الذى كتبه عن الغزوة الفرنسية والاحتلال الفرنسى . ويشغل هذا القسم معظم المجلد الثالث من تاريخه ، وفيه يأتى على كل كبيرة وصغيرة، من حوادث هذه الأعوام الثلاثة، ويعنى بالأخص بتدوين كل ما قامت به السلطة المحتلة ، من الأعمال العسكرية والسياسية ، والمحدثات الإدارية والاجتماعية ، وإثبات معظم الوثائق التى صدرت فى صور الأوامر أو البيانات أو الرسائل ، والتى كان معظمها يعلق يومئذ على جدران القاهرة . وقد استفاد المؤرخ كثيراً من اتصاله بالسلطات المحتلة فى تحقيق روايته إلى أعظم حد ممكن . كذلك عنى الجبرتى بإثبات كل مجهود بذله الأمراء المماليك لمقاومة الاحتلال ، وهو يحدثنا أيضاً عن سائر الثورات الشعبية والمحلية التى اضطرمت ضد الفرنسيين. وذلك سواء فى أحياء القاهرة أو دروبها ، أو فى مختلف أنحاء الأقاليم ، ويفيض فى وصف هذه الحركات ، ويسرد لنا تفاصيلها بدقة ، وما أنزلته بالفرنسيين فى بعض الأحيان من الأضرار والخسائر الفادحة . ويحدثنا الجبرتى بنوع خاص عن أحوال عامة القاهرة وحركاتهم ، وأخبارهم . وهو فى ذلك يبدى خفة روح جمة ، حتى أنك لتبتسم عند كثير من أخباره وعباراته ، وقد تغرق أحياناً فى الضحك حينما تتلو أخبار « الحرافيش » و « الجعيدية » ، ومواكبهم ، ومعتقداتهم وأناشيدهم وذعرهم . وهنا يبدو الجبرتى فى خير ثوب نزاهة يمكن أن يرتديه مؤرخ ، يرى بلاده يغزوها العدو الأجنبي . فهو هادئ فى العرض هدوءه فى كل مكان آخر ، وهو باحث عن الحقيقة قبل كل شىء ، وهو يعف عن التعليق

الواضح . غير أنه لا يملك عواطفه فى مواطن قليلة ، فنراه مثلا يسخر من منشورات بونابرت التى يزعم فيها حبه للإسلام وصداقته للمسلمين « وأن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسر الصلبان على يدى (أى يد بونابرت) وقدر فى الأزل أنى أجئ من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها . . . إلخ » وأمثالها ، مما يصفه الجبرتى بحق « بالتمويهات » على العقول ، والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات ، التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر » . ولكن الجبرتى لا يملك نفسه إلى جانب ذلك ، من الإشادة بما يراه فى تصرف الفرنسيين من بوادر الحكمة والعدالة ، فنراه ينوه برفقهم وعدلهم فى استخدام العمال المصريين فى تمهيد الطرق « لأنهم لم يسخروا أحداً فى العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد الظهيرة »، ثم نراه يهتف لعدالة الفرنسيين فى حادث مقتل كبيرهم وقائدهم كليبر « لما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام ، من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج وغدره ، وقبضوا عليه وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة ، ثم نفذوا الحكومة فيهم (أى المتهمين) بما اقتضاه التحكيم . . . بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أوباش العساكر ، الذين يدعون الإسلام ، ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس ، وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » . وفى هذه العبارة الأخيرة إشارة خفية إلى مذبحة المماليك التى نعرض لها فيما بعد .

ويبدى الجبرتى فوق ذلك شديد إعجابه بما حمله الفرنسيون إلى مصر من أسباب الثقافة ، وضروب الفنون والمخترعات ، ويصف دار كتبهم التى أنشأوها فى حى الناصرية ، وما رآه فيها من الكتب النادرة ، والصور الممتعة ، والتصانيف الإسلامية المترجمة ، ثم يصف دار الكمياء ، وما شدهاه فيها من عجيب التجارب ، ومكتب التصوير ، وما رأى فيه من صور متقنة لمشايخ الديوان ورجالات مصر فى هذا العهد ، ولكل ما فى مصر من مشاهد الطبيعة فى الآثار والحيوان والطير . كذلك يمتدح تقدير المحتلين لكل مفكر ، وترحيبهم بكل باحث أو قارئ .

على أن هذا الصدق فى البحث ، وهذه الدقة فى التحرى ، وهذه النزاهة فى التقدير ، لم ترض ألكساندر كاردان ، مترجم القنصلية الفرنسية فى القاهرة ، الذى نقل إلى الفرنسية رواية الجبرتى عن الاحتلال الفرنسى ، ونشرها فى المجلة الأسيوية أولا ، ثم نشرها فى كتاب خاص ظهر فى باريس سنة ١٨٣٨ . فإن كاردان يحمل فى مقدمته على المؤرخ ، وينعته بأنه متعصب يذهب أحياناً إلى القذف والوقيعة ، ويكثر الخطأ فى إيراد الوقائع طبقاً لظواهرها ، والحال أن ذلك يرجع إلى خلل الإدارة الفرنسية لا إلى عسفها ، وإلى الأعوان الذين استندت إليهم من القبط والنصارى ، فهم الذين ارتكبوا الأغلاط الفاحشة ، وساموا المصريين الخسف . وقد يكون كاردان على حق فيما ينسبه إلى أولئك الدخلاء من مسئولية ، ولكن الجبرتى يرى بحق أن يرجع كل مسئولية فى النهاية ، إلى المحتلين أصحاب السلطة والكلمة الأخيرة ، وكاردان هو الذى يذهب بعيداً فى التحامل على المؤرخ ، الذى لم يدون سوى حوادث شاهدها بنفسه ، وحققها من مصادرها الصحيحة ، وأيدها بالوثائق الرسمية ، وهذا التحقيق نفسه هو الذى يثير سخط كاردان ، إذ يرى نفسه أمام وثيقة متينة يصعب نقضها ، وأمام أخطاء وفضائح صدرت من مواطنيه ، لاسبيل إلى الاعتذار عنها . وعندنا أن هذا التحامل ذاته شهادة للمؤرخ لا عليه .

* * *

ويطوى المؤرخ عهد الاحتلال الفرنسى هادئاً كما افتتحه ، ليستقبل عهداً جديداً فى تاريخ مصر . ثم يعمد بنفس النزاهة وصدق التحرى ، وضبط العواطف ، إلى سرد الحوادث والظروف التى أدت إلى انتزاع محمد على باشا منصب الولاية على مصر ، وكيف أدى محمد على مهام منصبه فى أعوامه الأولى ، ثم إلى سرد ما وقع بينه وبين زعماء المماليك من منازعات ومفاوضات . وهو فى كل ذلك يأبى التعليق كعادته حتى فى كبرى الحوادث والانقلابات ، قانعاً بقوة تصويرها ، ودقة عرضها ، على أنه لا يملك نفسه إزاء حدث جلل أو « كائنة من أشنع الحوادث » من أن يرسل أنات مصدور متقطعة . هذا الحادث الذى اهتزت له نفس المؤرخ ، وذاب له فؤاده ، هو المذبحة الشائنة التى دبرها محمد على للتخلص

من خصومه زعماء المماليك ، وأنصارهم وأتباعهم من أبناء مصر . وإذا لم يكن فى صحف المماليك فى هذا العهد ، وفى كثير من عصور الحكم التركى ، ما يشيد بذكرهم ،ويرفع من هيبتهم ، فإن التاريخ يسجل أنهم دافعوا عن مصر بأرواحهم أحقاباً ، وشادوا لها ببسالتهم مجداً لا يمحى ، وأقاموا فيها أيام دولهم الزاهرة ، للعلم والأدب صروحاً رفيعة ، ثم هلكوا أخيراً فى سبيل الدفاع عنها تحت أقدام الظافر ، وعاشوا بعد ذلك تحت نير المغتصب فى ظلام وعزلة . على أنهم لبثوا خلال عزلتهم طوال القرون لا يخمد سخطهم على الأجنبى المغير ، ولا يخبو شوقهم إلى استعادة لمحة من سلطانهم الذاهب . وقد كانوا هم الذين تحركوا وحاولوا رد الفرنسيين عن مصر ، بينما كان الولاة فى مصر وأتباعهم يتوارون ، وبينما كانت حكومة السلطان تسلم مصر، فريسة ذليلة لغزاتها الجدد . هذه البقية الباقية من جنود بواسل، هى التى خشى محمد على بطشها بسلطانه الفتى ، فلجأ للقضاء عليها إلى أوضع ضروب الغدر ، ودبر مذبحته ، التى ترتجف لذكرها الأوصال فرقاً .

وفى رواية هذه الواقعة الدموية ، يرسل الجبرتى لمحة من كوامن اشمئزازه وسخطه ، بل ينوح ويبكى ، حذراً متحفظاً ، ويسرد تفاصيل الجريمة ، دهشاً مروعاً ، ويصف بدقة ووضوح ، كيف انقلب الحفل الذى دبره محمد على ، وهرع المماليك أمراء وبطانة إلى شهوده ، فى أثواب ضاحكة بهيجة ، إلى مقتلة عظيمة ، وكيف أعقب تحية محمد على لضيوفه ، وثوب أعوانه القتلة بالأضياف، الذين لم يغب بعد عن آذانهم صدى تحيته ، ولم يستقر فى بطونهم ما تناولوا من شرابه . يقول المؤرخ فى وصف هذا الصباح الأسود : « وأسرف العسكر فى قتل المصريين ، وسلب ما عليهم من الثياب ، ولم يرحموا أحداً ، وأظهروا كامن حقدهم » ويسرد ضروباً مثيرة مروعة من الوحشية ، التى أبداها القتلة الغادرون فى إزهاق فرائسهم ، والتمثيل بها : « وعند ما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء ، انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم، طالبين النهب والغنيمة ، فولجوها بغتة ونهبوها نهباً ذريعاً ، وهتكوا الحرائر والحريم ، وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات ، وسلبوا ما عليهن من

الحلى والجواهر والثياب ، وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعه بسرعة ، فقطع يد المرأة » . وكانت المذبحة عامة ، تكسف بفظائعها ، كل ما نقرأ فى صحف الوندال وبرابرة العصور الوسطى . كانت سانت برتلمى أخرى[1] ، أو صورة من مذابح سبتمبر . فسالت الدماء مدراراً فى الأقاليم والقرى « ووردت الرؤوس ، فى ثانى يوم من النواحى ، فوضعت بالرميلة ، وعلى مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة ... » وكان القتلى « يلقون فى حفر فى الأرض فوق بعضهم البعض لا يتميز الأمير عن غيره ، وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظماء ، وألقوا جماجمهم المسلوخة ، على الرمم فى تلك الحفرة » . « فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التى لم يتفق مثلها » .

بهذه العبارة يختتم المؤرخ تفاصيل المذبحة العلوية ، وبها يرثى الفرائس . بل لعل أصدق ما فى الرثاء روعة التفاصيل التى عنى المؤرخ بضبطها وترتيبها . وقد تلمح أثر هذا الرثاء أيضاً ، فيما يورده المؤرخ من تراجم زعماء المماليك ، والإشادة بشجاعتهم وخلالهم . وإذا صدقنا ما يروى من أن يد الأهواء ، قد لعبت بما رواه المؤرخ عن أعمال محمد على ، فصادرت أول طبعة من مخطوط المؤرخ ، وأصدرت الحكومة طبعة حذف منها ما لم يرق ، للذين يريدون أن يصور محمد على للخلف دائماً فى ثوب الملاك الطاهر ، فإن ما أبقت عليه يد المحو من بودار الألم والأسى ، التى أرسلها الجبرتى خلال روايته ، ليست إلا لمحة ضئيلة مما عساه يكون قد سطره فعلا .

وقد ينتحل التاريخ الموضوع كل ما يستطيع من أعذار لمحمد على ، وقد يبرر المذبحة العلوية ، بأنها عمل من أعمال السياسة ، قضت به الحكمة والضرورة . ولكن مهما كانت قيمة هذه الأعذار ، فإن النقد النزيه ، سيذكر دائماً أن هذه الواقعة الدموية ، كانت ضربة أليمة للقومية المصرية ، وأنها عصفت أشد عصف

---

(١) وبين سانت برتلمى التى زهق فيها الهوجنوت فى فرنسا (سنة ١٥٧٢ م) ألوفا ، وبين مذبحة محمد على شبه كبير ، فقد اجتذب الهوجنوت سادة وبطانة إلى الإحتفاء بعرس أميرهم هنرى د نافار ، كما اجتذب محمد على فرائسه احتفاء بتشييع ولده طوسن . أما مذابح سبتمبر فقد وقعت بفرنسا سنة ١٧٩٣ ، وكانت من أروع وقائع الثورة . وفيها هلك ألوف من النبلاء ورجال الدين وأنصار الملوكية .

بحيوية مصر وبنائها الاجتماعى ، ومهدت إلى رهط من العناصر الأجنبية الدخيلة ، السبيل إلى استرقاق الطبقات المصرية الصميمة واستغلالها أجيالا .

* * *

ويعنى الجبرتى إلى جانب ما يسرده من حوادث الأيام والسنين ، بترجمة أعلام العصور التى يتحدث عنها ، ولا سيما أعلام عصره ، وذلك فى فصول مفردة . والواقع أنه يقدم إلينا بهذه الفصول ثبتاً حافلا جداً ، أو دائرة معارف تاريخية لأعلام مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل القرن الثالث عشر ، من مفكرين ، وجند ، وساسة . ويعنى بالعلماء والمفكرين المعاصرين عناية خاصة ، ويسرد أحياناً طرفاً من آثارهم فى النثر والنظم . ولهذه اللمحات قيمتها فى تقدير مكانة الأدب ولغته فى هذا العصر ، وأسلوب الجبرتى نفسه صورة صادقة ، من آداب هذا العصر . ولعل أخص ما يلفت النظر تردد هذا الأسلوب بين القوة والضعف ، وبين الفصاحة والركاكة ، واقترانه بكثير من الألفاظ العامية .

ويمتاز تاريخ الجبرتى بعدة مميزات هامة ، تضاعف من قيمته التاريخية والحضارية ؛ من ذلك أنه يقدم إلينا صورة طيبة من حياة المجتمع المصرى ، وعاداته وتقاليده فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وهى فترة تعتبر مرحلة فصل بين عهدين من تاريخ مصر ، خاتمة العصر التركى ، وبداية العصر الحديث ، الذى يمتاز بسرعة تطوره نحو حياة جديدة ومجتمع جديد .

ومن ذلك أنه يصف لنا كثيراً من أحياء القاهرة وصروحها التاريخية وخططها فى ذلك العصر خلال سرده لمختلف الحوادث ، وهو وصف يعتبر حلقه متممة لما تقدمه من أوصاف سابقة للمدينة العظيمة ، فى كتب الخطط والآثار ، ومنه نستطيع أن نضع خريطة مفصلة لمواقع القاهرة ومعالمها فى ذلك العصر.

ويحظى الجامع الأزهر ، وشيوخه وطلابه من الجبرتى بعناية خاصة ، فهو يسرد لنا كثيراً من الحوادث التى يمتزج بها اسم هذا المعهد الشهير ، ويقدم إلينا تراجم كثير من علمائه ، ويذكر لنا كثيراً من أحوال طلابه ، وذلك بالأخص فى عهد الاحتلال الفرنسى ، حيث لعب علماء الأزهر وطلابه ، أكبر دور فى الثورات الشعبية المختلفة التى اضطرمت ضد الفرنسيين ، ثم هو يذكر لنا مختلف

المواقف والمناسبات الهامة ، التى كان يضطلع بها « المشايخ » أو العلماء فى سير الحوادث العامة ، وفى قيادة الجموع ، وفى تمثيل الشعب أو الدفاع عنه وعن حقوقه ومطالبه لدى مختلف السلطات . وبذلك تبرز لنا شخصية الأزهر القوية فى ذلك العصر ، وتتبلور مهامه السياسية والاجتماعية فى رواية الجبرتى بصورة واضحة لا نجدها فى أية رواية أخرى .

وكذلك فإن تراجم المعاصرين ، التى يذيل بها الجبرتى فصوله التاريخية ، تقدم إلينا مجموعة نفيسة من تراجم أعيان مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل القرن الثالث عشر ، مما لا نكاد نجده فى أى مصدر آخر غير الجبرتى ، وهى بذلك تتم حلقات تراجم الأعيان ، من بعد كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للأمين المحبى ، وكتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر لأبى الفضل المرادى .

وقد استمر الجبرتى فى تدوين حوادث عصره حتى نهاية سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) . وهو يسمى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » . وقد نُقل المؤلف إلى الفرنسية وطبع فى القاهرة سنة ١٨٨٨ ، وهذا عدا ترجمة كاردان لقسمه المتعلق بالحملة الفرنسية ، التى سبقت الإشارة إليها . وللجبرتى أثر تاريخى آخر عنوانه : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » يخصصه لحوادث الاحتلال الفرنسى ، وقد استخرجه من مذكراته ، ووضعه عقب جلاء الفرنسيين عن مصر ، بإشارة الوزير يوسف باشا ، ورفع إلى السلطان سليم الثالث فنال استحسانه ، وترجم إلى التركية ونشر فى سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) فى حياة مؤلفه . وقد عاد الجبرتى فأدمجه فى تاريخه مع زيادات وتعليقات كثيرة .

وتوفى المؤرخ فى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) شيخاً يربى على السبعين ، بعد أن فقد بصره ، وجداً على ولد له توفى قتيلا سنة ١٨٢٣ ، ثم لحقه إلى القبر بعد ذلك بعامين .

ثبت المصـــادر

كتاب فتوح مصر وأخبارها لعبد الرحمن بن عبد الحكم (طبعة ليدن)
كتاب تسمية ولاة مصر لأبى عمر الكندى (طبعة لجنة ذكرى جب)
كتاب تسمية قضاة مصر لأبى عمر الكندى (طبعة لجنة ذكرى جب)
فتوح البلدان للبلاذرى
فتوح الشام للواقدى
أخبار سيبويه المصرى لابن زولاق (القاهرة ١٩٣٣)
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى
أخبار مصر لابن ميسر
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى
السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى .
إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزى ،
إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى .
نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى .
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى
صبح الأعشى لأبى العباس القلقشندى
الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق
وفيات الأعيان لابن خلكان
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى
تذكرة الحفاظ للذهبى
طبقات الشافعية للسبكى
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثانية لابن حجر (طبعة حيدر أباد)
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر
تهذيب التهذيب لابن حجر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى .
التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى .
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى .
نظم العقيان فى أعيان الأعيان للسيوطى .
تاريخ الخلفاء للسيوطى .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس (طبع بولاق) .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الأجزاء الثالث والرابع والخامس المنشورة بعناية جمعية المستشرقين الألمانية) .
معجم البلدان لياقوت الحموى .
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة .
كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى .
تاريخ الأدب الجغرافى العربى للأستاذ كراتشكوفسكى (ترجمة الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم) .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى .

مصادر مخطوطة

الكواكب السائرة فى مناقب أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى .
إنباء الغمر بأنباء العمر للحافظ ابن حجر (مكتبة الأزهر) .
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى .
حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور لابن تغرى بردى .
الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوى .
القول التام فى فضل الرمى بالسهام للسخاوى (مكتبة الإسكوريال)
عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران للبقاعى .
الكاوى على تاريخ السخاوى للسيوطى .
تاريخ السلطان قايتباى (للسيوطى) .

التعريف بالمصلطح الشريف لابن فضل الله العمرى (مكتبة الإسكوريال) .
أخبار مصر (الجزء الأربعون) للمسبحى (مكتبة الإسكوريال) .
مسند الشهاب للقضاعى (مكتبه الإسكوريال) .
عيون الأخبار ونزهة الأبصار لابن أبى السرور البكرى .
النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية لابن أبى السرور البكرى .
الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة لابن أبى السرور البكرى .
المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية لابن أبى السرور البكرى .
اللطائف الربانية على المنح الرحمانية لابن أبى السرور البكرى .

* * *

Wüstenfeld : Geschichteschreiber der Araber

C. Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur :

G. Remiro : Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino (Tomo VIII - ano 1919)

Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis.

Derenbourg : Les Maruscrits Arabes de l'Escurial

Encyclopaedie de l'Islam.

Journal of the Royal Asiatic Society

الفهارس

فهرست الموضوعات

فهرست الكتب والرسائل

ج — ر

س — غ

ف — ل

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

فهرست الأعلام

ب — ز

كتب أخرى بقلم مؤلف هذا الكتاب

موسوعة الأندلس الكبرى

دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (جزءان) (الطبعة الرابعة ، مزيدة منقحة) .

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (الطبعة الثانية)

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (جزءان)

الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

* * *

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية (الطبعة الثانية تحت الطبع)

ابن خلدون — حياته وتراثه الفكرى (الطبعة الثانية)

مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (الطبعة الثانية)

مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (الطبعة الرابعة)

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (الطبعة الثانية)

تاريخ الجامع الأزهر (الطبعة الثانية)

* * *

HISTORIANS OF ISLAMIC EGYPT

By

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Decisive Moments in the History of Islam. Al - Hakim Bi - Amrillah. Islamic Egypt. History of Al - Azhar Mosque. History of the Moorish Empire in Spain. etc.



هذا هو العام السابع من عمر « مكتبة الأسرة » .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت « مكتبة الأسرة ».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عن... فى أكثر من « ٣٠ مليون نسخة » تحتضنها الأسرة المص... فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لا يبلى من أجل ... أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل ... ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبا...

مكتبة الأسرة



١٥٠ قرشا

